

# امتحانات

لـدكتور محمد عمارة

## تَصْبِيدُ الْمَهَاجِرَ

الدَّارُ الْعَالَمُّ لِلْعِلَامَةِ الْعَلَيْهِ الْمَدْعُوَةِ إِلَيْسَارِيَّةِ  
بِالْأَنْزَلِ هَرَ الشَّرِيفِ

### أهداوات ٢٠٠٣

أسرة المترجم الاستاذ/محمد سعيد البسيوني  
الإسكندرية

# الغزو الفكري

وهم أم حقيقة؟

للأستاذ

الدكتور / محمد رعماة



## بسم الله الرحمن الرحيم

### تمهيد

إنها واحدة من «القضايا - المشكلة» ، التي تشغل العقل العربي المسلم ، ويثيرها حولها الجدل ، ويحتمم الخلاف .. فكثيرون هم الذين يحذرون وينذرون من «الغزو الفكري» وعواقبه ومخاطرها .. وكثيرون هم الذين يسفهون من هذا التحذير والإذار ، منكرين ومستنكرين وجود هذه «القضية» من الأساس ! ..

بل إننا لا نغالي إذا قلنا إن الجدل حول هذه القضية - قضية «الغزو الفكري .. وهم؟ .. أم حقيقة؟؟» ليس خاصية من خصائص الحياة الفكرية لوطن العربية وعالم الإسلام .. بل هو معلم من معالم الحركة الفكرية في بلاد «العالم الثالث» ، وكل مواطن الأمم والحضارات التي أصبت بهيمنة الاستعمار الغربي خلال القرنين الماضيين .. بل لقد ارتفعت وترتفع بالشكوى من «الغزو الفكري» - أصوات في مواطن العراقة للحضارة الغربية - مثل فرنسا - محذرة من «الواحد الأمريكي» الذي يهدد بـ «أسلوب الحياة الأمريكية» القيم والأعراف الثقافية التي ترسخت في القارة الأوروبية منذ عصر نهضتها الحديثة ! ..

ولما كان الهم الذي يشغلنا ، والمسؤولية التي نجاهد كى نسهم في حمل تبعاتها .. معنية أساساً بالهم العربي الإسلامي ، وتبعات التهضة العربية الإسلامية ، كان توجهاً هنا ، إلى نظر هذه القضية في هذا الإطار .. مع إدراكنا أن نتائج هذا النظر حافلة بما يصلح للاستبهام والتعريم ، وخاصة في مواطن الأم ذات الحضارات العريقة التي شهدت ببلادها هيمنة الغرب الحضاري مع الغزوة الاستعمارية الغربية التي أصابت تلك البلاد في عصرنا الحديث .

\* \* \*

وإذا كانت الفطرة الإنسانية السليمة ، قد كانت ولا تزال من أقوم السبل وأضمنها وأقصرها لبلوغ الحقيقة في أعقد القضايا المشكلة .. فإننا سنختار سبيلها لجلاء وجه الحقيقة في هذا الموضوع .

ولذلك .. فنحن - بادئ ذي بدء - إذا تصورنا وطننا من الأوطان ، بحدوده « الجغرافية - السياسية » ، وشهدنا تحرك جيش هذا الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود ، فلن يكون ثمة مجال ل الحديث عن « غزو » لهذا الوطن .. لأن الحركة طبيعية ، في الإطار الطبيعي ، للحدود الطبيعية .

كذلك ، إذا نحن تصورنا الخريطة السياسية لـ « الدول » التي تقسم أرض الكوكب الذي عليه

نعيش .. ثم نظرنا إلى حركة « الهواء » وتيارات الرياح ،  
التي تعبر « حدود » هذه الدول .. وكذلك التيارات المائية  
التي تأتي إلى « المياه الإقليمية » من « المياه الدولية » ..  
فلن يتسعني لقائل أن يصف عبور « الهواء والماء » لهذه  
« الحدود » بأنه « غزو » يستدعي المنع والإنتشار .

وعند هذا الحد من التصور .. لابد لنا من أن نتساءل  
- كي ندخل إلى موضوعنا - : هل « الفكر » - على هذا  
الكوكب الذي نعيش فيه - بمثابة « الهواء .. والماء » ،  
لا يعرف ولا يعترف « بالحدود » ، ومن ثم فإن عبوره -  
سواء أكان بالهدوء أو بالاقتحام - لحدود الدول  
والأوطان ، لا يحمل شيئاً من سمات « الغزو » التي  
تستدعي المقاومة ؟ .. أم أن هذا الفكر هو بمثابة  
« الجيش » ، لابد وأن يلزم إطار « وطنه » وحدوده ، فإذا  
تعدى « الحدود » كان « غزواً » يستحق المقاومة  
والإجلاء ؟ .. أم أن من هذا « الفكر » ما هو بمثابة  
« الهواء والماء » ، لا يعرف ولا يعترف بالحدود والسدود  
والقيود .. ومن ثم فإن عمومه لوجه الكرة الأرضية ،  
بدولها وأوطانها المتعددة ، لا يعد « غزواً » .. ومنه  
ما هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن تتخخص حركته  
وتختص حريته بحدود دولته ، دون أن يتعدى هذه  
الحدود ؟ ! .

وكما حددت « بداهة الفطرة » هذا التصور مدخلاً لقضيتنا - قضية « الغزو الفكري » - .. فإنها قادرة - بل هي الأقدر والأجدر - على قيادة العقل العربي والمسلم إلى أصدق الإجابات على هذا السؤال : « الغزو الفكري .. وهم ؟ .. أم حقيقة ؟؟ » ..

\* \* \*

والأمر الذي يؤكد جدارة هذا التصور ليكون مدخلاً للبلوغ الحقيقة في موضوعنا .. أن الذين ينكرون ويستنكرون وجود « الغزو الفكري » ، معتبرين الحديث عنه مجرد « وهم » من الأوهام ، إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره - رغم الحدود الدولية السياسية والحواجز الجغرافية - وبسبب من التقدم الهائل في ثمرات « ثورة الاتصال » - ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره « وطنًا واحدًا » - « حضارة واحدة » ، يسمونها : « حضارة العصر » أو « الحضارة العالمية » أو « الحضارة الإنسانية » ، ويتصورون الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات في البناء الواحد لهذه الحضارة الواحدة .. ومن ثم ، فليس في هذا التصور حدود - لها حرمة الحدود - تميز « أوطاناً » متعددة - حضارات متميزة .. ولهذا ، فإن عبور الفكر - كل الفكر - للحدود - كل الحدود - ليس فيه ، عندهم ، شبهة « غزو » ولا أثر « عدوان » ! .

أما الذين ينكرون أن يكون عالم اليوم وطنًا حضاريًّا واحدًا لحضارة عالمية واحدة ، فإنهم يدعون إلى ضرورة احترام «الحدود الحضارية» .. لأن العالم في تصورهم ، هو أقرب ما يكون إلى « منتدى عالمي لحضارات متميزة» .. تشترك أممها في عضوية هذا المنتدى ، ومن ثم فإن بينها ما هو « مشترك حضاري عام» .. وأيضاً ، فإن هذه الأمم تتميز حضاريًّا ، الأمر الذي ينفي الوحدة الحضارية ، ويستدعي الحفاظ على «الهويات» الحضارية المتميزة .. لا لمجرد الحفاظ عليها - رغم أهميته - إنما لأسباب وطنية ، وقومية ، وعقدية ، تلعب دورها في إنهاض الأمم كثيرة من كبوتها وتراجعها ، لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكثير من المشروع ، والطاقات المحركة في معركة الإبداع .. ولما للتعددية الحضارية من دور في إثراء مصادر العطاء العالمي ..

وأيضاً لما نلِعتراف بهذه التعددية من كشف وتعريمة لروح الهيمنة والعدوان والاستعلاء ، التي تخفيها الحضارة المتغلبة على عالمنا المعاصر - وهي الحضارة الغربية - تحت ستار « وحدانيتها .. وعاليتها .. وإنسانيتها» .. ولما لهذا الكشف من دور في إذكاء روح المقاومة عند الأمم المستضعفة حضاريًّا ، ضد السمات والسمات التي مثلت وتمثل « مأزرق الحضارة الغربية» ، الذي يمسك اليوم بخناق إنسانها ، وذلك حتى لا تعم مأساته كل بني الإنسان ! .

فهنا .. ومنذ البدء .. يرفض الذين يعترفون بوجود « الغزو الفكري » ، وينبهون على مخاطره ، دعوى « الوطن الحضاري الواحد لعالمنا المعاصر » ، ودعوى « الحضارة العالمية الواحدة » لهذا الوطن الواحد .. ويقدمون بديلا لها : دعوى أن عالمنا هو أقرب ما يكون إلى « منتدى عالمي لحضارات متميزة » .. وأن الأمم المستضعة حضارياً لابد لها من النضال الحضاري ضد نزعة التفرد والهيمنة التي تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة - بالاستعمار القديم والجديد - على غيرها من الحضارات .. فالتعديية ، لا الواحدية ، هي الحقيقة المثلثة للواقع الحضاري في الكوكب الذي نعيش عليه .. ومن ثم فإن هناك حالات لنعدى « الحدود الحضارية » ، تمثل « غزواً فكريأً » لا شك فيه ! .

\* \* \*

ويبدو أن « الواقع » - مع « الفطرة » - ينهض ، هو الآخر ، بشاهدأ على صدق هذا التصور الأخير ! . فالذين يعايشون الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية والتاريخ القديم والتراث العريق .. أو يغوصون في تراث هذه الأمم وفلسفاتها ومذاهبها وتقاليدها وأعراوفها ، يدركون أن عالمنا به - حقا - أمم متعددة ، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة ، وإننا إذا نظرنا في مذاهب هذه الأمم وأعراوفها ، وفي معايير الحال والحرام والمشروع

والمنوع لدى أبنائها ، وفي موازين الأذواق والحسنة الجمالية ، وفي تصوراتها لمكان الإنسان من الكون ، وتصوراتها لمصيره بعد الموت ، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون وما وراء المادة والطبيعة .. إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم في هذه القضايا الأهميات ، أدركنا السمات التي تميز بينها - جنباً إلى جنب مع سمات تشتراك فيها فتجمع بينها - واستطعنا ، بسبور أغوار الموراث الفكرية لهذه الأمم ، أن نتتبع خيوط هذا التمايز الحضاري إلى حيث تضرب بجذورها في أعمق أعمق التاريخ ... ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل : الصين .. والهند .. واليابان ، ستفضي بنا إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية ، والموراث الحضاري ، وطرائق العيش ، والفلسفة في الحياة وفي النظرة للكون وتصوره ، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات ... وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية ، منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة .. والحضارة العربية الإسلامية ، منذ تبلورها كثمرة لاندماج الموراث القديمة للشعوب التي دخلت الإسلام - بعد الإحياء الإسلامي لهذه الموراث - كثمرة لاندماج هذه الموراث في الفكر الإسلامي ، الذي استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره الاعتقادية .. وحتى عصر النهضة الذي نتلمس سبله وننسج خيوطه الآن ! .

إنه التمايز الحضارى .. والتعددية الحضارية ، التى لا تتنى واقع «المشتراك الإنسانى العام» ، فتقع فى وهم الاختلاف الكامل ، والانغلاق التام ، وتصور علاقات الأمم كما لو كانت تدابراً وإدارة الظاهر للغير ، وأسواراً صينية تفصل ما بين الحضارات ... كما أنها لا تتنى واقع «التميز الحضارى» ، الذى يزكى «التعددية» ، وينهى «الوحادية» في هذا الميدان .

إذن .. فمذهبنا ، الذى نلتزمه ، ونركيه ، ونبشر به .. هو الذى يتخذ من هذه القضية موقفاً وسطاً ... أى عدلاً .

● فنحن ننكر تصور العالم : وطننا حضارياً واحداً ، لحضارة واحدة .. وهو تصور الذين ينكرون وجود «الغزو الفكري» ، ويرونه مجرد «وهم» من الأوهام ..

ونرى - كما سيأتى الحديث بعد - أن هذا الموقف - حتى مع افتراض حسن النية - مكرس وموظف لخدمة تمام الانتصار للحضارة الغربية المتغلبة على عالمنا المعاصر ، انتصارها - بالنسخ والنسخ والتلويه - على الحضارات العريقة التى ابتليت هى وشعوبها وأممها بغزو الاستعمار资料 الغربى فى عصرنا الحديث ... إنه طريق التبعية الحضارية ، الذى يحولنا إلى «هامش» لحضارة الغرب ، فنفقد خصوصيتنا الحضارية ، ونفتقد تواصلنا

الحضارى ، لنؤب - في النهاية - بأوزار المأزق الحضارى  
الذى يجاهد الغرب ذاته كى يجد السبيل إلى الخلاص  
منه ! .

● ونحن ننكر - أيضاً - تصور العالم : حضارات منعزلة  
 تماماً ، ومكتفية بذاتها كلية .. لأن هذا التصور ، فضلاً  
 عن تجاهله لواقع « المشترك الحضارى الإنسانى » ، فإنه  
 يقود الأمم التى تفرض العزلة الحضارية على نفسها إلى  
 ما يشبه « الانتحار الحضارى » ، عبر الجفاف والذبول  
 الذى يقود إليه هذا الطريق ... هذا إذا تصورنا إمكانية  
 سلوك مثل هذا الطريق ، مع ثمرات « ثورة الاتصال »  
 التى تقتسم مغالق النوافذ والابواب على الأمم  
 والشعوب ! .

● وننف ، بين هذين الموقفين ، الموقف  
 « الوسط - العدل » .. فنبصر ما هو عام ومشترك في الفكر  
 الإنسانى .. فندعو أمتنا إلى طلبه وتحصيله واستلهامه  
 وتمثله ، لتقوى به ذاتيتها ، وتزدهر به خصوصيتها ،  
 ويشتد به عود تميزها .. مع إدراك سمات الخصوصية  
 الحضارية وسماتها ، نحددها ، ونشير إلى سبل الحفاظ  
 عليها ودعمها وتنميتها .. استهدافاً لنهضة حديثة ، تمثل  
 الطور المعاصر لحضارتنا العربية ، وابتناء لابداع جديد  
 تسهم به أمتنا في إثراء الفكر الإنسانى المعاصر ، كما

صنعت من قبل في عصور الإزدهار التي صنعتها أسلافنا  
العظيم .

ذلك هو الموقف الذي نجتهد لنقيم عليه الأدلة والبراهين ..  
الموقف الذي يرى أن من « الفكر » ما هو بمثابة « الجيش » ،  
لابد وأن تلتزم حركته « الحدود » ، وإلا كانت هذه الحركة  
« غزواً فكريًا » ، تستوجب الرفض والصد والمقاومة  
والتحصين .. ومن هذا « الفكر » ما هو بمثابة « الهواء » ، لن  
يؤدي منعه من عبور « الحدود » - على افتراض تصور  
إمكانية هذا المنع - إلا إلى الاختناق ! ..

ذلك هو المدخل ، الذي يمهد بين يدي مبحث هذه  
« القضية - المشكلة » ، التي يدور من حولها الجدل ويحتمد  
الصراع ، في وطن العربية وعالم الإسلام .. على وجه  
الخصوص .

شهادة الفكر  
على  
المشتوى الإساني العام  
والخصوصية الحضارية



## علوم طبيعية عامة .. وآخرى إنسانية متميزة

نعم .. هناك في الفكر ، إذا نظرنا إليه على المستوى الإنساني والعالمي ، سواء أكان إبداعاً للإنسان المعاصر أم ميراثاً وتراثاً لأسلافنا ، في الحضارات المختلفة .. هناك في هذا الفكر ما هو « مشترك إنساني عام » لا يختص بحضارة بذاتها ، أو قومية بعينها ، أو أهل ديانة دون غيرها .. فهو كلامه والهوا ، تحتاجه كل نفس ، وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين .. ومن هذا الفكر ما يتميز بالخصوصية والاختصاص بإطار حضاري بعينه ، وشخصية قومية بذاتها ، ويقوم الاتساق بينه وبين تكوين عقدي دون سواه .. فيصبح وجوده وفعله طبيعياً في إطار بعينه ، حتى إذا تعدد هذا الإطار غداً نشازاً وضاراً ، يصطدم بالخصوصيات الطبيعية صدام الجيوش الغازية بالكربلاء الوطنية النافر والمتضدد من عوامل الغزو والقهر والاحتواء ..

ولحسن الحظ ، فإن التمييز - في الفكر - بين ما هو « مشترك إنساني » ، وبين ما هو « خصوصية حضارية » ، إنما تحكمه وتحددده معايير موضوعية ، لا تدع مجالاً للبس أو الغموض أو الاعتراض .. فكل العلوم التي موضوعها الطبيعة وظواهرها والمادة وخصائصها ، هي من قبيل

الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام ، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم ، تلك الحقائق التى هى بنت الدليل ، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين ، ومن ثم فهى لا تتغير بتغيرات القوميات والحضارات .. بل هي واحدة على المستوى الإنسانى ، كما أن موضوعاتها - المادة وظواهرها - واحدة هي الأخرى ، لا تختلف ولا تتغير باختلاف وتغير الحضارات .. فعلوم مثل الرياضيات ، بفروعها ، ومثل الكيمياء ، والطبيعة ، والطب والجیولوجیا .. لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات .. قد تتمايز وظائف استخدام قوانینها ونظرياتها ومكتشفاتها ، لكن حقائق علومها ، أي « فكرها العلمى » ، سيظل واحداً مهماً اختللت المذاهب والعقائد والحضارات .

ويتحقق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية ، الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها ، على نحو ما وإلى حد كبير ، العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات ، التي ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات .. فعلى الرغم من تمييز المقاصد والغايات والمثل ، فإن تجارب

الإنسانية في الوسائل والنظم والمؤسسات ، قد تكون صالحة ، في أحيان كثيرة ، للاقتباس - مع التطوير - وللتمثيل والاستلهام .. فتجارب الأمم الحرة في تمييز ممثلي الشعب و اختيارهم .. وتراثها في المؤسسات النيابية والديمقراطية .. وتجاربها في تحديد الحدود لسلطات الدولة : التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية .. والمؤسسات التي تبلورت على أرضها لتنهض بمهام البحث العلمي والتنوير الثقافي .. الخ .. الخ .. جميعها تجارب إنسانية ، تمثل سبلا وأدوات وأوعية ، من الممكن الاستفادة منها وبها ، مع تعدد وتمايز المضامين والمثل والغايات .. فسيان أكان الهدف « الديمقراطية الغربية » ، التي تطلق العنوان لحاكمية الأمة من أى قيد لأية شريعة إلهية ، أم كان الهدف « الشورى الإسلامية » ، التي تقيد سلطان الأمة بمقاصد الشريعة الإلهية ، فإن خبرات الأمم في المؤسسات النيابية تظل « وعاء » صالحًا كي يؤتى ثماره ، رغم اختلاف المقاصد والمثل والمضامين والغايات التي توضع في هذا « الوعاء » ، والتى تستهدف من وراء استخدامه . هذا عن العلوم الطبيعية ، والتجارب المادية ، التي تمثل حقائقها وخبراتها فكرًا عالميًّا ، هو من صميم « المشترك الإنساني العام » .

\* \* \*

أما الشق الآخر من «ال الفكر » ، الذى يدخل فى صميم « الخصوصية الحضارية » ، التى تتميز بتميز الحضارات ، فهو ذلك الذى تكون « النفس الإنسانية » موضوعاً لعلومه وفنونه وأدابه .. فهذه « النفس الإنسانية » ، التى تتميز مكوناتها وطبعاتها ومفاتيح عوالمها ، بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات ، أى بتميز الحضارات ، لابد وأن تتميز علومها - سياسة ، واجتماعاً ، وفلسفة ، واقتـــاداً سياسياً - تبعاً لتميز « مادة » هذه العلوم .. فكما تتميز علوم « المادة » الثابتة بالعالمية ، فغدت حقائقها وقوانينها « مشتركة إنسانياً عاماً » ... تتميز وتحتاج علوم « النفس الإنسانية » بالخصوصية الحضارية ، التى تجعلها وثيقة الصلة بطبعات الأمم ومعتقدات الشعوب ومثلها وطرائقها في الحياة .

ونحن إذا شئنا أن نضرب الأمثل على تميز العلوم والفنون والأداب إلى هاتين المنظومتين ، ومن ثم تميز فكر كل منظومة منها عن الأخرى ، وجدنا الأمثل الكثيرة الشاهدة على صدق هذا الذى نقول :

- فالعالم والمثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من النفور أو الغربة أو الاستغراب ، إذا هو نظر في الحقائق والقوانين التي

أبدعتها الحضارة الغربية في الكيمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والجيولوجيا والطاقة .. الخ .. الخ .. وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم في الممارسة والتطبيق .. كما أنه مستطيع - دونما حرج أو تعديل - أن يبدأ إبداعاته وإضافاته في ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الإبداع الغربي في ميادينها ... لأنه هنا أمام « فكر » هو « مشترك إنساني عام » .

لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر في كثير من « المكونات الثقافية » ، التي هي طبيعية في إطارها الغربي .. ففنون الغرب التي لا تحرم العرى ، بل تقيم تماثيله في الميادين والمتزهات .. وفلسفات هذا الغرب التي لا تحرم « الحرية الجنسية » طلما خلت من الجبر والإكراه والاغتصاب .. ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد ، ولا الدعوة إليهما والتبشير بهما .. والتي تؤسس علومها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على النزعة المادية ، التي ترى في الإنسان سيداً لهذا الكون والمحور الحاكم بإطلاق في هذا الوجود ... هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والأداب .. وما ماثلها - لابد وأن تثير في نفس العالم والمثقف

المسلم من النفور والغربة والغرابة ما لا يجده عندما ينظر في إبداع الغرب بميادين علوم المادة وظواهر الطبيعة .. لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب ، يجد نفسه بــاء « خصوصية حضارية غربية » ، تتميز عن « الفكر » الموضوعي ، الذي هو « مشترك إنسانى عام » ..

إذن ، فهناك على وجه التحقيق ، في الفكر الإنساني ، ما هو « مشترك » .. وما هو « خاص » .. وإذا كان هذا هو القول العام والمجمل .. فلا بد له من التفصيل الذي يضع النقاط على الحروف !

## وحدة في النوع الإنساني وتعددية في تحديد مكانة الإنسان

إذا كان الله سبحانه وتعالى ، قد خلق الإنسان - مطلق نوع الإنسان - من أب واحد وأم واحدة .. الأمر الذي يعني وحدة النوع الإنساني في خصائص الإنسانية ومقوماتها ، رغم تمايز الحضارات ، وتنوع الألوان والأجناس ... فإن فلسفات الحضارات المختلفة تمايز في تحديد مركز هذا الإنسان في الكون ودرجته في سلم الوجود .

فمن الحضارات من ترى فلسفتها أن رقى الإنسان إنما يتحقق بالقدر الذي يحقق فيه هذا الإنسان « فناءه في ذات الله » .. ولذلك نراها تضع تعذيب الجسد ، وتحقير المادة ، وإدارة الظاهر للدنيا ، كمراتب للتقدم الإنساني ولارتقاء النفس على طريق « الفناء في الله » .

ومن الحضارات - كالحضارة الغربية مثلاً - من تزعز طابعها المادي إلى ما يشبه « تأليه الإنسان » .. فهى تجعله محور الكون ، وسيد الوجود ، حتى لقد ابتدعت مقوله تجسد الله في الإنسان - تلك التي « غَبَشَتْ » بها توحيد المسيحية الأولى - فأنزلت الإله إلى الأرض ، عندما زعمت اتحاده بالإنسان وحلوله فيه .. فأنسنت الإله عندما ألهت الإنسان ! .. واستوت في ذلك « كهانتها » عندما أعطت

العصمة للبابا الذى حكم بالحق الإلهى .. و « علمانيتها » التى أطلقت حرية الإنسان ، فى التشريع ، من إطار الدين .. و « غنوسيتها » التى جعلت « الحرية » للإنسان و « الجبر »

. ! الله

ومن الحضارات - كحضارتنا العربية الإسلامية - من تنزع - بالوسطية - إلى نظرة لكانة الإنسان فى الكون ، هى وسط بين الدعوة إلى تلاشيه واحتقاره وفنائه فى ذات المعبود ، وبين تأليهه وتحوילه إلى مركز للكون وسيد للوجود ، يبلغ به الغرور حداً كاد فيه أن يكون المعبود ؟ ! فالإيمان فيها يعني انتفاء الإنسان للكون ، من خلال إسلام الوجه لسيد هذا الكون ، سبحانه وتعالى .. وإسلام هذا الإنسان المؤمن وجهه لله ، لا يعني الاستسلام والفناء ، وإنما يعني - بسبب من أنه خليفة عن الله في عمارة الكون ، وسياسة الدولة ، وتنظيم المجتمع ، والنھوض بمهام الوكالة وأمانة الخلافة .. يعني إسلام الوجه لله : الطاعة في المغيبات والسمعيات التي لا يستقل العقل بإدراكتها ، مع الإبداع الحر فيما هو معقول ومقدور لهذا الإنسان ، في إطار المقاصد والحدود التي

رسمتها شريعة الله ، سيد الكون ومبدع الوجود وراعي الكائنات .

فهى مرتبة وسط ، تلك التى حددتها حضارتنا العربية الإسلامية لكان الإنسان ومكانته ودرجته في سلم الوجود .. فهو ليس الحقير الذى يتحقق وجوده بالفناء في ذات العبود .. كما أنه ليس سيد الوجود .. وإنما هو سيد في هذا الوجود ، ينهض بأمانة الخلافة عن سيد الوجود ! .

هكذا .. اتفقت الإنسانية في « وحدة النوع الإنساني » ... ثم تمايزت حضاراتها في فلسفة النظر إلى مكانة « النوع الإنساني » في هذا الوجود .

## الاتفاق على مبدأ الدين

### والاختلاف على مكانته في الحياة

إذا نحن نظرنا ، نظرة مقارنة ، إلى موقف كل من الحضارة الغربية ، وحضارتنا العربية الإسلامية من « مكانة الدين في الحياة » .. فسنجد مثلاً شاهداً على تمایز الحضارتين في هذا الميدان .

إن الذين يتبعون نشأة الفلسفة الغربية وتطورها ، منذ جاهلية الغرب - في الحقبة اليونانية - وحتى نهضته الحديثة ، يرون في هذه الفلسفة تياراً مادياً متبلوراً وباززاً ، منذ « ديموقريطس » [القرن الخامس ق . م ] وحتى كارل ماركس [ ١٨١٧ - ١٨٨٣ ] وفردرريك انجلز [ ١٨٢٠ - ١٨٩٥ م ] وغيرهما من الفلاسفة الماديين المحدثين .. وهذا مالاً مثيل له ولا مقابل في حضارتنا العربية الإسلامية ، ولا في المواريث الشرقيّة التي أحيتها الفتوحات العربية الإسلامية وأدخلتها في نسيج الحضارة الجديدة ، بعصر التدوين .. فتدين الشرق عام وشامل وعميق ، كما أنه قديم وعربي .. فهو مهد الديانات ، ومركز النبوات ، ومهبط الرسالات .. وأينما قلبت صفحات فلسفات مصر القديمة ، وبابل ، وأشور ، فستجد التوحيد النقى - في عصر الإزدهار الديني - أو المشوب

بالوسائل والرموز - في عصور « الغبش » الذي ران على نظره الشرقي إلى توحيد المعبد ! .

وحتى تلك النماذج الشاذة والنادرة ، التي ركز الاستشراق وتلامذته عليها الأضواء ، فزعموها تياراً للمادية والإلحاد في تراثنا الفكرى والفلسفى ، ما هي - عند التحقيق - إلا نزوات « شك عبى » تندرج تحت باب النزوع إلى التحلل من التكاليف الدينية ، أكثر مما تندرج تحت « الإلحاد الفلسفى » .. أما الآراء والمقولات التي أثرت عن بعض فلاسفتنا ، والتي زعم المستشرقون وتلامذتهم أنها نزوات فلسفية مادية .. فإنها - عند التحقيق - تضع يدنا على نزعة فلاسفتنا كلها إلى « المادة - المؤمنة » ! .. ففلسفة الإسلام لم تعرف ثنائية الفلسفة الغربية التي أقامت التناقض بين « المادة » وبين « الفكر » ، والتضاد بين « الواقع » وبين « المثال » .. حتى لقد وجدنا في فلاسفتنا أن القائلين بـ « قدم العالم » يتحدثون عن هذا « العالم القديم » باعتباره مخلوقاً لله سبحانه وتعالى .. وعندهم أن فعل القديم قديم .. لكنه مخلوق - على نحو ما - وموضوع للرعاية الدائمة لخالقه القديم ! .. وليس كذلك حال الذين قالوا بقدم المادة والعالم من فلاسفة الغرب ، القدماء منهم والمحدثين .. فتلك هي القضية التي شطرت فلسفة الغرب إلى « مادية » « ومثالية » .. وقسمت فلاسفته إلى « ماديين » و « مثاليين » .

وحتى القطاع المتدين والجمهور المؤمن في الحضارة الغربية ، فإننا واجدون في نظرته إلى الدين ، وفي مكانة الدين من عالمه الفكري وسلوكه العملي ، شاهدا على تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن حضارة الغرب في هذا الميدان .

فنحن نعرف أن المسيحية الحقة ، كما أوحى بها الله إلى رسوله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وكما تبلور فكرها في الشرق ، كانت المثال المجسد « للسلام المتصوف ، وللصوفية المسالمة ! » .. لقد بقيت كذلك إلى أن أصابتها رياح الحضارة الغربية بما أخرجها عن هذا « المثال » .

وهذه المسيحية الشرقية ، التي تجسدت مهمتها في « خلاص الروح » وإعداد الروح الإنسانية لملكة السماء ، رأيناها بعد أن دخلت إطار الحضارة الغربية ، وغدت ديانة الامبراطورية الرومانية منذ عهد الامبراطور « قسطنطين - الكبير » [ ٢٣٧ - ٢٧٤ م ] تتحول عن جوهرها الروحي ، لتطوع للطابع المادي لهذه الحضارة الغربية ، ولينتهي بها المطاف هناك إلى مجرد قسمة ، أفرغت - تقريرياً - من جوهرها الروحي ، لتصبح قسمة - من بين قسمات عدة - في حضارة غالب عليها طابعها المادي الأصيل .. ولقد صدق فيلسوف المعتزلة ، قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد [ ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م ] عندما سير غور هذه « الحقيقة الحضارية » ، فعبر عنها بعبارته الجامعية التي تقول : « إن النصرانية عندما

دخلت روما لم تَتَّصَرَّ روما ، ولكن المسيحية هي التي تَرَوَّمَتْ » ١٩ .

نعم .. لقد غلب الطابع المادى للحضارة الغربية ، منذ ذلك التاريخ ، على ديانة « السلام المتصوف ، والصوفية المسالمة » .. فكان أن تميزت مسيحية الغرب ورهبانيتها وكهنوتها ولاهوتها عن المسيحية الأولى التي بشر بها عيسى ، عليه السلام ! .

لقد قرأت الكنيسة الغربية المصطلحات الرمزية والمجازية في الإنجيل - مثل « الأب » و « الابن » ، « قراءة مادية » ، فجسّدت الرمز ، و « حفّقت » المجاز ! .. ثم جاءت مجتمعها فجعلت من ذلك مذهبًا وقانونًا للإيمان ..

وبعد أن سادت هذه التفسيرات الغربية للعقيدة المسيحية في الغرب ، حملتها هذه الكنيسة و مجتمعها إلى الشرق ، الذي كان خاضعاً للسلط السياسي لبيزنطة ، وللهيمنة الفكرية للهيلينية<sup>(١)</sup> فطاردت هذه التفسيرات المادية الطابع التوحيدى للعقيدة المسيحية الأصلية ..

---

(١) الهيلينية : هي حضارة الإغريق « اليونان » ، ومثلهم وفلسفتهم ونمط معيشتهم .. أى النموذج اليوناني في النظرة للكون والحياة ، وال العلاقات الإنسانية ، ومكونات العقل ، ومعايير السلوك ، ومنظومة القيم .

وعندما انهزمت النزعة الأريوسية<sup>(٢)</sup> ، التي قاومت في بسالة ، هذا الانحراف ، كانت هزيمتها إيذانا بعموم البلوى .. بلوى تغبيش الغرب لجوهر الاعتقاد التوحيدى الذى جاءت به المسيحية مصححة انحراف اليهود المادى عن شريعة موسى ، عليه السلام ، وعن ناموس التوراة ! .. فكانما انتصرت كنيسة الغرب لنزعة اليهود الماديين ؟ ! ..

ومؤسسات « الرهبنة » ، التي ابتدعتها المسيحية الشرقية فراراً بالدين إلى الله ، وخلاصاً للنفس من سلطان الدنيا وسلطان الدولة ، عندما هيمن عليهم الغرب البيزنطى .. هذه الرهبنة ومؤسساتها قد حولها الغرب إلى « مؤسسات للتنمية المادية » ، تزرع وتصنع ، مع الافتقار إلى الروحانية المسيحية ، بل وإلى الأخلاق المسيحية ؟ ! ..

---

( ٢ ) الأريوسية : الاتجاه الموحد في المسيحية الشرقية . منسوب إلى أريوس . وفي ميلاده خلاف بين سنوات ٢٥٦ ، أو ٢٧٠ ، أو ٢٨٠ م . وكانت وفاته عام ٣٣٦ م . جمع بين علوم مدرسة أنطاكية ومدرسة الإسكندرية . وكان واحداً من رجال الدين بالاسكتدرية . وتميز نزعته بإنكار الوهية المسيح ، الله ، عنده ، جوهر أزلى أحد ، لم يلد ولم يولد ، وكل ما سواه مخلوق ، حتى « الكلمة » ، فإنها كغيرها من المخلوقات ، مخلوقة من لا شيء ، وليس من جوهر الله في شيء . ولقد أداهه وأتباعه ونزعته مجمع « نيقية » الذي دعا إليه الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٥ م . ثم نصره مجمع القدس بعد عشر سنوات . لكن الأريوسية اضمحلت بعد مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ م .

ثم مضت الحضارة الغربية على درب تطوير الروحانية المسيحية للطابع المادى ، فصبت في « الأوعية » المسيحية الرموز والمصامن الغربية الوثنية .. فالقيصر ، الذى كان ، في الوثنية ، ابن السماء ، يحكم باسمها ، ويستائز بالحق الالهى ، ويحتكر التقويض المطلق .. قد جدا ، في المسيحية ، رأس الكنيسة ، يتمتع بقداستها ، ويمارس ذات الاختصاص .. وحتى عندما نازعته البابوية سلطان الدولة والدنيا ، مارست ، هى الأخرى ، ذات المهام .. فكانت « القيصرية - البابوية » ثم « البابوية - القيصرية » : المضمون الغربى الوثنى في أوعية وأشكال مسيحية ، لم تغير جوهر هذا المضمون ! .

وبعد أن كانت المسيحية ديانة الروحانية الخالصة والشاملة اختزلت الحضارة الغربية مهام « المؤمن » ، أبناء الكنيسة إلى ساعة من يوم كل أسبوع ! .. فيها « يمارس » « المؤمن » « طقوساً » لا « شعائر » ! .. و « يؤدى » صلاة ، وليس « يقيمه » ! .. حتى لقد انعدمت فعالية وتاثير هذه « الساعة » على سلوك وفكير ومثل وتصورات ذلك « المؤمن » في غيرها من ساعات الحياة ! .. وإلا فمن الذي يستطيع أن يدلنا على أثر المسيحية الحقة في فكر وسلوك ابن الكنيسة الغربية الذى :

\* إذا درس الطبيعة وظواهرها وما ذاتها ،رأيناها يدرسها

دراسته لعالم بلا خالق .. فأنت لا تشعر في دراسة الغرب لعلوم الطبيعة أن علماءه - حتى المؤمنين منهم - يستحضرون بأى شكل وعلى أى نحو ، أن لهذا العالم الذى يدرسونه خالقاً فاعلاً .. حتى أن كتبهم هذه ، وإن لم تعلم المتلذذين عليها الزندقة والإلحاد ، فإنها تصوغ عقلاً لا يشعر بالحاجة إلى الإيمان بالله وهو يدرس الطبيعة ويكتشف أسرارها .. فلما علا صرح هذا اللون من العلم في الحضارة الغربية ، علت أصوات كثيرة بأنه بديل عن الله ، وسمعنا الصيحات المنكرة تقول : « لقد مات الله » ؟ ! - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .. !

\* وإذا نظر المسيحي الغربى في المسببات ، فأرجعها إلى أسبابها ، وجدناه يقف عند الأسباب المادية لا يعدوها .. وكأنما نسخت مادية حضارته ما في المسيحية عن خالق كل الأسباب ، الذى أودعها ما فيها من قوة وفعل وتأثير ، سبحانه وتعالى ! ..

\* وإذا مارس هذا المسيحي الغربى شئون المال والاقتصاد ، رأيناه يقيم حياته الاقتصادية على « الربا » ، الذى حرمه وتحرمه المسيحية .. وهو لا ينظر إلى هذا « الربا » كضرورة دنيوية تبيح المحظور الدينى .. وإنما يراه حلالاً وطبيعياً .. بل ويستنكر أى حديث عن إلغائه استنكاره للخطايا المحرّمات ؟ !

\* وإذا نظرنا إلى مذهب هذا المسيحي الغربى في

« الجنس » وعلاقة الذكر بالأنثى .. خيل إلينا أن الروح البهيمية ما زالت سارية في عقل وكيان هذا « المتحضر - العصرى » .. لا لأنه يتفرد دون غيره بممارسة الزنا أو الشذوذ الجنسي - فكل بني آدم خطاء - ولكن لأنه « يحلل » هذا « الحرام » ، وينظر إلى هذا « الشذوذ » باعتباره « الطبيعي » ، ويرى في « الإباحية الجنسية » حقه الطبيعي في الحرية كإنسان .. بل ويناضل لتضمن له المواثيق والقوانين والدساتير هذه « الحقوق الطبيعية » ؟ ! .. فالشواذ جنسياً يتظاهرون لتسن القوانين التي تتيح لهم « الزواج » الرسمى المشروع ! .. وتنتصر إرادتهم ، فيصبح الشذوذ هو القاعدة التي يحميها القانون ! .. والحرية الجنسية مكفولة للفتاة إذا بلغت السادسة عشرة ، دون استئذان للأسرة .. أما إذا هي استأذنت الأسرة فحرفيتها الجنسية مكفولة قبل أن تبلغ السادسة عشرة .. وفي بعض المجتمعات الغربية - ومنها إنجلترا ذات « التقاليد المحافظة » ؟ ! يشاورون في استبدال سن الثالثة عشرة بالسادسة عشرة لتبذل منها حرية الفتاة في الاستمتاع بجسدها دون أن تستأذن أسرتها ! .. والزنا ، إذا تم بالتراضى ، ليس منكراً ولا مستنكراً ، حتى ولو كانت الزانية متزوجة ، طالما تمت المواقعة في غير فراش الزوجية ! .. ويدخل في هذا الباب « تبادل الزوجات » .. إلى غير ذلك من صور البهيمية التي تقطع بأن تدين الغرب بال المسيحية لم يعد « الشكل » الذى جرد هذه الديانة من . « الجوهر »

و«المضمون»، فطُوّعت للحضارة الغربية ذات الطابع المادي والنزعة الإلحادية.

\* وعندما تعامل هذا المسيحي الغربي - الأبيض - مع الأجناس الأخرى، رأينا العنصرية، والتفرقة بين بني الإنسان على أساس الجنس واللون .. حتى لقد فصلوا بين الأجناس والألوان في الكنائس عندما يقف المؤمنون بين يدي الله ! .

\* ولأن هذا المسيحي الغربي هو الابن البار لحضارته الغربية، ذات الطابع المادي الأصيل .. وليس الابن البار للمسيحية الحقيقة، كما أوحى بها الله إلى عيسى عليه السلام .. فلقد فصل «العلم» عن «الحكمة» منه، والغاية الخيرة التي كان ولابد أن يتّخذ سبيلاً إليها .. فساد في استخدامات العلوم عزلها عن «الأخلاق» و«المثل»، حتى غدت أداة للدمار الذي يهدد البشرية كلها .. كما سادت في السياسة الفلسفة الميكافيلية، التي جعلتها : «فن الممكن من الواقع»، فغدت الغايات تبرر الوسائل، بصرف النظر عن حظ الغايات أو الوسائل من «الأخلاق» ؟ ! .

كل ذلك قد صنعه الغرب ويصنعه، رغم الكنائس والكاتدرائيات، والأديرة، والمجامع المسكونية ورجال الكهنوت وفلاسفة اللاهوت .. لقد وقف من التدين بـالمسيحية عند «الشكل»، وأهدر المضمون .. بـإل ومسخه ونسخه

وأحل محله المضمون والطابع المادى لحضنارته الغربية .. وهو قد أفسد بصنعيه هذا المسيحية الحقيقية .. أفسد عقيدتها ، ورهبانيتها .. وفرغ شعائرها - عندما حولها إلى « طقوس » - من روحانية المضمون .. وهو قد اختزل حتى هذا التدين الشكلي إلى ساعة من يوم في الأسبوع ، يتحرك فيه « الجسد » إلى الكنيسة ، دون أن يطول « الروح » من هذه الكنيسة شيء .. لأن هذه الكنيسة قد غدت هي الأخرى ، في الغرب ، هيكلًا بلا روح ، حتى لقد أوشكت أن تضاهى معابد اليهود التي ثار عليها المسيح ، عليه السلام ، عندما عمرت بالكذبة وأولاد الأفانى واللصوص ! .

ذلك هو مكان الدين والتدين في الحضارة الغربية .. وهو - برأينا - « خصوصية حضارية غربية » ، تميز وتميز بها الحضارة الغربية المادية .. ولا تشاركها فيها حضارتنا العربية الإسلامية ، فنحن إزاءها أمام قسمة من القسمات التي تتميز فيها الحضارات - رغم اشتراكها جميعاً في مبدأ « التدين » - ويشهد على ذلك تميز موقف الحضارة العربية الإسلامية في هذا الميدان .

\* \* \*

إن تدين الشرق - ويتمثل اليوم أصدق ما يتمثل في التدين بالإسلام - يمتاز ويتميز بـ « العراقة » .. و « العمق » .. و « الشمول » ..

فالشرق مهد الديانات ، ومهبط الوحي الإلهي ، وأرض النبوات ، وميدان الرسائلات الإلهية ، التي أشارت إليها الكتب السماوية على امتداد تاريخ علاقة السماء بهداية الإنسان .. فكل الديانات والشريائع الإلهية التي أشارت إليها الكتب السماوية ، اتخذت من الشرق منطلقاً .. والتوحيد الديني - توحيد الله ، سبحانه وتعالى ، في الألوهية - تعلمنا الرسائلات الدينية أنه بدأ في الشرق برسالة آدم ، عليه السلام ، ويعلمنا التاريخ الديني أن نقاء هذا التوحيد قد كان دائمًا خاصية شرقية ، تأثر نقاوه في الشرق ، وتمت دورات التجديد له ، وأيضاً التصحيح للانحرافات الوثنية التي أصابته في الشرق ، وحتى وثنية الشرق ، فإنها لم تعد اتخاذ الرموز والوسائل التي تقرب أصحابها - بزعمهم - إلى الله الواحد ، شفاعة وذلفي ! .. فمنذ فجر الضمير الإنساني كان تدين الشرق ، بديانة التوحيد ، معلماً من المعالم البارزة في حضارات أمهه وشعوبه .. وكانت النهضات الفكرية لهذه الأمم والشعوب ، بيل وكانت ثوراتها السياسية والاجتماعية لابسة لباس الدين ، متخذة من لغته الأدوات والسبل لفتح مغاليق القلوب وتحريك الأمم والشعوب نحو المقاصد . والغايات ! .

ومن يقرأ أناشيد أخناتون [ ١٣٧٢ - ١٣٥٤ ق . م ] ثم يقارن بين رقى ونقاء التوحيد فيها وبين عقائد الأمم الأخرى

في الألوهية في عصره ، بل وبعد عصره بأحقاب طويلة ، يدرك  
مقدار الصدق في هذا الذى نقول .. فمنذ ذلك التاريخ ، كانت  
عقيدة التوحيد في هذا النقاء الذى يعبر عنه هذا النشيد عندما  
يُخاطب الله فيقول :

«إنك الإله الذى دان الجميع بحبك ..  
أنت إله ، يا أوحد ، ولا شبيه لك ..  
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى ، أنت وحدك خلقتها  
ولا شريك لك ..  
خلقتها ، مع الإنسان والحيوان ، كبيرة وصغرى ..  
خلقتها ، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض ، وكل  
ما يخلق بجناحيه في السماء ..  
خلقت بلاد سوريا ، والنوبة ، ومصر ..  
وأقمت كل إنسان في مكانه .. ودبرت لكل إنسان ما يحتاج  
إليه ..  
وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة ..  
لقد تفرقت السنتهم باختلاف لغاتهم ..  
كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم ..  
لأنك أنت الذى يميز أهل الأمم الأجنبية ..  
أنت الذى يعطى الحياة لكل البلاد الأجنبية البعيدة ..  
لقد خلقت الفضول لكى تحيى كل مخلوقاتك ..  
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك ..

ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك ..  
 لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التي تعد بالملايين ..  
 مدنًا وقرى وقبائل وجبارًا وأنهاراً ..  
 كل العيون ترنو إليك ..  
 أنت الذي صنعت الدنيا بيديك ..  
 وخلقت الناس كما شئت أن تصورهم ..  
 إنك أنت الحياة ..  
 ولا يحيا الناس إلا بك ..

إلى هذا الحد من الرقي في « التنزية » و « التجريد » بلغ « التوحيد » في الألوهية ، في الشرق ، منذ فجر الضمير الإنساني .. وإلى هذا الحد وجدناه في نشيد أخناتون ، الذي لا يudo أن يكون قبساً من جوهر الرسالات السماوية التي تتبع في الشرق منذ آدم عليه السلام .

ويلفت نظرنا في هذا المقام ، وعندما نتأمل نشيد أخناتون ، أن الله في هذا النشيد ، هو مصدر كل شيء وصانع كل شيء ، وداعي كل شيء .. وأن هذا المستوى من التوحيد ، الذي يسلم فيه الإنسان الوجه لله ، قد تألقت أنواره في مصر القديمة ، حيث بلغ العلم والاختراع والإبداع في العلوم الطبيعية شأنها طوع المادة وظواهرها لقدرات هذا الإنسان ، الذي أسلم - مع ذلك - وجهه إلى الله ؟ ! .. لقد بلغ من العلم بالكيمياء حدا اخترع به الألوان التي لا تزال زاهية حتى يومنا

هذا ؟ .. وفي الطب درجة ضمنت ، بالتحنيط ، أرقى درجات الخلود النسبي التي تحققـت للأجساد عبر التاريخ كله والحضارات جميعها ! .. وفي الهندسة .. والفلاء .. والميكانيكا ، الحد الذي تجـسد في « الأبنية المعجزة » ، التي ترمز لها الأهرامات ؟ .. وفي الزراعة .. والصناعة .. والتجارة .. والفنون .. والفلسفـات .. والأدـاب ، درجات عـرفـنا من أخـبارـها طـرـفاً ، لا يـزال يـثـيرـ العـجـبـ والإـعـجـابـ ، وجـهـلـنا مـنـها أـكـثـرـ الـكـثـيرـ ؟ ..

وـمعـ هـذـاـ العـلـمـ الإـنـسـانـيـ الـخـارـقـ ، وـقـدـرـاتـهـ الـقـىـ طـوـعـتـ لـلـإـنـسـانـ الـطـبـيـعـةـ وـقـوـاـهـاـ وـظـوـاهـرـهـاـ ، وـجـدـنـاـ هـذـاـ إـنـسـانـ ذـاـتـهـ ، هـوـ الـمـتـبـتـلـ ، الـمـوـحـدـ ، الـذـىـ يـسـلـمـ الـوـجـهـ لـلـهـ .. مـصـدـرـ كـلـ شـيـءـ ، وـخـالـقـ كـلـ شـيـءـ .. وـرـاعـىـ كـلـ شـيـءـ .. وـهـنـاـ تـأـتـىـ خـصـيـصـةـ الـتـدـيـنـ فـيـ حـضـارـتـنـاـ ، لـاـ فـيـ طـورـهـ إـسـلـامـيـ فـحـسـبـ ، بـلـ وـمـنـذـ الـمـوـارـيـثـ الـقـدـيمـةـ الـتـىـ أـحـيـاـهـ مـسـلـمـونـ وـأـدـخـلـوـهـاـ فـيـ النـسـيـجـ الـجـدـيدـ لـحـضـارـتـهـمـ الـعـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ ..

وـعـنـدـمـاـ كـانـ «ـ الـغـبـشـ »ـ يـعـدـوـ عـلـىـ نـقـاءـ هـذـاـ التـوـحـيدـ .. كـمـاـ حدـثـ فـيـ يـهـوـدـيـةـ الشـتـاتـ .. كـانـتـ مـسـيـحـيـةـ تـأـتـىـ كـرـسـالـةـ تـصـحـيـحـ .. فـلـمـاـ أـفـسـدـتـ الـهـلـيـنـيـةـ الـيـونـانـيـةـ عـلـىـ مـسـيـحـيـةـ نـقـاءـ تـوـحـيـدـهـاـ .. جـاءـتـ الرـسـالـةـ الـخـاتـمـةـ ، بـمـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ صلـلـهـ عـلـىـ رـحـمـةـ اللـهــ فـبـلـغـ التـوـحـيدـ فـيـهـاـ قـمـةـ النـقـاءـ فـيـ «ـ التـنـزـيـهـ »ـ

و« التجريد » .. وبذلك تواصلت مسيرة الشرق الحضارية في  
ظلال الدين بعقيدة التوحيد ! ..  
وغير « العراقة » و« العمق » في الدين .. نجد أنفسنا - في  
حضارتنا العربية الإسلامية - أمام « شمال الدين » لكل  
جوانب حياة الإنسان ! ..

فالدين ليس « شكلاً » فارغاً من « المضمون » .. وليس  
ساعة من يوم في الأسبوع .. وإنما هو كل شيء يأتيه  
الإنسان فيحقق به نفعاً له أو لغيره ، أو يدفع به ضرراً  
عن نفسه أو عن غيره ، إنساناً كان هذا الغير أو حيواناً  
أو نباتاً أو طبيعة أو جماداً .. حتى الاستمتاع بطيبات  
الدنيا المشروعة ، هو تدين وعبادة يثاب عليها الإنسان ..  
فكما أن كل شيء يسبح بحمد الله ، فإن كل فعل طيب هو  
عبادة لله .. وليس العبادات فقط ، الشعائر التي نصت  
عليها الشريعة كى تتكرر في انتظام ، صلاة وصوماً وحججاً  
إلى بيت الله الحرام .. وصدق الله العظيم إذ يحدد أن  
العبادة هي الرسالة التي تنحصر فيها مهمة الخلق ،  
فيقول : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٣﴾ » .. ثم  
هو عندما يحدد للإنسان التكاليف والفرائض الاجتماعية

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ لِلْأَرْضِ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الْصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٥)</sup> .. يعلمنا شمول الدين والعبادة لكل عمل خير يأتيه الإنسان .

\* \* \*

وإذا كان « الدين » في « فكر » الحضارة الغربية قد وقف عند « علم اللاهوت » ، بينما سادت النزعة المادية ومناهجها سائر العلوم الأخرى ، حتى الإنسانية منها ، عندما ذهبت تدرس الظواهر المادية والطبيعية والإنسانية ، وكأنما هي ظواهر ليس وراءها سوى الأسباب المادية والمحسوسة ، ولا علاقة لها بـإله هو مسبب هذه الأسباب .. إذا كان هذا هو مبلغ « الدين » في « فكر » الحضارة الغربية .. فإنه لم يقظ في حضارتنا العربية الإسلامية عند هذه الحدود .. ففى حضارتنا شمل « الدين » كل ميادين « الفكر » وجميع أنواع العلوم .

● فالنظر الفلسفى .. الذى عرفته الحضارة الغربية باباً للفلسفة الناقضة والمناقضة للدين .. وجدناه في حضارتنا العربية الإسلامية : فريضة إلهية ، وأول واجب شرعى على الإنسان<sup>(٦)</sup> !

(٤) الشرح : ٧ .

(٥) الجمعة : ١٠ .

(٦) د . على فهمي خشيم [الجباينان : أبو على وابو هاشم] ص ٢٢٣ . طبعة طرابلس . ليبيا عام ١٩٦٨ م .

● والشك .. الذى عرفته الحضارة الغربية مزلزاً لقواعد اليقين الدييني .. وجذناه في حضارتنا العربية الإسلامية السبيل الشرعى إلى هذا اليقين .. فالإيمان ، إسلامياً : هو تصديق بالقلب يصل إلى مرتبة اليقين .. وهذا اليقين لن يتأتى إسلامياً ، إلا إذا سبقه شك ، يقود إليه ، عبر البحث وتجريب الفروض .. فإبراهيم الخليل عليه السلام ، يسأل ربه :

— [أرنى كيف تحيي الموت] ؟ ..

— فيسأله ربه : [أولم تؤمن] ؟ ..

— فيجيب : «**بَلَّ وَلَكِنْ لِيَطَمِّنَ قَلْبِي**»<sup>(7)</sup> :

ورسول الله ﷺ ، عندما يأتيه نفر من الصحابة دفعتهم الوساوس إلى الشك في جوهر الدين .. حتى لقد استعظموا أن تنطق ألسنتهم بهذا الذى يجول في صدورهم ، مفضلين عذاب النار على التصريح به ! .. رسول الله ﷺ ، يصف هذا «الشك» الذى يبحث أصحابه عن سبل اليقين ، بأنه «محض الإيمان .. وتصريح الإيمان»<sup>(8)</sup> ، باعتبار ما سيقود ويفضي إليه ! ..

لقد نظرت حضارتنا إلى هذا «الشك المنهجى» ، باعتباره

(٧) البقرة : ٢٦٠ .

(٨) رواه مسلم والإمام أحمد .

- كما يقول الجاحظ [ ١٦٣ - ٢٥٥ هـ ٨٦٩ - ٧٨٠ م ] علما ، يجب تعلمه كما نتعلم غيره من العلوم .. فهو يتوجه إلى قارئه قائلاً : « .. فاعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين ، والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلمًا ، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ، ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه .. فلم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ! .. » <sup>(٩)</sup> .

● والفلسفة الغربية .. التي كانت ، منذ اليونان وحتى النهضة الأوروبية الحديثة ، سبيل العقل الغربي إلى زعزعة الإيمان بالدين .. قام أساسها في حضارتنا على قواعد الدين ؟ ! .. حتى لقد سميت فلسفة أمنتنا : « علم التوحيد » ! .. الأمر الذي استوقف المستشرقين ولفت منهم الانتباه ، فقال - بلسانهم - ألفريد جيروم ALfred Guillume

: « إن قوة الحركة الاعتزالية - [ التي صاغت علم الكلام الإسلامي ] - مردها جهود أولئك الذين حاولوا أقصى ما في طوقيهم إقامة علم الكلام الإسلامي على أساس ثابتة من الفلسفة ، مصرين في الوقت نفسه على أن تكون تلك

(٩) [ كتاب الحيوان ] ج ٦ ص ٣٥ ، ٣٦ . تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة ، الثانية .

الأسس منطقية ، ثم الانسجام بينها وبين الفلسفة ،  
التي يجب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة  
الدينية » (١٠) .

● والعلوم الطبيعية .. التي وجدناها في الحضارة الغربية  
تكرس أعظم الجهود والطاقات - بشكل مباشر أو غير مباشر -  
لتكون « عقلية ملحدة » ، وذلك من خلال دراستها للعالم  
وكانه عالم بلا خالق ، وتناولها للمادة وظواهرها من خلال  
الأسباب المادية المحسوسة وحدها ، دونما إشعار للدارس  
والقارئ أن هناك قوة غير ملموسة وراء هذه الأسباب  
المحسوسة .. هذه العلوم الطبيعية ، لا يبالغ إذا قلنا إنها  
الأخرى تَدَيَّنَتْ في حضارتنا العربية الإسلامية ! .. فهى قد  
درست وتم إبداع المسلمين برمادينها ، تحقيقاً لفريضة إلهية  
تدعو إلى النظر في خلق السموات والأرض .. وليس التماساً  
لسبل تناهض الدين وتزعزع الإيمان .. ثم هى قد عرضت  
حقائقها وقوانينها لا كبرهان على إمكانية استغناء العقل  
بالعلم عن السمعيات والفيقيبات .. وإنما باعتبار أنها خطوة  
على درب العلم الإنساني المتد إلى غير حدود .. والذى هو  
نسبة ، بالقياس إلى العلم المطلق الذى استثار به الله ،  
سبحانه وتعالى ، **﴿وَمَا أُوتِيْتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قِيْلَالاً﴾** (١١)

(١٠) [ الفلسفة وعلم الكلام ] من ٣٧٩ . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م ضمن كتاب [تراث الإسلام ] بإشراف : سير توماس أرنولد .

(١١) الإسراء : ٨٥ .

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْمٌ﴾<sup>(١٢)</sup> حتى لقد رأينا مؤلفات علماء هذه العلوم في حضارتنا تعرض للظواهر والحقائق والقوانين بروح الفقهاء والمتكلمين .. يبدأون بحمد الله ، والصلوة والسلام على رسوله .. وكذلك ينتهون .. ويؤكدون أن « الله أعلم » كلما فتح الله عليهم بفتح علمي جديد ! ..

فالتيفاشى [ ١٢٥٣ - ١١٨٤ هـ - ٥٨٠ م ] عندما يكتب في « الجيولوجيا » كتابه [ أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ] يفتحه بـ « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين »<sup>(١٣)</sup> .. كما يصنع الفقهاء والمتكلمون المسلمين ؟ ! .. وكذلك يصنع كل علماء العلوم الطبيعية في حضارتنا الإسلامية .. والذين كان الكثيرون منهم علماء في علوم الشريعة أيضاً ، فقهاء ، وكلاماً ، وتفسيراً ، وحديثاً .. بل ومتصوفة يعيشون تجارب المتصوفة ويسلكون طريقهم بالرياضيات الروحية والمجاهدات ؟ ! ..

والإمام الظاهري ابن حزم الأندلسى [ ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ - ٩٩٤ - ١٠٦٤ م ] - وهو الفقيه والمتكلم - عندما يكتب في « فن الحب ! » كتابه الفريد [ طوق الحمامات في الألفة والإلاف ] ، نراه يستفتح الحديث في الحب بقوله : « بسم الله

(١٢) يوسف : ٧٦ .

(١٣) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب . طبعة القاهرة عام ١٩٧٧ م . تحقيق : د . محمد يوسف حسن ، د . محمود بسيونى خفاجى .

الرحمن الرحيم . وبه نستعين .. أفضل ما أبتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أهله ، ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة «<sup>(١٤)</sup> .. وفي ختام كتابه هذا عن «الحب» يقول : « .. جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين ، أمين أمين . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسلیماً ! ..»<sup>(١٥)</sup> .. فكأنه يصنف في الإلهيات .

نعم .. لقد تدينـت كل العـلوم في حـضارـتنا الإـسلامـية .. فـاـشـتـغـلـ بـهـاـ عـلـمـاؤـهاـ اـمـتـشـاـلـاـ لـأـمـرـ اللهـ .. وـجـدـواـ السـيـرـ عـلـىـ دـرـوـبـ اـكـتـشـافـ أـسـرـارـهاـ لـتـحـقـيقـ مـهـمـةـ عـمـارـةـ الـكـوـنـ تـحـقـيقـاـ لـأـمـانـةـ خـلـافـةـ الـإـنـسـانـ عـنـ اللهـ .. ثـمـ هـمـ قـدـ وـظـفـوـاـ حـقـائـقـ هـذـهـ الـعـلـومـ جـمـيـعـهـاـ فـيـ زـيـادـةـ الـيـقـيـنـ بـالـإـيمـانـ بـالـلـهـ .. فـكـانـ «ـالـعـلـمـ»ـ مـشـتـرـكـاـ إـنـسـانـيـاـ فـيـ سـلـوكـ الـحـضـارـاتـ الـمـخـتـلـفـةـ سـبـيـلـهـ ، وـالـسـعـىـ عـلـىـ دـرـبـهـ .. ثـمـ كـانـ «ـتـدـيـنـ الـعـلـمـ»ـ ، حـتـىـ مـاـ تـعـلـقـ مـنـهـ بـالـطـبـيـعـةـ وـظـواـهـرـهـ وـالـفـلـسـفـةـ وـمـقـوـلـاتـهـ ، خـاصـيـةـ مـنـ خـصـائـصـ حـضـارـتـاـ الـعـرـبـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ ، اـفـتـرـقـتـ فـيـهـاـ وـبـهـاـ عـنـ حـضـارـاتـ أـخـرـىـ ، وـعـنـ الـحـضـارـةـ الـغـرـبـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوصـ .

(١٤) انظر [رسائل ابن حزم] جـ ١ صـ ٨٤ . تحقيق : دـ . إـحسـانـ عـبـاسـ . طـبـعةـ بـيـرـوـتـ عـامـ ١٩٨٠ـ مـ .

(١٥) المـصـدـرـ السـابـقـ . صـ ٣١٠ـ .

## العقلانية الإسلامية

لأن الإسلام دين الفطرة ، فلقد قضت أصول شريعته بامتناع أن يكلف الله الإنسان مالا يطيق ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾<sup>(١٦)</sup> .. وتأسисا على هذه القاعدة قضى الإسلام بأن العقل هو مناط التكليف .. فلا تكليف ولا حساب على غير العاقل في نظر الإسلام .

ولأن الرسالة والشريعة عامة لجمهور الخلق ، اقتضت حكمة الخالق - كى يرفع الحرج عن عباده - أن يهب كل مكلف من « العقل » الحد الذى ييسر له النهوض بضرورات التكليف .. فالناس يتفاوتون في درجات العقل ، دون أن يفتقر صحيح مكلف إلى الحد الأدنى الذى يتتيح له التمييز والوفاء بضرورات التكليف .

تلك خصيصة إنسانية عامة ، يشتوى فيها البشر من كل القوميات والمعتقدات والحضارات .. ومع ذلك ، فإن مذاهب الحضارات في الموقف من « العقل » ، ومقامه ، وسلطانه ، هى من الخصوصيات التى تتمايز فيها وبها بعض الحضارات .. وحضارتنا العربية الإسلامية متميزة في عقلانيتها عن الحضارة الغربية تميزاً لا سبيل إلى إنكاره أو التشكيك فيه .

---

(١٦) البقرة : ٢٨٦ .

ففي الحضارة الغربية ، منذ تبلور فلسفتها في الحقبة اليونانية وحتى نهضتها الحديثة ، تميز ويتميز موقفها من هذه القضية « بالثنائية » التي ميزت مواقف هذه الحضارة في كثير من القضايا والمشكلات .

فلسفتها وعلومها لم تعرف غير العقل وبراهينه سبيلاً ودللياً ترکن إليه و تستخلص به القوانين والمقولات .. فالفلسفة - في المصطلح اليوناني - هي « تفسير المعرفة عقلياً .. هي الوقوف على حقائق الأشياء كلها بالبراهين العقلية » وحدها .. أى أن « العقل » هنا يتفرد وينفرد ، لا يزامنه « نقل » ولا « وحى » ولا « مأثورات » .

ولقد كان طبيعياً أن يكون هذا هو الحال والموقف في الحقبة اليونانية .. فالقوم قد أبدعوا مذاهبهم الفلسفية في مجتمع وثنى لا يعرف « النقل » الدينى ، ولا « الوحى » الإلهى ، ولا « المأثورات » الشرعية .. فكان الاعتماد على « العقل » وبراهينه هو سند التفاسيف الوحيد .

فلما جاءت حقبة النهضة الأوروبية الحديثة ، والتي كانت إحياء لتراثهم اليوناني في الأسس والمنطلقات ، وجد رواد هذه النهضة وفلسفتها أن اللاهوت الكنسى المسيحي إنما يمثل « نقلأً » لا أثر فيه للعقل ولا اعتماد له على براهينه ، فكان أن استمرت هذه « الثنائية .. الانشطارية » ، كخصيصة غربية في هذا الميدان : « لاهوت وإيمان » لا ينطلق من « العقل »

و لا يتأسس على براهينه .. و «فلسفة وعلوم» لا تعرف غير «العقل» سبيلاً للبرهنة والاستدلال .. «فالعقل» و«النقل» مثلاً خلطان متوازيان ، لا يلتقيان .. لقد ظلت الفلسفة هي «تفسير المعرفة عقلياً» . والوقوف على حقائق الأشياء كلها بالبراهين العقلية» . وحدها .. كما ظل الإيمان والتدبر غريباً عن طريق العقل وبراهينه .. وعلى حد تعبير القديس أنسيلم Anselme [ ١٠٣٣ - ١١٠٩ م ] - وهو يعلم المتدينين طريق تحصيل الإيمان الديني - : «يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك ، بدون نظر ، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت ، فليس الإيمان في حاجة إلى نظر عقل ..»<sup>(١٧)</sup> !

على هذا النحو كان موقف الحضارة الغربية من هذه القضية .. قضية «العقل» و«النقل» وعلاقة «الفلسفة» بـ «الدين» .. فعامة المتدينين سبب لهم إلى «الإيمان» «النقل» والوجودان وحدهما .. وصفوة العلماء وال فلاسفة سبب لهم إلى العلم والفلسفة العقل الخالص والخالى من النقل والوجودان .

\* \* \*

والأمر الذي يشهد على أن هذا الموقف من علاقة «العقل» بـ «النقل» - كما أشرنا - هو «خصيصة غربية» من

---

(١٧) الإمام محمد عبد [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص ٢٦٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عماره . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

خصائص الحضارة الغربية .. هو تميز حضارتنا العربية الإسلامية عنه وفيه فالعلاقة العضوية والمزاملة والإخاء ما بين « العقل » و « النقل » .. « الحكمة » و « الشريعة » هي من خصائص حضارتنا العربية الإسلامية ، كادت أن تجمع عليها - بدرجات متفاوتة - التيارات الفكرية الأساسية في تراثنا الفكري والحضاري .

● ففلاسفة أمتنا - وهى « علم التوحيد - علم الكلام » - التي أبدعها وبلورها التيار العقلانى - وفرسانه « المعتزلة - أهل العدل والتوحيد » - هذه الفلسفة العقلانية قد انطلقت من القرآن وتأسست على « النقل » ، حتى لقد سميت بـ « علم أصول الدين » ! .

وكما سبق وأشارنا ، فلقد لفتت هذه الخصوصية أنظار المستشرقين ، فنبهوا - في استغراب - على نجاح التيار العقلانى الإسلامي في تأسيس « فلسفة منطقية .. تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية »<sup>(١٨)</sup> ..

وبعض الناس - من الذين لا يدركون غير ما هو على نمط الثنائية الانطباعية الغربية يحسبون هذه الخصوصية العربية الإسلامية تلفيقاً لا عقلانياً .. على حين نراها نحن - كما رأها

---

(١٨) جيروم [ الفلسفة وعلم الكلام ] من ٣٧٩ بحث منشور في كتاب [ تراث الإسلام ] تحت اشراف أرنولد . ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

أسلافنا - بديهة فكرية تقتضيها الفطرة السليمة التي تفقه  
حقائق خصوصيات الإسلام .

فإذا كانت الألوهية هي جوهر الإيمان الديني ، فإن سبيل  
الإنسان إلى إدراك الألوهية هو « العقل » ، وليس النصوص  
ولا المأثورات .. لأن التسليم بصدق النصوص المقدسة  
- « النقل - الكتاب - السنة » - مترب على التسليم بصدق  
الرسول الذي جاء بها .. والتسليم بصدق الرسول مترب على  
التسليم بوجود الإله الذي أرسل هذا الرسول ، وأوحى إليه  
بهذا « النقل - الكتاب » .. فلا بد من الإيمان أولاً بوجود  
الإله ، المرسل والموحى ، والمؤيد للرسول بالمعجزة :  
- « النقل - الكتاب » - وسبيل ذلك هو « العقل » .. فهو  
طريق الإيمان ، وسبيل الإنسان إلى تحصيل جوهر الدين ! .  
وإذا كانت أمتنا قد عبرت عن هذه  
« البديهة - الفلسفية ! » في حكمتها الشعبية التي تقول :  
« ربنا ، عرفوه بالعقل » ! .. فإن فلاسفة الإسلام ، من  
علماء الكلام والتوحيد ، قد أفاضوا في شرحها والحديث  
عنها .. وقضى القضاة عبد الجبار بن أحمد  
[ ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م ] - الذي يبلغ في العقلانية الإسلامية  
مبلغ أرسطو [ ٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م ] في العقلانية  
اليونانية ! - يعرض لهذه القضية ، عندما يتحدث عن الأدلة  
التي يتخذها الإنسان سبلاً لتحصيل المعرفة وحقائقها  
وعلومها ، في ipsum « العقل » في مقدمة هذه الأدلة - والعقل

هذا ليس وحده ، كما هو الحال في العقلانية اليونانية - الغريبة .. وإنما معه « الكتاب » و « السنة » .. و « الإجماع » .. فالمؤاخاة والتزامن والعلاقة قائمة ومحققة ، هنا بين « العقل » و « النقل » كسبيلين للبرهنة والاستدلال .

يقول القاضى عبد الجبار : « إن الأدلة ، أولها : دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع .. »

ثم يناقش القاضى عبد الجبار هؤلاء الذين قد يتعجبون من هذا الترتيب للأدلة ، فينبه على أن تقديم « العقل » على « الكتاب » ليس تقديم « تشريف » ، وإنما هو تقديم « ترقيب » .. فالخارج من منزلة يسعى إلى « المسجد » ، لابد وأن يصل « المسجد » عبر « الطريق » ، فالمروء « بالطريق » قبل « المسجد » ، لا يعني تفضيل الأول وتشريفه على الثاني ، وإنما هو الترتيب المنطقي للأمور ! .. يناقش القاضى عبد الجبار هذه القضية فيقول مستطرداً : « .. وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هي : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، فقط ، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس كذلك ، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة ، والإجماع ، فهو أصل في هذا الباب . وإن كنا نقول : إن الكتاب هو الأصل ، من حيث أن فيه « التنبيه على

ما في العقول ، كما أن فيه الأدلة على الأحكام . وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وبين أحكام الفاعلين ، ولو لاه لما عرفنا من يؤخذ بما يتركه أو بما يأتيه ، ومن يحمد ومن يذم ، ولذلك تزول المؤاخذة عن من لا عقل له . ومتى عرفنا بالعقل ، إليها منفرداً بالإلهية ، وعرفناه حكيمًا ، نعلم في كتابه أنه دلالة ، ومتى عرفناه مرسلاً للرسول ، ومميزاً له ، بالأعلام المعجزة ، من الكاذبين ، علمنا أن قول الرسول حجة ، وإذا قال ﷺ : « لا تجتمع أمتى على خطأ .. وعليكم بالجماعة »<sup>(١٩)</sup> .. علمنا أن الإجماع حجة ..<sup>(٢٠)</sup> .

فالعقلانية هنا عقلانية إسلامية ، تتميز بها حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية ، لأن مصدرها ومنطلقها وسبيلها ليس برهان العقل وحده ، وإنما معه في ذلك « النقل .. والوحي .. والتأثير » .. فالتمييز قائم في المكونات والمنطلقات ، كما هو قائم في الثمرات ! ..

وإذا كانت « الشريعة » في لاهوت الحضارة الغربية « نقلية .. سمعية .. وجدانية » ، لا أثر فيها لبراهين العقل .. فإن حضارتنا قد عرفت في شريعتها : « العقل »

(١٩) في الترمذى والدارمى والإمام أحمد : « إن الله لا يجمع أمتى على ضلاله ، وفي البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم .. » .

(٢٠) [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧ . تحقيق : فؤاد سيد . طبعة تونس عام ١٩٧٢ م .

و«السمعي» .. وحددت عقلانيتها أن العقل هو السبيل إلى معرفة الأصول الشرعية .. وبعبارة الماوريدي [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] «فإن السبب المؤدي إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيئاً :

أحدهما : علم الحس ، وهو العقل ، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول ، إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول ..

وثانيهما : معرفة لسان العرب - وهو معتبر في حجج السمع خاصة ..» (٢١) ..

بل لقد وجدنا في تراثنا العقلاني من تحدثوا عن «شريعة عقلية» ، يدركونها ذهراً العقول ، دون حاجة إلى «السمعيات» ، ثم تأتي السمعيات لتأكد ما أدركته منها العقول ، ولتحدد الأحكام التي لا تستقل العقول بإدراكها - وكذلك مقاديرها وأوقاتها - ومثلها في ذلك «الغيبيات» التي يستثار بها خبارها الوحي والنقل والتأثيرات .. ووجدنا الاتفاق على أن الإلهيات ، في شريعتنا وحضارتنا ، هي من «فن العقولات» (٢٢) ..

وإذا كانت الحضارة الغربية قد استبعدت «الروح

---

(٢١) [أدب القاضي] جـ ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، طبعة بغداد عام ١٩٧١ .

(٢٢) [كتاب اصطلاحات الفنون] جـ ١ ص ٤٦ - ٦٢ طبعة القاهرة عام ١٩٦٣ م .

الإيمانية » من نطاق العلوم الطبيعية والتجريبية ، استبعادها « للعقلانية » من نطاق اللاهوت والإيمان .. فإن العقلانية الإسلامية في حضارتنا قد سلكت الطريق « المتميز » - على صعوبته - فجمعت بينهما .. وشاعت الكتابات المعبرة عن هذه الخصوصية في تراثنا الفكري .. من مثل تلك التي تمثلها عبارة الجاحظ [ ١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨٠ - ٨٦٩ م ] التي يقول فيها عن علاقة الفلسفة الدينية - علم التوحيد - الكلام - بالعلوم الطبيعية - والقوى الذاتية المودعة في المادة - التوانين - الطبائع - .. « وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً من الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذي يجمعها ، والمصيبة هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال . ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد ، وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصلح إذا قرناها بالتوحيد ، ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع . وإنما ييأس منك الملحى إذا لم يدعك التوافر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع ، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها ، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله ، فرفعت الدليل ، فقد أبطلت المدلول عليه ! .. ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة ! .. وأنا

أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي بباب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركتنا من أركان مقالتي ، ومن كان كذلك لم ينتفع به ! .. »<sup>(٢٣)</sup> .

فعلى حين كانت « الطبائع » ، واكتشاف « القوى الطبيعية » في المادة ، سبيل الحضارة الغربية وعقلانيتها إلى الإلحاد وإنكار إبداع الله ، بل وجوده .. كان ذلك في حضارتنا ، الدليل على وجود الله .. لأن رفع - أى إلغاء - أعمالها ، هو رفع - وإلغاء - لأعيانها .. وهذه الأعيان هى الدالة - كمصنوعات - على وجود الصانع القادر ، سبحانه وتعالى ! ..

ولذلك ، جاءت كلمات أبوالوليد ابن رشد [١١٢٦ - ١١٩٨ م - ٥٩٥ هـ] في هذا المقام جامعة وعبرة ، عندما قال : « إنا ، معاشر المسلمين ، نعلم ، على القطع ، أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له .. أعنى أن الحكمة هي صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيعة .. »<sup>(٢٤)</sup> ! ..

\* \* \*

---

(٢٣) [كتاب الحيوان] جـ ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٤) [فصل المقال بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ . تحقيق : د . محمد عماره . طبعة بيروت عام ١٩٨١ م .

وإذا كانت هذه هي حقيقة تميز حضارتنا العربية الإسلامية ، في عقلانيتها ، عن نظيرتها في الحضارة الغربية ، وأدلة انفراد حضارتنا « بخصوصيتها الحضارية » في العقلانية ، رغم « المشترك الإنساني » في اعتماد العقل أداة للنظر والبحث والاستدلال .. فإن هذه الحقيقة ، الشاهدة على هذه الخصوصية ، لابد وأن تؤكد لنا « أصلية » مذهبنا في العقل والعلقانية ، وأن تنفي ذلك الزعم الاستشرافي القائل : إن عقلانيتنا الإسلامية لا تعدو أن تكون أثراً من آثار عقلانية اليونان ! .. فإذا كان هذا هو مبلغ الاختلاف بينهما ، فكيف يكونان نمطاً واحداً ومذهباً فرداً ؟ ! .

وغير هذا الاستدلال المنطقي على أصلية وتميز عقلانيتنا الإسلامية .. فإن هناك أدلة أخرى تشهد لهذا الذي نقول .

● فالقرآن الكريم - معجزة الإسلام العظيم - رغم أنه هو « النقل » - إلا أنه قد جاء « معجزة عقلية » ، جسدت الوحدة الجدلية بين « العقل » و « النقل » في الآيات الجامع الذي ولدت من بين دفتيه حضارتنا .. فالعقل فيه هو مناط التكليف .. وهو الحكم الحاكم في رد المتشابه من آياته إلى المحكمات ، بتأويل الراسخين في العلم .

وإذا كان « العقل » في المصطلح العربي ليس عضواً من أعضاء الجسم الإنساني ، وإنما هو فعل التعقل .. و « جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله .. يتعلق

بالبدن تعلق التدبير والتصرف .. يدرك الغائيات بالوسائل والمحسوسات بالمشاهدة ..<sup>(٢٥)</sup> ... فإن مادة هذا المصطلح ، التي تتحدث عن عملية « التعلق » قد وردت في القرآن الكريم في مائتين وسبعين وستين موضعاً .. تسعه وأربعون منها بلفظ المادة « عقل » .. وتسعة عشر بلفظ « الحكمة » .. وستة عشر بلفظ « اللب » - أى الجوهر - فالعقل هو لب الإنسان وجوهره المميز له عن غيره من المخلوقات .. وموضعان بلفظ « النُّهُى » .. وأربعة مواضع بلفظ « التدبير » .. وسبعة مواضع بلفظ « الاعتبار » .. وعشرون موضعاً بلفظ « الفقه » .. وثمانية عشر موضعاً بلفظ « التفكير » .. ومائة واثنان وثلاثين موضعاً بلفظ « القلب » .. الذي به يفهون ويعقلون ويتدبرون ! ..

● وكذلك صنعت السنة النبوية الشريفة ، عندما زخرت أحاديثها بذكر العقل والحكمة والتفكير والتدبر .. وكل المصطلحات التي جاءت في القرآن دالة على عملية التعلق والتدبر والتفكير .. فمن قول النبي ﷺ : .. العقل أصل ديني » .. إلى قوله : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »<sup>(٢٦)</sup> .. و« نعم المجلس ينشر فيه الحكمة » .. إلى قوله :

(٢٥) [ التعريفات ] للشريف الجرجاني . طبعة القاهرة عام ١٩٢٨ م - مادة « عقل » - .

(٢٦) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٢٧) رواه الدارمى .

« عليكم بالقرآن ، فإنه فهم العقل ، ونور الحكم ، وينابيع العلم ، وأحدث الكتب بالرحمن عهداً .. » (٢٨) .

● ولذلك ، فانطلاقاً من القرآن والسنّة .. واستجابة لضرورة تاريخية وواقعية وحضارية ، تمثلت في الحاجة إلى استخدام البرهان العقلي في عرض حجج الإسلام والدفاع عنه تجاه المؤسسات اللاهوتية المسيحية واليهودية ومذاهب الغنوص (٢٩) والمجوس ، التي كانت تستخدم المنطق الأرسطي في الدفاع عن مذاهبها ، التي تركها الإسلام قائمة وترك أصحابها بمنجاة من الإكراه الديني ، وفق القاعدة الإسلامية الحاكمة « لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدَّبَنَ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيْرِ » (٣٠) .

.. استجابة لهذه الضرورة التاريخية ، انطلق المتكلمون المسلمين من القرآن والسنّة فأبدعوا العقلانية الإسلامية ، التي استوت مذهبًا مكتملاً على يد مدرسة « أهل العدل والتوحيد » منذ النصف الثاني من القرن الأول

---

٢٨) رواه الدارمي .

(٢٩) الغنوصية ، نسبة إلى « غنوصي » ، أي « المعرفة » . وهي نزعة فلسفية ودينية .. ازدهرت في المناخ الحضاري الهليني ، وفكرتها المحورية قائمة على أن « المعرفة » هي طريق الخلاص ، وليس الإيمان الديني ، سواء أكانت النصوص أو العقل أوهما معاً سبيلاً لهذا الإيمان .. وإذا جاز للغنوصية أن تكون سبيلاً للخلاص للقلة التي تسلك طريق التجربة الروحية الذاتية سبيلاً للخلاص بالمعرفة - كالصوفية مثلاً - فإن اعتمادها كطريق لخلاص الجمهور - الذي هو هدف الشريعة - يؤدي إلى إفساد عقائدهم ، دون تقديم البديل الذي يحسنونه ويقدرون عليه .

(٣٠) البقرة : ٢٥٦ .

الهجرى ، وقبل ترجمة الفلسفة اليونانية ، التى لم يعرفها العرب قبل الفيلسوف الكندى [ ٢٦٠ هـ ٨٧٣ م ] وعصر الخليفة المأمون [ ٢١٨ هـ ٧٨٦ - ١٧٠ هـ ٨٣٣ م ] .

لقد بدأت هذه العقلانية الإسلامية المتميزة في التبلور ، إنطلاقاً من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة ، منذ أواخر عصر الصحابة وأوائل عهد التابعين .. ونحن نقرأ في كتب السنّة ، كيف ذهب بعض التابعين إلى الصحابي عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، يسألونه عن مذهب فريق من أهل النظر ، لا يقفون عند ظواهر النصوص القرآنية ، وإنما هم يبحثون عن غامضه ، ويستخرجون خفيه .. فقالوا له : « يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبّلنا - [ أى في البصرة ] - ناس يقرءون القرآن ويتفقرون العلم .. »<sup>(٣١)</sup> .. أى يتبعون العلم ويطلبونه ، فيأتون بالغامض ويستخرجون الخفي الغريب ، من قرئ النصوص وما وراء ظواهر الآيات .. فلا يقفون عند حدود « القراء » ، وإنما يذهبون مذاهب « الحكماء » ! ..

ولم يكن هذا النظر الفلسفى الإسلامي ، المنطلق من « النقل » القرآنى ، بمقاييس الإسلام ، بداعاً ولا شاداً .. فرسول الله ﷺ هو الذى علمنا ضرورة غوص الراسخين في

---

(٣١) رواه مسلم وأبوداود والترمذى .

العلم على المعانى الكامنة خلف ظواهر آيات القرآن ، وذلك بـ « تثوير » القراءة للقرآن ، أى الغوص وراء معانيه ! .. فقال ﷺ : « من أراد العلم فلْيُثُورِ القرآن » و قال : « أثيروا القرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين » ! .. والثورة والتثوير - قرانياً وعربياً - تعنى قلب الظاهر وتجاوزه إلى العمق .. فبقرة بنى إسرائيل كانت ﴿ لَأَذَلَّوْلَ ثَيَرُ الْأَرْضَ ﴾ (٣٢) .. أى لا تحرثها .. والحرث هو الانقلاب في الأرض ، لتجاوز الظواهر إلى الأعمق ! ..

هكذا ، انطلقت حضارتنا من منابعها الفكرية الأصلية ، ومن واقع الضرورات التى جابهت الإسلام بعد فتح البلاد ذات الموراث الحضارية العقلانية ، فأبدعـت عقلانيتها الإسلامية المتميزة « كخصوصية حضارية » رغم ما يمثله « العقل » ، كأدـة نظر ، من « مشترك إنسانـي عام » .

وإذا كان شاعر الفلـاسـفة وفيـلـسـوفـ الشـعـراءـ أبوـ العـلاءـ المعـرىـ [ ٣٦٣ - ٤٤٩ هـ - ٩٧٣ - ١٠٥٧ م ] قد قال :

الناسـ صـنـفـانـ ، ذـوـ عـقـلـ بـلـاـ دـيـنـ وـاـخـرـ دـيـنـ لـاـ عـقـلـ لـهـ !  
فـاـنـ «ـ النـاسـ »ـ هـنـاـ ،ـ الـذـيـنـ يـصـنـعـونـ هـذـاـ التـقـسـيمـ ،ـ وـهـذـهـ

---

. ٧١ ) البقرة : ٣٢ (

الثانية ، هم « العوام » ، وأكثراهم - بمعايير النظر -  
لا يعقلون ! ..

أما أهل الفكر والنظر ، في حضارتنا ، فلقد أبدعوا  
عقلانيتنا الإسلامية ، التي جمعت بين الحكم والشريعة ، بين  
العقل والدين .. وفيها تفاصيل الدين وتدبرات الفلسفة ! ..  
فقول المعري هو نقد للانحراف عن هذا النهج ، وليس تقريراً  
لطبيعة الأمر في حضارتنا ، كما يحسب الذين لا يعقلون ! ..

ويشهد على ذلك ، أن أصحاب المذاهب النصوصية ،  
الذين اتخذوا موقف العداء من العقل وأدواته في تراثنا -  
والإمام أحمد بن حنبل [ ١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م ]  
في مقدمتهم - سرعان ما تبني خلفاؤهم في ذات المذهب قدرأ  
من العقلانية طويت به صفة المنهج النصوصي إلى حد  
كبير .. فبعد الإمام أحمد ، الذي وقف عند النصوص  
وحدها ، ورفض التأويل والقياس في أغلب الأحيان .. جاء  
شيخ الإسلام ابن تيمية [ ٦٦١ - ٧٢٨ هـ  
١٢٦٣ - ١٣٢٨ م ] الذي عقد المصالحة ما بين « العقل »

و«النقل»، وحكم بضرورة الوفاق والاتفاق ما بين «صريح العقول وصحيح المنقول» .. فكان ذلك شاهدا على أن «النحوية الخالصة»، في ترااثنا، لم تكن إلا نتوءاً عارضاً أفرزته خصوصيات آنية من الظروف والملابسات .. وكذلك صنعت حركة الإحياء والتجديد التي بدأت بجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ] والإمام محمد عبده [١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] عندما طوت صفحة «الجمود النحوي» التي سادت في حقبة حكم المماليك والعثمانيين .

## القومية بين «المذهب» و «دائرة الانتماء»

فطرة فطر الله الناس - كل الناس - عليها - على اختلاف الأجناس والألوان والحضارات .. حب الإنسان لأهله وعشيرته وقومه وأمته .. وهو حب فيه الكثير من معانى الانتماء والولاء .. يولد وينمو كثمرة لعديد من العوامل والأسباب والتكوينات ، الادبية والمعنوية .. فالالألفة مع المكان والناس عامل من عوامل هذا الحب ، ترسب في النفس وتراكم في الوعي واللاوعي ، وعلى مر الأيام ، مكونات هذا الحب والولاء والانتماء . والوعي بتراث الأسلاف الفكري وإبداعهم المادى ، وذكريات صراعهم مع أعداء الأهل والقوم والأمة والوطن .. وما في هذا الصراع من انتصارات وتقديم ، أو هزائم وتراجع - يضيف إلى الحصيلة الذاتية رصيداً ينمى هذا الحب والولاء والانتماء .. ومشاركة الإنسان وإسهاماته في صنع حاضر أهله وقومه وأمته ووطنه ، وكذلك في تشكيل صورة المستقبل ، يزيد من رصيد هذا الحب والولاء والانتماء .. وكذلك يصنع وفاء الأهل والعشيرة والقوم والأمة والوطن بما يجب عليهم إزاء الإنسان ، من حقوق له عليهم وواجبات عليهم نحوه .. فهذا الوفاء بحقوق الإنسان على أمته ووطنه يزيل أسباب «غربته» عن محیطه ، وينفي عوامل

« اغترابه » عن الوطن الذي يعيش فيه ، وذلك بتحقيق « المضمون » لفكرة المواطنة وشعارات الانتماء .. ولقد صدق الإمام علي بن أبي طالب عندما أصاب كبد الحقيقة في هذه القضية فقال : « إن الغنى في الغربة وطن .. والفقر في الوطن غربة .. وإن المقل غريب في بلادته » ؟ ! ..

لكن النفوس السليمة ، التي لم يفسد فيها صفاء الفطرة التي فطرها الله عليها في العلاقة بالأهل والعشيرة والقوم والأمة والوطن ، حتى وإن أصحاب النقصان درجة انتمائها وولائها وحبها لمحيط الأهل وال القوم والوطن ، بسبب تخلف العوامل التي تتمي وتنزيل هذا الحب والانتماء .. فإنها لا تستطيع أبداً أن تتجزء منه فتسقط هذه الدائرة من الحساب والحساب .. فقسوة الأهل أو العشيرة .. وظلم النظم السائدة في الوطن وإجحافها بحقوق الإنسان ، لا يدفع بأصحاب الفطرة الإنسانية السليمة إلى قطع العلاقة كلية ، ولا إلى الكفران بهذا الانتماء .. بل قد يكون ذلك دافعاً إلى الجهاد لتصحيح الأخطاء القائمة والجور السائد ، بدافع تخلص هذا المحيط المحبوب من النواقص والسلبيات ، تمكيناً للعوامل الطبيعية والفطرية من أداء دورها في تنمية الحب وزيادة الانتماء وتعزيز الولاء للأهل والعشيرة وال القوم والأمة والوطن ... وعن هذه الحقيقة عبر الشاعر بقوله :  
بـلـادـيـ ، وـإـنـ جـارـتـ عـلـىـ عـزـيـزـةـ ..  
وـأـهـلـ ، وـإـنـ ضـنـواـ عـلـىـ كـرـامـ !

ومن قبل ذلك ، تعلمنا هذه الحقيقة الفطرية الإنسانية من رسول الله ﷺ الذي لم يدعه كفران أهل مكة برسالته ، وإهانتهم لذاته الشريفة وتعذيبهم للقلة المؤمنة المستضعفة التي اهتدت إلى الإسلام ، ومحاصرتهم دعوه حصاراً فظاً وعنيفاً ومحكماً كاد أن يخنقها ... لم يدعه كل ذلك إلى أن يغفل ، في اللحظة الحرجية التي هم فيها بمعادرة مكة ، سراً متخفياً ، ليلة هجرته إلى المدينة فراراً بدعوه من هذا الحصار الفظ والعداء الغليظ وال الحرب الشاملة .. لم يدعه كل ذلك إلى أن يغفل عن الإعلان عن هذه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس - كل الناس - عليها .. فطرة الحب والولاء والانتماء للمحيط وأهله ، والمجتمع وقومه ، والوطن وأمته .. فرنا ببصره الشريف إلى مكة وشعابها في لحظة الوداع ، وخاطبها فقال :

« والله إنى أعلم أنى أحب بلاد الله إلى قلبي ، ولو لا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت ! .. » .

فهى ، وإن جارت عليه ، عزيزة .. بل أحب بلاد الله إلى قلبه ، عليه الصلاة والسلام .. بل لقد كان ، وهو بالمدينة ، المؤمنة ، يحن إلى مكة وشعابها ومراتع صباحه في دروبها ومواطن ذكرياته في أنحائها ، حتى قبل أن تفتح ، ويدخل أهلها في دين الله .. وكان يطلب إلى الله أن يحبب إليه المدينة ، كى لا تستأثر مكة بحب الوطن لديه .. وعندما قدم الصحابى أصيل بن عبد الله " الهذى من مكة إلى المدينة ، حرص

النبي ﷺ - كعادته مع القادمين منها - على معرفة آخر أحوالها وأحدث تطوراتها ووصف الجديد من معاللها ! ..  
فقال : ..

— « يا أصيل ، كيف عهدت مكة ؟ ! »  
فلما وصف له أصيل شعابها ودروبها وأشجارها وثمارها ! .. تملأه الحنين الشديد ، حتى بلغ مبلغ الحزن على فراقها .. فأوقف أصيل عن الاسترسال ، قائلاً :

— « حسبيك يا أصيل .. دع القلوب تَقْرَأْ ! ..  
لا تحزنا ! .. » (٣٣)

تلك ، إذن ، فطرة إنسانية ، فطر الله الناس - كل الناس -  
عليها ، يستوى في ذلك البشر أجمعون ، من كل الأجناس  
والألوان والحضارات ، أن تتعقد أواصر وأسباب وخيوط  
الحب والانتماء والولاء بين الإنسان وأهله وعشيرته وقبوته  
وأمتة ووطنه .

إنه « مشترك إنساني عام » ..

\* \* \*

لكن الحضارة الغربية ، مع هذا الاشتراك والعموم في هذه السمة .. قد تميزت بسمات في الفكر القومي وممارساته ،

---

(٣٣) ابن الأثير [ أسد الغابة في معرفة الصحابة ] ج ١ من ١٢١، ١٢٢ . طبعة دار الشعب . القاهرة . ود . محمد عمارة [ الإسلام والعروبة والعلمانية ] من ١٧١ . طبعة بيروت عام ١٩٨١ م .

لأنزها متسقة مع نظائرها في فكر حضارتنا العربية الإسلامية في ذات الموضوع ، ثم هي قد حملت خصائصها السلبية هذه ، ضمن فكرية التغريب ، لتفزو بها العقل العربي والمسلم ، محاولة جعله يتبنى مفهومها في « القومية » و « الأمة » والولاء والانتماء .

وهذه « الخصائص الغربية » في « القومية » و « الأمة » ، ليست ، بالطبع ، وليدة « ابتداع » غربي ، وإنما هي ثمرة طبيعية لتطور متميز عن تطورنا نحن ، ونتيجة منطقية لتميز الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية في عدد من السمات والسمات .. فهى ، من ثم ، وإن كانت طبيعية في الإطار الغربي ، فإن زرعها في محيطنا تعسف يأبه المنهج العلمي السليم .

لقد تشكلت الأمم والقوميات ، وقامت « الدول القومية » في إطار الحضارة الغربية ، في العصر الحديث .. وارتبط ذلك - وفق كل مذاهب الفكر الغربي - بنمو الطبقة الوسطى الجديدة - البورجوازية - وانحلال الرابطة العامة - التوحيدية - التي كانت تربط الغرب بالكنيسة ، واللاتينية ، ونظم الإقطاع ، فكان تكون الأمم والقوميات ، وسيادة لغاتها المتعددة ، ونشأة دولها المختلفة ، ظاهرة اسلاماوية تجزئية عن الكيان الواحد والعام .. وكما لعبت « اللهجات » التي تحولت إلى « لغات قومية » دورها في

رسم حدود هذه الانسلاختات القومية ، كذلك لعبت « السوق الاقتصادية » للطبقة البورجوازية دوراً رئيسياً في تحديد معالم هذه الحدود ، الأمر الذي جعل أغلب هذه الأمم والقوميات تولد من « رحم الصراع المادى » على الموارد والامكانيات والزبائن والمواد الخام .. فكان أن طُبعت مذاهب الغرب في الفكر القومي بالتعصب ، الذي استخدم العنصرية وعوامل الافتراق وأسباب التمييز في شحن جماهير كل قومية بالكراهية تجاه جماهير القوميات الأخرى .. وساعد على ذلك - بدلاً من أن يحد من آثاره - الطابع المادى للحضارة الغربية الواحدة .. ووقف التدين بال المسيحية هناك عند « الشكل » .. فلم تفلح وحدة الحضارة - لأنها مادية - ولا وحدة الإيمان بالمسيحية - لوقفه عند شكل التدين - في تخلص مسيرة الغرب القومية ، والخاض الذي ولدت أمه من خلاله ، من العنصرية والتعصب والبحث عن عوامل التمييز ومبررات التجزئة والانسلاخ .

فالصراع بين فرنسا وألمانيا على مقاطعتى الإلزاس واللورين ، مثلاً ، كان المنبع لل مشاعر القومية في الأمتين ، والمكون لمذهب كل منهما في الفكر القومي .. فلأن لغة المقاطعتين هي الألمانية ، أقام الألمان مذهبهم في القومية والأمة على عامل اللغة وحدها ، أو بالدرجة الأولى .. ولأن أهل المقاطعتين - إبان تبلور الفكر القومى في الدولتين - كانوا

يعيشون في كنف فرنسا ، أقام الفرنسيون مذهبهم في القومية على « الإرادة » ، لأن إرادة سكان الإلزاس واللورين كانت العيش في إطار الوطن الفرنسي .. فكان هذا الصراع ، ذا الطابع الانسلاхи ، والغارق في المطامع الماديه هو الرحم الذى كون فكر ألمانيا وفرنسا - بل وفكر أمم الحضارة الغربية - في القومية ، شرطًاً وسمات ، منطلقات وغايات ! ..

وعلى عكس هذه « الخصوصية الغربية » في نشأة القوميات ، وأسباب هذه النشأة ، واتجاه ريح هذه الظاهرة ، والفكر المكون لهذاذهب الغرب فيها .. على عكس كل ذلك كانت خصوصية حضارتنا العربية الإسلامية ومسيرتها التاريخية في هذا الموضوع .

● فنشأة الأمة في مسيرتنا الحضارية ليست ظاهرة حديثة ارتبطت بسيادة الطبقة الوسطى في العصر الحديث .. فأمّتنا قد اكتسبت وحدة اللغة والعادات والتقاليد ، ووحدة الانتماء لتراث واحد ، والولاء لتكوين فكري واحد ، وامتلاك الوطن المتحد ، ذي الاقتصاد المشترك أو المتكامل .. منذ تاريخ قديم .. لقد بدأت هذه المسيرة عندما أقامت الفتوحات العربية دولة الخلافة قبل أربعة عشر قرناً .

● واتجاه هذه الظاهرة في نشأة أمّتنا ، لم يكن - كحاله في الغرب - اتجاهًا إلى الانسلاخ والتميز والتجزئة .. بل كان على العكس من ذلك تماماً ، فهذه الأمة العربية الإسلامية قد ولدت

من بين دفتي القرآن الكريم ، وتبليورت كهبة من هبات الإسلام ! .. وقد جاء الوحي بهذا الكتاب إلى « الفرد » المصطفى ﷺ .. فكلفه إبلاغ الرسالة ، فكانت المسيرة :

إنذار العشيرة الأقربين .. ثم دعوة قومه العرب .. ثم دمج الموالى في العرب ، ليصبحوا ، بالولاء للعروبة الحضارية والثقافية . وبالإنتماء للإسلام أمة واحدة .. ثم بإدخال غير العرب - من الشعوب التي أسلمت - مع القبائل العربية - بالتعرف ، ووحدة العقيدة ، والمثل الحضارية ، والأصول والفلسفات ، والقيم والأعراف - في إطار أمة وجنسية وقومية الإسلام .. فكل الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قد غدوا - على اختلاف الأجناس والألوان - خيوطاً في نسيج الأمة الواحدة ، وال دائم الاتساع ، والذى ينمو ويتحقق باستمرار .. فمن الفرد المصطفى ﷺ إلى العشيرة الأقرب .. إلى القوم القريبين .. إلى توسيع نطاق العروبة - بتغيير مفهومها ومعيارها - لتشمل الموالى .. إلى دمج الشعوب المسلمة مع القبائل العربية - بالتعرف - في أمة واحدة ، ذات حضارة متحدة .. كانت مسيرة التكoin لأمتنا ، وكان اتجاه ريح الظاهرة القومية في حضارتنا نحو الامتداد والاستيعاب والتحقق الدائم ، وليس باتجاه التشرذم والتجزئة والانسلاخ ! ..

● ولذلك .. فلقد وجدنا تعريف الأمة ، في تراثنا الحضاري ، متميزةً عن تعريفها في الفكر القومي الغربي .. فلقد اجتمعت «ذهب الفكر القومي الغربي ، على اختلافها ، اجتمعت على تضمين تعريف الأمة والقومية الشروط التي تجعل هذا التعريف جامعاً مانعاً ، لأنها كانت تبحث عن عوامل التميز وأسباب الاختلاف ومبررات الانسلاخ .. أما في تراثنا اللغوي والحضاري ، فلقد وقف تعريف الأمة ومضمونها عند حدود «الجماعة» .. أية جماعة يربطها رابط بعينه ويجمعها جامع ما .. لأن البحث قد كان عن عوامل التأليف ، لا الفصل ، وأسباب الربط ، لا التجزئة ، وخيوط الوحدة ، لا الانسلاخ ... وكذلك كان تعريف «ال القوم » - وإليه تنسب القومية .. فالقوم بمعنى الإقامة في المكان ، فكل الذين تقيم معهم ويقيمون معك ، والذين تكسبهم هذه الإقامة في المكان - وطن الأمة - الرباط الجامع للأمة ، هم قومك وقوميتك ، في اصطلاح حضارتنا العربية الإسلامية .

وأنت إذا نظرت في القرآن الكريم ستجد هذا المضمون المبنى المصطلح «الأمة» في المواطن التي ورد فيها ، والتي تبلغ أربعة وستين موضعًا .. ﴿رَبَّنَا وَأَجْعَلَنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أَمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾<sup>(٣٤)</sup> .. فجامع «الأمة» هو رباط

إسلام الوجه لله .. ﴿ وَلَكُلُّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ .. ﴾ (٣٥) ..  
ورباطها هو أنها جماعة الدعوة ..

(٣٦) ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ..  
فرباط الجماعة هنا التواجد على بئر الماء طلباً للسقى ..  
فكانت هذه المرونة التي تميز بها مصطلح الأمة في القرآن  
الكريم - وكذلك في السنة النبوية ، والشعر العربي ، ومعاجمنا  
اللغوية - وثيق الصلة وبالغ الدلالة على النمط المتميز  
لمسيرة تبلور الأمة في حضارتنا .. أمة دائمة النمو ، باحثة  
عن الروابط الجامعة المؤلفة ، دائمة التحقق والانفتاح  
والاستيعاب .

● وعلى عكس موقف الفكر القومي الغربي من الرابطة الدينية الجامعة والرباط الإيماني الأشمل كان موقف فكرنا القومي من جامعة الإسلام .. فقومية الغرب كانت ولا تزال علمانية ، تتحى الدين جانباً ، ولا تعترف به مكوناً من مكوناتها ولا قسمة من قسماتها ، لأن هذه القومية الغربية كانت كتيبة من كتائب النهضة الغربية الحديثة التائرة على كهانة الكنيسة الغربية وكهنوت المسيحية الغربية ، الذي

---

(٣٥) يومنس : ٤٧ .  
(٣٦) الفصوص : ٢٣ .

أصحاب أوروبا بالازمطاط عندهما أخضى قداسة الدين وثباته هل متغيرات الدنيا ، «سياسة واجتماعاً واقتصاداً وفكراً .. ولأن هذه القومية الغربية .. كما أشرنا - كانت حركة اذ ملائحة عن الرابطة المميجية الأشمل ... ولذلك فقد توافق موقف القومية الغربية من الدين والتدين ما بين الإسقاط والهزل ، كما في القوميات البورجوازية ، ومذاهبها الفكرية .. وما بين العداء والسعى إلى الاقلاع ، كما في الممارسات الشمولية الماركسية المادية .. التي وقفت حتى من القومية - بمفهومها الليبرالي البورجوازى - موقف العداء .

على عكس هذا الموقف كانت علاقة القومية ، في حضارتنا ، بالإسلام ، فكراً دينياً وحضارياً ، وجامعة تضم كل المؤمنين بالإسلام .

فالقومية ، في الإطار الحضاري الإسلامي ، ليست مذهبياً فكرياً ولا هي أيديولوجية مذهبية ، حتى نتصور قيام التناقض بينها وبين الإسلام ، الذي هو فكرية الأمة وأيديولوجيتها .. وإنما القومية دائرة من دوائر الانتماء ، يشملها ويحددها الواقع ، الذي لا يلغيه الإسلام ولا يقفز عليه .. وإذا كان الإسلام هو دين الفطرة ، واستفتى المسلم فطرته السليمة ، فإنه واحد نفسه منتمياً إلى الإقليم والوطن الذي تربطه به أخص الروابط والذكريات .. ثم إلى الوطن القومي الذي تحقق

له وحدة اللغة قدرأً أكبر من التفاعل بين الذين يتكلمون هذه اللغة الواحدة .. ثم إلى الوطن الإسلامي العام الذي يجمع عبر المحيط الإسلامي الأشمل كل الجزر القومية التي يحتضنها هذا المحيط .. فهي دوائر انتماء تل كل منها الأخرى ، تبدأ من الأخص ، إلى الخاص ، إلى العام .. بل وتمتد بها العلائق والخيوط إلى المحيط الإنساني الأعم الذي يربط الإنسان ، عبر « الوطن » الإقليمي ، فالوطن القومي ، فالوطن الإسلامي ، بكل بني الإنسان .. دون أن يكون هناك تناقض أو تضاد بين هذه الدوائر والحلقات .

ويزيد هذه الحقيقة عمّا وجاء ما يمكن أن نسميه : المضمون الإسلامي المتميز لمصطلح القومية .. هذا المضمون الذي مكن جامعة الإسلام من أن تمثل « القومية الإسلامية العامة » التي تحضن « القوميات الخاصة » للأقوام الذين يتدينون بالإسلام .. وإذا شئنا نموذجاً نسبر به غور هذه الحقيقة . فإن في إبراز المفهوم الإسلامي للعروبة ، ومن ثم لدائرة الانتماء العربية السبيل لجلاء هذه الحقيقة التي تميزت بها قوميتنا عن نظائرها في الحضارة الغربية .

لقد كانت العروبة في حقبة الجاهلية العربية عصبية مؤسسة على العرق والدم والجنس ، تتميز بالعنصرية وضيق الأفق القومي ، بل ويمزقها التناحر القبلي شر تمزيق .. وكما مثل الإسلام ودولته ثورة في العلاقات القبلية ، جعلت القبيلة

مجرد لبنة في بناء الأمة ذات الدولة المتحدة ، بعد أن كانت كياناً مستقلاً في السياسة وال الحرب والاقتصاد .. مثل الإسلام ، كذلك ، ثورة في مفهوم العروبة ومضمونها ، فبعد أن كانت مؤسسة على « عصبية العرق والدم والجنس » ، أقامها على معيار « ثقاف - حضارى » تمثل في « اللغة - اللسان » ، وفي الولاء لما تمثله هذه اللغة من وعاء لفکر الإسلام وعلوم الحضارة العربية الإسلامية وانتفاء إلى هذا النمط الفكري الجديد .

ولقد حدث يوماً أن تعجب بعض الصحابة ، الذين لم يكونوا قد تشربوا بعد هذا المضمون الجديد للعروبة ، من حماس الموالى ، المنحدرين عرقياً من أصلاب غير عربية - مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي - تعجبوا من حماسهم لدعوة النبي العربي وبناء الدولة العربية التي أقامها المسلمون ، وذلك حسباناً منهم أن عروبة هذا الإنجاز الإسلامي مؤسسة على العرق والجنس ، كما كان حال هذه العروبة قبل ظهور الإسلام .. وعندما بلغ أمر هؤلاء الصحابة رسول الله ﷺ ، بدا غضبه ، وأمر بدعوة الناس إلى المسجد ، ثم صعد المنبر ، ليعلن إدانة هذا المضمون الجاهلي للعروبة ، ولينذر في تربة المجتمع الجديد والحضارة الجديدة ذلك المعنى والمفهوم الحضاري والثقافي للعروبة وللانتفاء العربي

منذ أكثر من أربعة عشر قرناً .. صعد رسول الله المنبر ،  
وخطب الناس فقال :

« أيها الناس ، إنَّ الْرَّبَّ وَاحِدٌ ، وَالْأَبَّ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ الدِّينَ  
وَاحِدٌ . وَلَيْسَ الْعَرَبِيَّةَ بِأَحَدِكُمْ مِّنْ أَبٍ وَلَا أَمٍّ ، وَإِنَّمَا هِيَ  
اللِّسَانُ ، فَمَنْ تَكَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ فَهُوَ عَرَبٌ »<sup>(٣٧)</sup> ففي هذه  
العبارة النبوية الجامحة إعلان عن مفهوم جديد ومعيار  
إسلامي للعروبة وللقوم والقومية .. فكل من استعرب ، وغدا  
ولاًه للعروبة ، وانتماوه للحضارة التي تتخذ اللسان  
العربي أداة ووعاء للفكر والتفكير ، فهو من « القوم  
العرب » و « القومية العربية » .. وإذا علمنا أن العربية  
هي لسان الإسلام ، لأنها وحدها السبيل إلى فقه إعجاز  
القرآن العربي ، والسبيل إلى تحصيل أدوات الاجتهاد في  
علوم الشريعة .. أى أنها هي الشرط ليكون المسلم  
مجتهداً يسن القانون الإسلامي ، ويقضى بما أنزل الله ،  
ويفتى في شئون الدين الإسلامي وقضايا الدولة  
الإسلامية ، أدركنا أن « دولة » الإسلام ، بمعنى جهازها  
التشريعي والقضائي ، وكذلك إمامها وخليفتها - الذي  
لابد وأن يبلغ في علوم الإسلام درجة الاجتهاد - علمنا أن  
هذه « الدولة » لابد وأن تكون « عربية » ، بهذا المعنى

---

(٣٧) [ تهذيب تاريخ ابن عساكر ] ج ٢ ص ١٨٩ . طبعة دمشق .

الحضارى والثقافى للعروبة .. وعلمها كذلك أن كل من استعرب ، وأصبح ولاؤه للعربية والعروبة ، بهذا المعنى ، فإنه من « القوم العرب » .. فهذه « العروبة الإسلامية » ، وهذا « الإسلام ذو اللسان العربى » كيان حضارى واحد ، لا سبيل إلى فصم عراه بأى حال من الأحوال .

ثم توالت أحاديث الرسول ﷺ التي تدين هذا المفهوم الجاهلى للعروبة وللرابطـة القومـية ولـمـعيـارـ العـصـبـيـة .. والتـى تـدعـى إـلـى طـى صـفـحتـها ، قـائـةـ لـلـمـسـلـمـينـ : « ... دـعـوـهـا فـإـنـهـا مـنـتـنـتـةـ ! » (٣٨) .. وـذـكـرـ دـونـ أـنـ تـسـقـطـ فـطـرـةـ حـبـ الإـنـسـانـ لـقـوـمـهـ ، أـوـ تـدـعـوـ إـلـى إـهـمـالـهـ ، بلـ كـانـتـ الدـعـوـةـ إـلـى تـطـوـيرـ مـعـيـارـ الـقـوـمـ » ، وـجـعـلـ « العـدـلـ » مـعـيـارـاـ لـلـمـنـاـصـرـةـ أـوـ الـمـعـادـةـ .. فـعـنـدـمـاـ يـسـأـلـ الصـحـابـيـ وـاثـلـةـ بـنـ الـأـسـقـعـ رـسـوـلـ الله ﷺ :

— « يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ »  
— يقول الرسول ﷺ : « لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ... » (٣٩) .. فالعصبية المرذولة هي عصبية الجاهلية .. هي « أن تعين قومك على الظلم .. وليس

(٣٨) رواه البخارى والترمذى .

(٣٩) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية  
وليس منا من مات على عصبية »<sup>(٤٠)</sup> - كما قال رسول  
الله ﷺ .

ولقد غدا هذا الفكر الإسلامي الذي استحدث للعروبة  
مضموناً جديداً ومعياراً جديداً .. والذى جعلنا و يجعلنا نقول  
دون مبالغة : إن عروبتنا - بهذا المعنى - هي عروبة  
إسلامية ، من صنع الإسلام .. غدا هذا الفكر ممارسة  
وتطبيقاً في واقع الدولة الجديدة والأمة العربية الإسلامية  
الوليدة ، ولم يكن مجرد « فكر نظري » معزول عن الممارسة  
والتطبيق .. فالمواли الذين أصبحوا عرباً بالاستعراب  
اللغوي ، وبالولاء والانتماء للبناء الحضاري العربي  
الإسلامي ، وللإسلام ذى اللسان العربي ، وللقوم العرب  
الذين حملوا رسالة الإسلام إلى العالمين .. هؤلاء المواли قد تم  
دمجهم وتوحيدهم عضوياً في القبائل العربية التي كانوا فيها  
 بالأمس أرقاء ، والتي مثلت لبيات بناء الأمة في دولة  
الإسلام .. وتواترت أحاديث الرسول ﷺ ، التي قرنت هذا  
الواقع الجديد ، و ذلك من مثل أحاديث : « مولى القوم  
منهم »<sup>(٤١)</sup> .. و « الولاء لحمة كلحمة النسب » ، لا بياع

---

(٤٠) رواهما أبو داود .

(٤١) رواه البخاري .

ولا يوهب «<sup>(٤٢)</sup> .. وعندما امتدت الفتوحات بحدود الدولة والأمة إلى خارج شبه الجزيرة العربية ، طبق عمر بن الخطاب [ ٤٠ ق - هـ ٢٣ - ٦٤٤ م ] هذا الفكر على الموالى الجدد ، وأدخلهم في إطار هذا التنظيم « الاجتماعي - القومي » ، عندما أصدر إلى قائد الفتح في بلاد فارس أمره : « ... وإنظر من قبلك من الحمراء - [ موالى الفرس ] - فألحقهم بقبائلهم ، وإن أرادوا أن يكونوا قبائل مستقلة فأجبهم ، وسوّ بينهم وبين غيرهم .. » ! لقد أنجز الإسلام هذه الثورة في الفكر القومي ، عندما انتقل بمعيار العروبة والقوم من عصبية العرق الجاهلية إلى معيار الثقافة والحضارة المركزة على العربية ، لسان الإسلام .

\* \* \*

وإذا كانت مسيرة العرب نحو وحدتهم القومية - تلك التي أنجزها الإسلام - على قاعدة هذا المعيار الحضاري الجديد - قد شهدت تطورات سبقت ظهور الإسلام ، كانت لهذا الحدث العظيم بمثابة المقدمات والإيرادات .. من مثل :

- تبلور اللغة العربية الواحدة - لغة الفكر والأدب - ذات الطابع القرشى .. كعامل توحيد للعرب ، جاء القرآن ليجعلها

---

(٤٢) رواه أبو داود والدارمي .

- عامل توحيد لكل مسلم أراد الفقه الحقيقى لحقيقة الإسلام .
- والاتفاق على أشهر حرم - [ رجب ، وذى القعده ، وذى الحجه ، والمحرم ] - تضع فيها الحرب أوزارها ، وتقام فيها أسواق التجارة والشعر والحج إلى بيت الله الحرام .. فتنمو عوامل الألفة وسمات الوحدة بين قبائل العرب جمياً .
- وعلاقات المودة والتضامن بين حكومة مكة ، على عهد رئيسها عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف [ ١٢٧ - ٤٥ ق . هـ - ٥٠٠ - ٥٧٩ م ] وبين حكومة اليمن ، بعد تحريرها بقيادة سيف بن ذى يزن [ ١١٠ - ٥٠ ق . هـ - ٥١٦ - ٥٧٤ م ] .. وذلك لمواجهة خطر الروم والفرس على شبه الجزيرة ، ولتأمين طرق التجارة في رحلتى الصيف إلى الشمال والشتاء إلى الجنوب .
- ثم .. باتفاق القبائل العربية على وضع نماذج لأصنامها فوق الكعبة .. حتى تحولت إلى « مجمع » لديانة العرب الوثنية ، وذلك حتى يكون الطواف حولها ، بموسم الحج ، تجسيداً للتقارب الهوية الدينية لعبدة هذه الأصنام ، التى كان تعددها تجسيداً للتمزق القبلى وللتشرذم الصارخ في شبه الجزيرة العربية .

إذا كانت مسيرة العرب ، قبيل ظهور الإسلام ، قد شهدت هذه المقدمات والإرهاسات على درب الوحدة .. فلقد جاء

الإسلام ، كدين ودولة ، ثورة عظمى ، إن في الفكر أو التطبيق ، بهذا الميدان .

• فالتوحيد الدينى - الذى بلغ فى الإسلام الذروة فى التنزية والتجريد - قد كان الإنجاز الإسلامى الأعظم الذى وحد هوية الأمة ، بعد أن كانت تجسد شرذمتها التعددية فى « المعبدات - الوسائل - الأصنام » .

ولقد أسهم هذا التوحيد الدينى - الذى وحد هوية الأمة ومثلها وفلسفتها وتوجهاتها - فى توحيدها قومياً ، كأمة واحدة من دون الناس .. وتحدى القرآن الكريم عن هذه الوحدة العربية كمعجزة حققها الإسلام ، وآية من آيات الله سبحانه ما كانت لتتم دون هذا التوحيد في الدين والعبود .

﴿وَإِذْ كُرُوا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ يُنْعَمَّتُهُ إِخْرَاجَكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَاعَتِنِي مِنَ النَّارِ فَانْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ عَائِدَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ ﴾٤٣﴾ .

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْأَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَوَيْعًا مَا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ بِحِكْمَةٍ ﴾٤٤﴾ .

(٤٣) آل عمران : ١٠٣ .

(٤٤) الأنفال : ٦٣ .

● ومع وضوح عالمية الإسلام .. وإعلانه أن البر ليس في تولية الإنسان وجهه قبل المشرق والمغارب .. « فَإِنَّمَا تُولُوا فُسْمَ وَجْهُ اللَّهِ » (٤٥) .. فإن الفكر لا يخطئ « الدلالة القومية » لتحويل « القبلة » من بيت المقدس - التي لم تكن خالصة العربية ولا إسلامية يومئذ - إلى بيت الله الحرام - الذي لم يكن أهله قد أسلموا يومئذ - .. وذلك لما له في تراث العرب ومجدهم من ذكر وشرف ، كأول بيت وضع للناس ، ودفع قواعده أبو الأنبياء إبراهيم وأبو العرب العدنانيين إسماعيل ، عليهما السلام .. ولقد كان تحويل القبلة إلى هذا الرمز العربي استجابة لطموح النبي العربي ﷺ ، عبر عنه القرآن الكريم فقال :

﴿ سَيَقُولُ الْشَّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِي مُسْتَقِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا مِنْنَا كُوَّنُوا شَهْدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى

الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٦﴾ قَدْ نَزَّلَتِ تَقْلِبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَّكَ قِبْلَةً تَرْضِيهَا فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوْلُوا وُجُوهَكُمْ شَطَرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ يُغَفِّلُ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ .

● وعلى ذات الدرب القرآني ، تعبيراً عن آثار التوحيد الديني على التوحد القومي ، وارتباط وحدة الهوية الدينية وتجسيدها لوحدة الأمة قومياً ، كوجهى عملة واحدة ترمز لإنجاز الإسلام ، كدين ودولة وحضارة .. على ذات الدرب نجد دلالات الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ . فكما منَّ الله ، سبحانه وتعالى ، على العرب بآية توحيده لهم ، ذلك التوحيد الذي أنقذهم من الاستضعاف الذي طالما عانوا منه معاناة الفريسة بين مخالب الجوارح - [ الفرس والروم ] - ..

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذَ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَحَطَّفُوكُمُ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَآيَدَكُمْ بِنَصْرٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيْبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

(٤٦) البقرة : ١٤٢ - ١٤٤ .

(٤٧) الأنفال : ٢٦ .

كذلك يتبه الرسول ﷺ قومه على أن وحدتهم القومية بضمونها الإسلامي ، في إطار الأمة المسلمة هي الطريق إلى الانتصار لهم ولأسيلافهم من الظاهر والظلم اللذين أصابهم بهما الفرس والروم طوال أحقاب التمزق والتشرد المترافق بظهور الإسلام .. فيحدث عمه أبا طالب عن دلالة كلمة التوحيد وشهادته وتأثيراتها في هذا الميدان ، فيقول : « ياعم ، لا أدعهم إلى كلمة يقولونها ، تدين لكم بها العرب ، وتوئي إليكم العجم الجزية ؟ .. والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله ! .. » .. كما يتنبأ بالإنجاز التوحيدى القادم في ركاب التوحيد الدينى ، وأنثاره القومية والسياسية على تغيير « خريطة المنطقة » و« رياح الحضارة » فيقول : [ إن أمتي ستظهر على « الحيرة » ، وقصور كسرى ، وأرض الشام والروم ، وقصور « صنائع » . وبشر المسلمين بذلك ! .. ]<sup>(٤٨)</sup> .

إنه التوحيد الدينى .. الصانع للوحدة القومية العربية .. المنجزة رسالة الإسلام ، دينا ودولة وحضارة .. على النحو الذى غير وجه التاريخ ! ..

---

(٤٨) ابن الأثير [ الكامل في التاريخ ] جـ ٢ ص ٦٧ ، ٢٤ ، ١٢٢ . [ اي ان رياح التغيير الإسلامي ، ستقدّف قوة الأمة الجديدة في وجه الخطر التقليدي المحيط بوطنهما من الشرق - الفرس - ومن الغرب والشمال - الروم - ومن الجنوب - الأحباش - ] .

هكذا مثل الإسلام « النواة » التي تبلورت من حولها حضارة عربية إسلامية ، دخلت في نسيجها مواريث عربية سبقت ظهور الإسلام ، ومواريث غير عربية لشعوب فتحها العرب المسلمون .. كما أسمهم في بنائها ، مع المسلمين - من العرب وغيرهم - عرب وغير عرب لم يتدينوا بالإسلام ... كما مثلت الجماعة العربية المسلمة « نواة » الأمة الجديدة ، التي اندمجت فيها والتحمت بها الجماعات والقبائل والشعوب التي انخرطت في هذا المد الجديد .. من الأعراب الذين انخرطوا في « أمة السياسة » و « رعية الدولة » ، وما يدخل الإيمان بالدين الجديد في قلوبهم .. ومن المؤلفة قلوبهم .. ومن العرب المتهودين أهل الكتاب .. ومن الموالى الذين استعربوا لغة واحلصوا الولاء والانتماء للوليد الحضاري الجديد .. فتحقق للأمة نموذج جديد وفريد .. أمة الامتداد ، والتفتح ، والاستيعاب .. لا أمة الإسلام والانقسام .. وقامت هذه الأمة على معيار عتني لمعنى القومية ومفهوم الأمة ، ارتبط فيه ما هو ديني بما هو قومي ، فكان التوحيد

الديني أحد وجهي العملة التي يمثل التوحيد القومي وجهها الثاني .. وكانت العربية - خصيصة القوم العرب وعامل فخارهم - لسان الإسلام ، وسبيل فقه القرآن والتفقه في علوم الإسلام .

فكان أن تميزت حضارتنا العربية الإسلامية في الفكر القومي ، وفي المسيرة القومية ، عن نظيرهما في الحضارة الغربية ، رغم اشتراك الفطرة الإنسانية في الولاء والانتماء والمحبة للأقوام ! .. وكان أن استطاعت جامعة الإسلام احتضان الخصوصيات القومية للأقوام المسلمين ، مع الأقليةيات غير المسلمة التي اشتراك في السمات القومية مع هؤلاء الأقوام .. على عكس الذي حدث عند نشأة القوميات الغربية بدولها ، عندما مرتقى الوحدة العالمية المؤسسة على الإيمان المسيحي .. بل وعلى عكس «الأممية الماركسيية الغربية» ، التي اتخذت إلى العالمية سبيل العداء والقهر للقوميات ! ..

إنها - مرة أخرى - «الخصوصية الحضارية» ، رغم المشترك الإنساني العام .. فالذين يعانون أن دائرة

الانتماء القومي هي واحدة من دوائر الانتماء ، تلي دائرة الانتماء الوطني والإقليمي ، وتليها دائرة الانتماء الإسلامي .. ويعون أن القومية ليست « مذهبًا » ولا « أيديولوجية » حتى توضع موضع النقض من فكرية الإسلام ، التي هي « أيديولوجية » الأمة .. ويعون أن هذا المفهوم المتميز للقومية إنما هو ثمرة إسلامية متميزة ، عن مفهومها الجاهلي ، وعن مفهومها الغربي - الذي هو جاهلي كذلك ؟ ! .. الذين يعون هذه الحقائق لن يجدوا تناقضًا بين وطنيتهم وقوميتهم وإسلاميتهم ، وإنسانيتهم أيضًا .

أما الذين يتبنون مفاهيم الغرب في القومية ، فيقيمونها على العرق والعنصر والعصبية الجنسية .. ويجردونها من مضمونها الإسلامي المتميز ، ويستبعدون منها - بالعلمانية - علاقتها العضوية بالإسلام .. ويقفون باهتماماتهم عند حدود الدائرة القومية ، مسقطين - في الحالة العربية مثلاً - ما وراء الخليج والمحيط .. فإنهم ، ولا شك ، راقد تغريبي في « المسالة القومية » ، يمثلون نموذجًا « للغزو الفكري » في هذا الميدان ! ..

## عموم الدين والدولة وخصوصية العلاقة بينهما

في الصراع الفكري - الخصب - الدائر الآن - ومنذ سنوات - على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ، حول مكانة الإسلام من مشروع النهضة التي ترقبها أمتنا ، وتتلمس إليها السبيل والأسباب .. وفي الجدل الدائر بين دعوة « إسلامية » هذه النهضة ، وأنصار « علمانيتها » ، تتجلى آثار الغزو الفكري ، وتأثيرات « التغريب » عندما يحتل عقل فريق من أبناء الأمة ، أوضح ما تكون هذه الآثار ، وأشد ما تكون هذه التأثيرات .

فهذه العقول التي صنعتها التغريب على عينه ! .. ومؤلاء « السلفيون - النصوصيون - المترغبون » ، الذين اتخذوا من مفكري الغرب ومذاهبه « سلفهم الصالح ! » .. نراهم ، في هذا الصراع الفكري ، وكثير من آثار الغزو الفكري الذي « ضرب » عقولهم في مؤسساته ، وصاغها وفق مناهجه .. نراهم ينظرون إلى حضارتنا ، وديتنا ، وتاريخنا بـ « عيون غربية » ، فلا يرون في مكوناتنا إلا « صورة كربونية » لمكونات الحضارة الغربية وديتها وتاريخها والمسيرة التطورية التي سلكتها .. ومن ثم فإنهم لا يرون لشكلاتنا حلًا إلا ذلك « الحل الغربي » الذي خرج به غرب « عصر النهضة » من مشكلات عصره المظلم والوسيط ! .

إلى هذا الحد بلغ ويبلغ الغزو الفكري « بالنخبة المتغربة » ...

● فالخلافة الإسلامية - كنمط من أنماط نظام الحكم في تاريخ الإسلام والمسلمين - في نظرهم - هي الصورة الشرقية للاستبداد والكهانة والسلطة الدينية والحكم بالحق الإلهي ، الذي عانت منه أوروبا عندما حكمتها « القيصرية - البابوية » أو « البابوية - القيصرية » .. حتى لقد كاد أن ينعقد إجماعهم على هذا التماثل بين صورة « الدولة الدينية » في التاريخ الأوروبي ، وصورة « الخلافة الإسلامية » في تاريخنا ، كثمرة من ثمرات النظر إلى الذات بعيون الآخرين ، وحسب كل مسيرات التطور لدى الأمم المختلفة في ذات القالب الذي سلكته أوروبا في تطورها ، إلغاء للخصوصيات ، وإطلاقاً « للمشترك الإنساني » على ما هو ، بالطبع والواقع ، متميز وخاص .. وهم ، في سبيل ذلك ، يهدرؤن أبسط قواعد المنهج العلمي في التفكير ، الداعية - عند دراسة آية ظاهرة من الطواهر إلى الانطلاق من حقائق واقعها ، لا من تصورات الآخرين عن حقائق واقع مفair لها ؟ ! .. ولذلك فإننا واجدون هذه « النخبة » من أسرى الغزو الفكري وضحاياه ، يهدرؤن الدلالات الواضحة للحقائق الصلبة والعنيدة التي مثلت ولا تزال معالم شاهدة في التاريخ السياسي للإسلام والمسلمين .

١ - فإذا كان جوهر « الدولة الدينية » هو ادعاء رأس الدولة النيابة عن السماء ، وإضفاء العصمة على تصرفاته ، والقداسة على قانونه ، وثبات الدين على ما هو من متغيرات الدنيا ، بحكم قانون التطور ، الذي هو سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير ، الأمر الذي يفرض الثبات والجمود على المؤسسات والفلسفات والأفكار والعلوم - كما حدث في أوروبا بعصورها الوسطى والمظلمة - .. إذا كان هذا هو جوهر « الدولة الدينية » .. فكيف نلتمسه ، ثم نزعمه قائماً متحققاً في الخلافة الإسلامية ، التي قامت على قاعدة خلافة الخليفة ونيابته عن الأمة ، وليس عن الله ، و اختياره بالشوري والبيعة ، لا بوصية الله وتعيين السماء ، والنظر إليه كأجير لدى الأمة وخادم لها ، عهدت إليه قيادتها على شروطها في التولية والتقويض ، مع احتفاظها بمهام مراقبته ومحاسبيه ، وتغييره - بالسلم أو الثورة .. إن هو كفر أو فسق أو جار وظلم أو ضعف عن النهوض بالمهام التي فوضتها إليه .. لا ك مجرد « حق » من حقوقها - هذه المهام - بل كفريضة شرعية واجبة بشرعية الإسلام ؟ ! ..

أين جوهر « الدولة الدينية » - كما عرفها الغرب في « القيصرية - البابوية » وفي « البابوية - القيصرية » - في « خلافة إسلامية » ، هذا هو جوهرها ؟ ! ..

٢ - وأين هي « عصمة » « القيصر - رأس الكنسية » أو

«البابا - القيصر» ، في خلافة إسلامية يعلن أول من تولها - أبو بكر الصديق [٥١ ق. هـ - ١٣ هـ ٥٧٣ - ٦٣٤ م] - في أول خطاب له عند ولايته لها ، على الملا من الناس : «أيها الناس ، إنني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعینوني ، وإن أساءت فقوموني .. أطیعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ... أيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنني لا أدرى لعكم ستکلفوننى ما كان رسول الله ﷺ يطیق ، إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعصمه من الآفات ، فإنما أنا متبوع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقوموني ... لا وإنما لى شیطان یعترینى ! .. » (٤٩) .

أين هي دعوى «العصمة» في خلافة يقول رائدها إن العصمة خاصية نبوة ، وإن الخليفة مثله كمثل كل الناس ، بل إنه ليس بخيرهم .. وله ، ككل البشر ، شیطان یعتریه ؟ ! ..

٣ - وهل تکفى عبارات - لو جمعت لما كونت صفحه من كتاب - وردت على ألسنة بعض الخلفاء .. من مثل قول عثمان ابن عفان [٤٧ ق. هـ ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦ م] لمن طلبوا إليه خلع نفسه من منصب الخلافة : «لن أخلع قميصاً

---

(٤٩) النويرى [نهاية الارب في فنون الادب] ج ١٩ من ٤٢ - وما بعدها - طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .

البسنيه الله ! » .. وقول معاوية بن أبي سفيان [ ٢٠ ق . هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠ م ] : « الأرض لله .. وأنا خليفة الله .. » .. وقول أبو جعفر المنصور [ ٩٥ - ١٥٨ هـ - ٧١٤ - ٧٧٥ م ] : « أيها الناس ، لقد أصبحنا لكم قادة ، وعنةكم زادة ، نحكمكم بحق الله الذي أولاًنا ، وسلطانه الذي أعطانا .. »<sup>(٥٠)</sup> .. هل تكفي عبارات مثل هذه ، كانت لها ملابسات خاصة ، في أن تغير جوهر الخلافة الإسلامية ، كسلطة مدنية ، تقييمها الأمة بالشوري والاختيار والبيعة ، لتنفذ قانون الشريعة ؟ ! ..

إن وقائع التاريخ - حتى تاريخ الخلفاء الذين أطلقوا هذه العبارات - شاهدة على أن عباراتهم هذه لم تعد نطاق « المجاز البلاغي » إلى أرض « الفكر السياسي » الذي عرف طريقه إلى الممارسة والتطبيق .

فعثمان بن عفان ، الذي رأى الخلافة « قميصاً » ألبسه الله إياه ، عندما ثار عليه الناس ، فخلعوه ، بل وقتلوه .. لم يقل أحد إن قاتليه قد كفروا لأنهم خلعوا القميص الذي قال إن الله قد ألبسه إياه ، وقتلوا لابسه بعد أن مزقوه .. ولو كانت خلافة عثمان « سلطة دينية » لكان الخلاف

---

(٥٠) انظر كتابنا [ الإسلام والسلطة الدينية ] من ١٦ ، ١٧ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٩ م .

عليها - ناهيك عن قتل صاحبها - على حد الشرك  
بإلهه ؟ ! ..

ومعاوية بن أبي سفيان ، الذي قال عن نفسه : إنه  
« خليفة الله » ، هو الذي قبل - دون غضب - مقالة الرجل  
الذى دخل عليه ، فسلم قائلاً : « السلام عليك أيها  
الأجير » ! .. وهو الذي لم يزعم كفر الذين عارضوه  
وقاتلوه .. بل إنه هو ذاته الذي كاد أن يجمع أئمة الفكر  
الإسلامى على أنه رأس « الفئة الbagية » على أمير المؤمنين  
علي بن أبي طالب [ ٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ - ٦٦١ م ]  
وأول من شاب الخلافة الشورية بشائبة الملك العضود  
فأين هي « السلطة الدينية » في خلافة معاوية بن أبي  
سفيان ؟ ! ..

وأبو جعفر المنصور ، الذي زعم أنه يحكم « بحق الله  
وسلطانه » .. هو الذي وصل إلى عرش الخلافة بثورة  
- وليس بتعيين سماوى - .. وكانت ثورته على الدولة  
الأموية لأسباب كثيرة ، لم يذكر من بينها « الكفر » بحقه  
الإلهى ؟ ! .. كما أنه هو الذي شهد عهده العديد من  
الثورات التي ناهضت خلافته ، دون أن يتهم قادتها  
بالكفر ، ولا أن يتهموه به .. بل لقد رأينا أئمة مثل مالك  
ابن أنس [ ٩٣ - ١٧٩ هـ - ٧١٢ م ] وأبا حنيفة  
النعمان [ ٨٠ - ١٥٠ هـ - ٦٩٩ م ] يعارضون

خلافته وسلطته ، ويفتون بجواز الثورة عليه ، رغم يمين البيعة له ، لأنها - كما قالوا - « يمين إكراه » لا تلزم الذين أكرهوا عليها ! .. كما رأينا الإمام مالك يرفض الاستجابة لطلب المنصور أن يكون كتابه [ الموطا ] قانون الدولة .. لأن ( الموطا ) هو اجتهاد مالك .. وفي الأمة مجتهدون آخرون ، ولا إلزام لمجتهد باجتهاد سواه من المجتهدين ؟ ! ..

فأين هي « السلطة الدينية » في خلافة المنصور وقانون الدولة التي قال إنه يحكم فيها « بحق الله » ١٠٤ ! .. لقد سقنا هذه النماذج ، حتى لا يقال لنا : إنكم تتفون ، فقط ، عند أبي بكر الصديق ، وعهد الخليفة الراشدة .. فها هي « الشبهات » و« السليبيات » ، لا دليل فيها لأسرى الغزو الفكري على دعوى التمايز أو الشبهة بين « الخلافة الإسلامية » وبين « الدولة الدينية » التي عرفها واكتوی بنارها أسلافهم الغربيون ! ..

● والإسلام .. الذي أجمع علماء الملل والنحل - نصارى ويهود الاستشراق - على أنه « عقيدة وشريعة » ، وعلى أن من شريعته ما هو « فقه معاملات » ، أى قانون للدنيا والدولة .. كما أجمعوا على أن رسوله ﷺ لم يقف عند حدود إبلاغ « العقيدة والشريعة » وإنما أقام « الدولة » التي حكمت بقانون الإسلام .. هذا الإسلام ، قد وجدناه عند أسرى الغزو

الفكري من دعوة التغريب : مسيحية ، تدع مالقيصر لقيصر وما لله لله ! .. ودينًا لا دولة ، وكأنما « الشريعة » فيه ترف فكري وزينة ليس لها حتى الجيد الذي يتزين بها ! .. رغم ما في هذا التصور الافتراضي من تجويز العبث على الله ، إذا هو أوحى بشريعة لا مكان لها في الممارسة والتطبيق - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - ! ..

في هذه القضية ، سبق تلامذة الاستشراق أساتذتهم ! وذلك حتى يطابقوا بين حضارتنا ومسيرتها التاريخية وبين الحضارة الغربية ومسيرتها التاريخية ، ليجعلوا من « الحل الغربي » الذي نهضت به أوروبا « الحل » المرشح لأنهاض أمتنا من التخلف والجمود .. فنظروا بعيون غربية إلى إسلامنا ، فرأوه مسيحية ! .. وإلى رسوله ، فرأوه ، في طبيعة الرسالة وحدودها ، لا يعدو المسيح ابن مريم ، عليه السلام ! ..

فقال واحد منهم - هو الشيخ على عبد الرحمن [ ١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ - ١٨٨٧ م ] - : « إن محمدًا ﷺ ما كان إلا رسولًا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشويبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة

ومرادفاتها . ما كان إلا رسولًا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً إلى ملك » (١) .

وقال آخر - مردداً ذات المعنى : - « إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ ملكاً أو رئيس دولة ، وظل ينعته بالنبي الرسول ... لم يكن النبي الإسلام في أى وقت من الأوقات ملكاً أو رئيس دولة ، وإنما ظل دائماً النبي الرسول ... » (٢) .

ولو احتمموا إلى واقع التاريخ ، لرأوا دولة الإسلام ، في المدينة ، منذ الهجرة ، قد استكملت مقومات الدولة : الدستور - [الصحيفة - الكتاب] - الذي يتحدث عن الرعية ، والحدود ، ويقنز للعلاقات الداخلية والخارجية ، للسلم وال الحرب ، للحقوق والواجبات .. الخ .. ولرأوا معالم الدولة - على بساطتها - في الجيش .. والولاة .. والقضاء .. وجماعي الزكاة والصدقات .. وكتبة الرسائل .. والترجمة .. والسفراء .. وأمراء الجند .. ومنفذى العقوبات .. والنظام المائى .. الخ .. الخ .

---

(١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ١٥٤ . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

(٢) د . محمد أحمد خلف الله [النص والاجتهاد والحكم في الإسلام] مجلة « العربي » عدد ٢٠٧ رمضان عام ١٤٠٤ هـ . يينيو عام ١٩٨٤ م . ص ٤٣ .

ولو طالعوا كتب السنة والسيرة النبوية ، ومصادر التاريخ التي رصدت معلم هذه الدولة الإسلامية الأولى ، لرأوا الشواهد الصادقة على أن إسلامنا هو « دين ودولة » ، طالما أنه « عقيدة وشريعة » ، بحكم المتنطق ، وواقع التاريخ الذي رصده المؤرخون (٥٣) ! .

بل إنهم لو احتملوا إلى تراث الاستشراق لرأوا إجماع المستشرقين - كما أشرنا - على أن الإسلام دين ودولة ، وعلى أن دولته لم تكن في يوم من الأيام « دولة دينية » كالتي عرفها الغرب في عصوره المظلمة والوسطى .. وإذا شئنا - وشاءوا - شهادة من هؤلاء المستشرقين ، فإننا نقدم لهم كلمات المستشرق - الحجة في القانون وفي الفقه الإسلامي - دافيد دي سانتيلا David de Sautillana [ ١٨٤٥ - ١٩٣١ م ] التي يقول فيها :

إن الشريعة الإسلامية - أي القانون السائد - هو نظام لضروب الأشكال النشاط البشري الذي يهدف إلى تيسير الحاجات الدينية .. إن الفقه الإسلامي حقيقة اجتماعية ، يتعلق قسم منها بالفرد وقسم بالمجتمع ... والقانون كلمة جوفاء لا تعنى شيئاً إن لم يكن له منفذ

---

(٥٣) انظر كتاب [ تحرير الدلالات السمعية ] لأبي الحسين علي بن محمد الخزاعي [ ٧١٠ - ٧٨٩ م - ١٠٢٦ - ١١٠٣ م ] في ثانياً كتاب [ نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ] لعبد الحفيظ الكتاني ، ج - ١ ، ٢ طبعة بيروت . دار الكتاب العربي .

وحام - [ دولة ] - .. ولهذا فقد أكمل الله بناء القانون بالحاكم . « الإمام أو الخليفة » ، وفرض طاعته على الأمة ... فالأمير هو عماد الدولة ، ولذلك فإن تعين الرئيس هو واجب ديني على كل مسلم حائز الصفات المقررة .. و اختيار رئيس المجتمع الإسلامي لا يمكن تركه للظروف والصدف أو لأعمال العنف والطغيان .. وخلفاء الرسول ما هم بوارثي رسالته الروحية ... وال الخليفة والإمام هو « أمير الدولة » .. ووظائفه في الشريعة الإسلامية ( العدل ، الجهاد ، الجباية ، تحكيم العادات والتقاليد ) .. وليس في هذه الأمور ما يضفي على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بمبسم الكهنوت كما ادعت بهذه التسمية هيئات حاكمة معينة في تأريخ العالم ، والحقيقة هي أن سلطة الخليفة ، كرئيس ديني ، لا يمكن أن تعتبر سلطة حبرية بابوية مثلاً ، فهو متجرد تماماً من صفة الكهنوت ، لأن حكومة المسلمين ما كانت في أى زمن أو

طرف حكومة دينية Hierarchy ولم يوجد فيها تعاقب روسي ، والإمام في سلطانه الدنيوي ليس سيداً « ربا » .. وإنما هو « وكيل » جماعة المسلمين ، وأعماله تستمد قوتها وقانونيتها من المبدأ القائل : إن الأمير يجب أن يضع نصب عينه مصلحة المجموع .. والزعيم والشعب ، الإمام والجماعة ، اصطلاحان بسيطان يحملان كل النظم

السياسي الإسلامي ، ويفسرون معنى الدولة كذلك . إنه تمثيل الدولة وسلطة الحكومة التنفيذية .. لا يملك أية مقدرة على تحوير القانون .. والرابطة التعاونية الموجودة بين الخليفة والشعب ، تبقى متينة وثيقة العرى مadam الخليفة صالحًا للقيام بواجبه في حماية المجتمع الإسلامي ، فإذا لم يعد أهلاً لمنح شعبه ما يريد منه ، بطل سلطانه ، وفسخ العقد شرعاً بين المتعاقدين .. » (٥٤) .

لورجعوا إلى تراث الاستشراق ، لرأوا الإجماع على أن الإسلام « دين ودولة » ، وعلى أن دولته وحكومته - كما قال دافيد دى سانتيلا : - « ما كانت في أى زمن أو ظرف حكومة دينية .. » ! .

ولكنه الغزو الفكري ، جعلهم يتخطبون بين إنكار علاقة الإسلام بالدولة والسياسة ، وبين اتهام الدولة الإسلامية في تاريخنا الإسلامي بالاستبداد الديني والحكم بالحق الإلهي .. لأن التغريب ، الذي احتل منهم العقل ، ولو ن الرؤية قد جعلهم ينظرون إلى الذات بعيون الآخرين ! .

\* \* \*

---

(٥٤) [ القانون والمجتمع ] ص ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٧ . طبعة بيروت - ترجمة جرجيس فتح الله - منشور ضمن كتاب [ تراث الإسلام ] بإشراف سيرتوomas أرنولد - عام ١٩٧٢ م .

ولو احترم هؤلاء المتردبون قواعد المنهج العلمي ، الذى يكثرون من تردید عبارته ، بأن انطلقا من حقائق الفكر وواقع التاریخ ، لأدركوا أن لحضارتنا في علاقۃ الدين بالدولة خصوصية إسلامية ، میزتها وتمیزها عن علاقتهمما في الحضارة الغربية .

● فالمسيحية ، التي هي بحكم طبيعتها ، ووفق لاهوت كنیستها : رسالة روحية خالصة ، مهمتها خلاص الروح ، والتركيز على مملكة السماء ، والتي لذلك تركت ما لقيصر لقيصر ، ووقفت عندما هو الله ... هذه المسيحية ، التي لا علاقۃ لها بالدولة ، تجاوزت بها الكنيسة الغربية هذه الحدود ، عندما فرضت هيمنتها على الدولة والمجتمع ، فجمدت التغير في القوالب الثابتة للدين ، وأضفت قداسته على ممارساتها البشعة التي دخلت بالسياسة والمجتمع والاقتصاد والفكر والإنسان عصور التخلف والرجعية والظلم .

● والعلمانية ، التي تعنى فصل الدين عن الدولة ، وإعادته إلى إطار العلاقة الفردية الخاصة بين الفرد وخلقه .. والتي أفرزها عصر النهضة الأوروبية .. هي في الحقيقة الواقع رد الفعل لتجاوزات الكنيسة حدود مهامها واحتراصها .. ولذلك ، فإنها هناك مفهومه ، بل ومبررة .. لأنها - في الإطار المسيحي - لا تمثل عدواً على المسيحية - التي هي دين

لا دولة - بل هي حركة تصحيح تعيد المسيحية ، كرسالة روحية خالصة ، إلى إطارها الصحيح ؟ ! .

ولهذا ، فإن هذه العلمانية ، في إطار المسيحية الغربية ، طبيعية تماماً ، بل وتقدمية .. لأنها « حل غربي ، لمشكلة غربية » .

ولما كانت طبيعة الإسلام ونطاق شريعته مغاييران لنظريهما في المسيحية .. ولما كانت مسيرتنا الحضارية لم تشهد ذلك الذي شهدته الحضارة الغربية ، من « دولة دينية » ، أقامتها « القيصرية - البابوية » حيناً ، و« البابوية - القيصرية » حيناً آخر .. ولما كانت مسيرتنا الحضارية هذه قد خلت من « حكومة الفقهاء » ، ومن صراع الدين للعلم والفكر ، إلى آخر آثار وتأثيرات « الدولة الدينية » في الغرب .. فإن قواعد المنهج العلمي ، المستند إلى حقائق الفكر والمنطلق من وقائع التاريخ ، لا بد أن تقود إلى هذا الذي قلناه ، من أن علاقة الدين بالدولة ، في الإسلام الدين ، وفي التاريخ الإسلامي هي « خصوصية حضارية » ، وليس مما هو « مشترك إنسانى عام » .. ولن يمارى في هذه الحقيقة العلمية إلا أسرى الغزو الفكرى ، من « السلفيين المتغربين » !

\* \* \*

إن الدولة ، في المنظور الإسلامي هي : « إسلامية - مدنية » ، في ذات الوقت .. أى أنها ليست « الدولة

الدينية » ، التي تجعل « الدولة » ديناً خالصاً ، فتضفي عليها قداسة الدين ونبلاته .. كما أنها ليست « الدولة العلمانية » ، التي تفصل الدين عن الدولة كامل الانفصال .

إنها : « دولة : إسلامية .. » ، لأنها محكومة بمقاصد الشريعة وحدودها .. ولأن الإسلام - كما أجمع على ذلك العلماء ، من أهله وغير أهله - لم يقف عند « العقيدة » و « الشعائر » والفرائض الفردية ، وإنما هو كذلك « شريعة » ، اشتغلت على الكثير من « الفروض الاجتماعية » - فروض الكفاية - التي هي أشد توكيداً من الفروض الفردية ، والتي يتوجه التكليف فيها إلى الأمة والمجتمع ، ومن ثم فإن النهوض بها لا يتأتى إلا بقيام « السلطة » و « الدولة » .. وبسبب من « الطبيعة الإسلامية » لهذه الفرائض الاجتماعية - من مثل الزكاة ، والجهاد ، والعلم ، والشورى ، والعدل الاجتماعي ، وإقامة الحدود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. الخ .. الخ - فلا بد من أن تكون « السلطة » و « الدولة » التي تنهض بها ذات « طبيعة إسلامية » هي الأخرى ..

فليس صحيحاً ما يزعمه العلمانيون المترغبون من أن « شعائر الله ومظاهر دينه .. وصلاح المسلمين في دنياهم » يمكن أن يتحقق بوجود مطلق « حكومة .. دستورية أو

استبدادية .. جمهورية أو بولشفية <sup>(٥٥)</sup> .. ذلك أن الإجماع والمنطق يؤيدان مقولات مثل : « لا يبني الاشتراكية سوى الاشتراكيين » .. « ولا يصون الليبرالية سوى الليبراليين » .. فأنى لنا ، إذن ، أن نتصور تطبيق وحماية الفرائض الاجتماعية الإسلامية دون « سلطة » و« دولة » إسلامية ؟ ! .

إن « الدولة الإسلامية » - على الرغم من أنها ليست من عقائد الإسلام وأركانه وأصوله - إلا أن إقامتها هي « فريضة إسلامية » و« واجب إسلامي » ، لأن إقامة الفرائض الإسلامية والواجبات الإسلامية متوقف عليها ومرهون بقيامتها .. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب - وفق قواعد المنطق الإسلامي ، والأصوليين المسلمين .

ولأن الشريعة الإسلامية - التي هي « وضع إلهي ثابت » - قد وقفت إزاء الشئون الدنيوية المتغيرة عند المقاصد والفلسفات والأطر العامة الحاكمة ، وتركت التفاصيل والنظم والتطبيقات والمؤسسات لإبداع العقل البشري ، وفق التجربة الإنسانية ، وابتغاء مصلحة الأمة ، وفي إطار مقاصد الشريعة وحدودها .. كانت دولة الإسلام « مدنية » ، لأن الأمة فيها هي مصدر السلطة

---

(٥٥) [الإسلام وأصول الحكم] ص ١٣٦ ، ١٣٤ .

والسلطان ، شريطة أن لا تتعدي سلطتها إطار الشريعة ومقاصدها .. فهى دولة « مدنية » بقدر ما هي « إسلامية » .. وليس بالدولة « الدينية » ، التى تجعل الدولة دينا ثابتاً ومقدساً ، تنتفى من شئونها سلطات الأمة وسلطانها .. كما أنها ليست بالدولة « العلمانية » ، التى تطلق سلطان الأمة من قيد الشريعة الإلهية وإطارها ، عندما تفصل بين الدين والدولة ، على النحو الذى ساد في الغرب كرد فعل للكهانة والكهنوت !

إنها « الدولة : الإسلامية .. المدنية » .. التى تقوم العلاقة فيها بين « الدين » و« الدولة » ، مع التمييز فيها - بذات الوقت - بين ما هو دين خالص وثابت ، وما هو دولة تجرى عليها سنن الله في التطور والتغيير .. إنها علاقة لا ترقى إلى درجة « الوحدة » والكهانة .. ولا تتدنى إلى درجة « الانفصال » والعلمانية .. فمقاصد الشريعة الإلهية الثابتة تعطى هذه الدولة طبيعتها « الإسلامية » ، واجتهاد الفقهاء المسلمين في القانون الإسلامي - فقه المعاملات - وفق تطورات الزمان والمكان ، يعطى هذه الدولة طبيعتها « المدنية » .. الأمر الذى يبرز لكل ذى بصر وبصيرة تميزها ، « خصوصية حضارية إسلامية » ، عن نظيرتها في التراث الغربى ، القديم منه وال الحديث .

\* \* \*

وإذا كان صاحبة رسول الله ﷺ قد كانوا حريصين على التمييز في قراراته وتصرفاته بين ما هو « دين خالص » وما هو « دنيا » .. فكانوا يسألونه في مواطن اتخاذ القرار النبوى ، هذا السؤال الشهير : يا رسول الله ، أهو الوحي ؟ أم الرأى والمشورة ؟ .. فإن لهذا الأمر دلالته في التمييز - لا الوحدة ولا الفصل - بين الدين والدولة في نهج الإسلام .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا ذلك ، صراحة ، عندما هاجر إلى المدينة ، ورأى أهلها يؤبرون - [يلقحون] - النخل ، فقال قولاً جعلهم يعدلون عن ذلك .. فلما « شاص » الثمر ، ووضحت سلبيات شوراه ، سأله في ذلك .. فقال لهم ﷺ : « إنما أذا بشر مثلك .. وما قلت لكم : قال الله : فما كان من أمر دينكم فإليّ ، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به ، أنتم أعلم بأمر دنياكم ! »<sup>(٥٦)</sup> .. فإن لهذا الحديث النبوى الجامع دلالته في موضوعنا هذا .

وإذا كان علماء الأصول في تراثنا الإسلامي ، قد ميزوا ، في السنة النبوية الشريفة ، ما بين « السنة التشريعية » - والتي تتعلق بتبلیغ الرسالة ، والفتيا في الدين - بياناً للغامض وتفصيلاً للمجمل .. وما بين « السنة غير التشريعية » - التي تتعلق بالمتغيرات الدنيوية - سياسة واجتماعاً واقتصاداً

---

(٥٦) رواه مسلم وابن ماجة والإمام أحمد .

وحرباً .. الخ .. فحكموا بإلزام الأولى إلزام اتباع للمنطق والمفهوم .. ووقفوا من الثانية عند حدود المقاصد والغايات التي تحقق المصالح المتغيرة ، حتى ولو غيرت أفعالنا المأثور من الأفعال في هذه السنة غير التشريعية ... فإن في هذا التمييز ، أيضاً ، ما يشهد على تمييز الإسلام - دونما فصل - بين ما هو « دين ثابت » ، وما هو « متغير من شئون الدولة والدنيا » ... الأمر الذي يجعل - كما قلنا - من علاقة الدين بالدولة في حضارتنا العربية الإسلامية ، - فكراً وتاريخاً - « خصوصية حضارية » ، تميزت فيها وبها حضارتنا عن الحضارة الغربية ، التي تراوحت في هذا الأمر وهذه العلاقة بين النقيضين : « الكهانة .. والدولة الدينية » و « العلمانية .. وفصل الدين عن الدولة » .. وشتان بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنساني عام » ! .

إن الدولة الإسلامية - الخلافة والإمامية - كما يقول أئمتنا : « .. ليست من أصول الاعتقاد<sup>(٥٧)</sup> ... وليس من أصول الديانات والعقائد ، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين<sup>(٥٨)</sup> .. وهي ليست من المهام ، وليس من فن

(٥٧) الشهريستاني [ نهاية الإقدام في علم الكلام ] ص ٤٧٨ . طبعة جيوم - مصورة - بدون تاريخ .

(٥٨) الإيجي ، والجرجاني [ شرح المواقف ] ج ٢ ص ٢٦١ . طبعة القاهرة عام ١٢١١ هـ .

المعقولات فيها<sup>(٥٩)</sup> .. وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق<sup>(٦٠)</sup> ... والإسلام لم يعرف تلك السلطة الدينية ... التي عرفتها أوروبا .. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر .. والأمة هي التي تولى الحاكم .. وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه . ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج « ثيوكريتik » ، أى سلطان إلهى ، فليس للخليفة - بل ولا للقاضى ، أو الفتى ، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحrir الأحكام . وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشّرع الإسلامي ... لكن الإسلام : دين ، وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً .. ولا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة .. والإسلام لم

(٥٩) الغزالى [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٢٤ . طبعة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ .

(٦٠) ابن خلدون [المقدمة] ص ١٦٨ . طبعة القاهرة عام ١٣٢٢ هـ .

يدع مالقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ،  
ويأخذ على يده في عمله .. فكان كمala للشخص ، وألفة في  
البيت ، ونظاماً للملك .. «<sup>(٦١)</sup> .. كما يقول أئمة الإسلام ، من  
الغزالى ، إلى الشهريانى ، إلى الإيجى ، إلى الجرجانى ، إلى  
ابن خلدون ، إلى الشيخ محمد عبده .

هذا هو الإسلام .. وهذه هي دولته والسلطة فيه ، إذا  
نحن رأيناها بعيون عربية إسلامية ، لا بعيون غربية ، كما  
صنع ويصنع أسرى الغزو الفكري من المتغربين !

---

(٦١) الإمام محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٢ من ٢٢٣ - ٢٢٦ ، ٢٨٩ . دراسة  
وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

## الاتفاق على مبدأ التطور .. والاختلاف في مذاهبه

لا أعتقد أن أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات ، قد وقفت وتوقفت من « النشوء والتطور والارتقاء » موقف الرفض والعداء والإنكار .. تستوى في ذلك - كما أحسب - كل الأمم الإنسانية ، وكل الحضارات .

ذلك أن الحواس الإنسانية ، وكذلك العقول - وهى مشتركة إنسانى عام - تدرك بالبداهة آثار قوانين وظواهر وأعمال النشوء والارتقاء والتطور في كل ما يحيط بالإنسان .. بل وفي ذات الإنسان ، وفي فكره أيضاً .. ففى النبات ، نشوء وتطور وارتقاء .. وكذلك في الحيوان .. وفي الجماد .. وفي الأفكار .. تلك حقائق بدائية ، أقام الله عليها قصة الخلق الأول .. والمستمر .. وكذلك الإعادة والبعث والإحياء .. واتخذ منها دليلاً دعا أدوات الإدراك الإنسانى - الحسية والفكرية - من السمع والبصر والفؤاد - إلى إدراكها وإدراك ما تعنيه .. وفاضت بال الحديث عنها آيات القرآن الكريم .

فقصة الإنسان مع الوجود والتحول .. قد حكمها قانون النشوء والارتقاء والتطور والتحول .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا إِنْسَنَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ۚ إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۚ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعُلْقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَهُمَا مِّنْ أَنْشَانَهُ خَلْقًا أَخْرَفْتَ بَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَلْقَيْنِ ۚ إِنَّمَا أَنْكِرَ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ۚ إِنَّمَا يَرَى لِيَوْمَ الْقِيَمَةَ مَمْعَثُونَ ۚ ۲۲﴾

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ  
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّ كَثْمَ شَدَّةٍ لَّتَكُونُوا شُيُوخًا  
وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ  
تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٣) .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبِدَاءَ خَلْقَ الْإِنْسَنِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَكَّةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشَكَّرُونَ ﴾ (٦٤).

٦٢) المؤمنون : ١٢ - ١٦ .

٦٧) غافر : ٦٣

٦٤) السجدة : ٧ - ٩ .

﴿أَيْخُسْبَ الْإِسْنَنَ أَنْ يُرَكَ سُدَىٰ ۚ﴾ الْمَرِيكُ نَطْفَةٌ مِّنْ مَنِ يُمْنَىٰ ۚ كَانَ عَلَقَةً  
فَخَلَقَ فَسَوَىٰ ۚ بَعْلَ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنَ الْذَّكَرَ وَالْأُنْثَيْ ۚ وَالْإِسْنَنَ ذَلِكَ يُقْدِرُ عَلَيْهِ أَنَّ  
يُخْسِبَ الْمُؤْقَنَ ۚ﴾ (٦٥).

لَيَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ  
ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ  
لِنَبِيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْضِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَجَلَ لِشَيْءٍ مُّسَمٍّ شَيْءٌ نَخْرِجُهُمْ  
طِفَالًا ثُمَّ لَتَبْلُغُو أَشَدَّ كُمْ وَمِنْ كُمْ مَنْ يُنُوفُ وَمِنْ كُمْ  
مَنْ يَرِدُ إِلَى أَرْذِلِ الْعُمُرِ لَكَيْلَا يَعْلَمُ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى  
الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ  
كُلِّ ذَوِيجٍ بَهِيجٍ (٦٧).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحِيِّ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ

٦٥) القناة : ٣٦ - ٤٠ .

(٦٦) الرؤم : ٩٤

(٢٧) الحج :

قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمِئِنَ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةَ مِنَ الْطَّيْرِ فَصُرْهُنَ  
 إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَكَ سَعِيًّا  
 وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۖ ۲۶۰ ۶۸

وفي تراثنا القديم ، نقرأ عن تجارب الأسلاف ، منذ ما قبل الإسلام ، في تخييرهم الأرحام لنطفهم ، تحسينا للنسل وارتقاء به وتطويراً له .. وكذلك كانوا يصنعون في الحيوان والنبات ، انتخاباً في اللقاح والتلقيح ، وتطعيمًا وتهجيننا .

ومع أسلافنا وأمتنا وحضارتنا ، اتفقت وتفق - كما أشرنا - كل الأمم والحضارات في الإيمان بحقائق وقوانين النشوء والتطور والارتقاء .. فالجميع ، إزاء المبدأ والقانون ، يجتمعون على هذا « المشترك الإنساني العام » .

\* \* \*

لكن للحضارة الغربية في مذهب التطور والنشوء والارتقاء مضمون وأبعاداً هي من صميم « الخصوصية الحضارية » ، التي تميزها عن حضارتنا العربية الإسلامية ، فتتفرد بها عن هذا « المشترك الإنساني العام » ..... وعلى سبيل المثال : ● فمن النظريات التي لعبت دوراً محورياً في طبع فكرية الحضارة الغربية الحديثة بطبعها ، وأثرت أبلغ التأثير في مختلف ميادين هذا الفكر ، حتى غدت بمثابة المنطق والفلسفة

لكثير غيرها من النظريات الأساسية التي مثلت قسمات الفكر الغربي الحديث ... تلك التي صاغها شارلز داروين Darwin [ ١٨٠٩ - ١٨٨٢ م ] للتطور والنشوء والارتقاء في كتابه الشهير [ أصل الأنواع ] .. وفي هذه « الداروينية » - سواء عند منشئها ، أو عند تلاميذه ، بتياراتهم المختلفة - لم تقف الحضارة الغربية ، في هذه القضية ، عند « المشترك الإنساني العام » ... وإنما ابتدعت جديداً ، هو الذي نراه « خصوصية حضارية غربية » ، لا يجب قبوله قبل « المشترك الإنساني العام » .. وذلك من مثل :

١ - القول بوحدة أصل الأنواع الحية .. بدءاً بالخلية الواحدة ، التي تخلقت ذاتياً ، ومروراً بالحيوانات الفقيرية ، حتى القردة ، التي هي أصل الإنسان ! .

فهذه « الإضافة الغربية » ، ذات النزعة المادية الإلحادية - لزعمها التخلق الذاتي للحيوان ذي الخلية المفردة - .. والمفتقرة إلى « الصدق العلمي » ، لاختراعها قانوناً عاماً بناء على استقراء ناقص - كما أثبت ذلك علماء أوربيون وغربيون أيضاً - .. هذه الإضافة الغربية قد أتى على بلادنا حين من الدهر ابتعلتها حياتنا الثقافية والفكرية والتعليمية مع ما هو - في التطور - « مشترك إنساني عام » .. وهذا لون من الوان الغزو الفكري ،

الذى لا يميز بين « الخصوصيات الحضارية » وبين « المشترك الإنسانى العام » .

٢ - وقالت الداروينية ، أيضاً ، بتأسيس التطور والارتقاء على « التناقض المطلق » .. وزعمت أن قانون الحياة والأحياء هو صراع الأضداد على البقاء ، وأن البقاء في هذا الصراع ، ومن ثم الارتقاء ، هو للأقوى ، لأن هذا الأقوى هو الأصلح ! .. فكان أن أعطت هذه الفكرة - الداروينية « للحضارة الغربية في عصر الكشوف الجغرافية والمد الاستعماري التبرير والمشروعية لكل ما مارسه الغرب ضد الأمم والحضارات ، التي ابتليت باستعماره ، من قهر ونهب وإبادة ومسخ ونسخ وتشويه ! ..

إذا استرق الغرب الشعوب الملونة ، استرقاها جماعياً ، فاقام رخاءه المادى على جماجهم ، وسير سفن سعادته في بحار عرقهم ودمائهم .. فذلك مشروع ، لأنه هو الأقوى ، فهو الأصلح للبقاء ، وفقاً لهذا القانون « العلمي » الذى زعمته الداروينية ! ..

وكذلك الحال إذا هو أباد الهنود الحمر ، ونسخ حضارتهم .. وإذا هو اقتلع شعوباً من أوطانها

واستعمرها استعماره الاستيطانى ، كما هو الحال في فلسطين ، وجنوب أفريقيا ، وكما حاول في الجزائر .

وكذلك الحال إذا هو صنع ذات الشيء مع الأبنية الفكرية والثقافية والحضارية لهذه الشعوب التي غلبتها على أمرها واقتتحم عليها أوطانها بقوته .. فالقوة هي الصلاح ، والقوى هو الأصلح والأجدر بالبقاء ! .

لقد منحت هذه النظرية المشروعة « الأخلاقية » لـ « قانون الغابة » ، فاقتصر الرجل الأبيض ما اقترفه واجترحت يده ما اجترحت ، وهو مرتاح الضمير ، راحة أصحاب الرسائلات ! .

وانطلاقاً من هذه الفلسفة الداروينية - التي لبست ثوب « العلم الطبيعي » نوراً وبهتانا - لم يشعر كثيرون من مفكري الغرب بالخجل من مشاريع الغزو والدمار ، ومن جرائم المرتزقة والأفاقين والمغامرين في المستعمرات .. فـ « ماكس نوردو » ، [ ١٨٤٩ - ١٩٢٣ م ] يتحدث عن المشروع الفرنسي لاقتلاع شعب الشمال الأفريقي العربي المسلم لحساب الاستعمار الاستيطانى الغربى ، فيقول : « إن شمال أفريقيا سيكون مهجراً ومستوطناً للشعوب الأوروبية .. وأما سكانه الأصليون فسيدفعون نحو الجنوب ، إلى الصحراء الكبرى ، إلى أن يفنوا هناك ؟ ! » .

وجابريل هانوتو Hanotaux G . [ ١٩٤٤ - ١٨٥٣ ]  
- السياسي والمفكر الفرنسي يقول عن « رسالة » الرجل  
الأبيض الفرنسي في الجزائر : « إن شعباً جمهورى  
المبادىء .. قد تقلد زمام إدارة شعب آخر ، منتشر في الأرجاء  
الفسحة والأصوات المجهولة ، يتبع تقاليد وعادات غير التي  
نعنوا لها ونحترمها ، هو الشعب الإسلامي السامي الأصل ،  
الذى يحمل إليه الشعب الارى المسيحي الجمهورى الآن :  
ملح وروح المدنية ؟ ! .. » .

أما « سايسيمون دى » ، فيقول ١٨٣٠ م ، عن هذه المهمة  
الغربية ، مهمة غزو الجزائر : « هذه المملكة الجزائرية التى  
ستصبح بلدًا جديداً يتدفق إليه الفائض من السكان ومن  
نشاط أبناء فرنسا ؟ ! .. » .

وكما بربت لهم الداروينية إفناء الإنسان الأقوى  
للضعف .. بربت لهم ذلك أيضاً في « صراع » الحضارات ..  
فكتبوا عن العربية ، لغة الجزائر القومية ، في ١٨٤٨ م : « إن  
الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية  
لغة قومية فيها . والعمل الجبار الذى يجب علينا إنجازه هو  
السعى وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالى إلى أن  
تقوم مقام العربية ، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا ،  
وتمثيلهم بنا ، وإدماجهم فيينا وجعلهم فرنسيين ؟ » .  
وكتبوا عن الإسلام ، فكرية - أيديولوجية - الشعب

الجزائري ، بلسان الكاردينال « لافيجري » : « إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيستمر إلى الأبد .. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل ! .. » (٦٩) .

لقد صدرت هذه الأقوال - وأمثالها كثيرة - من هؤلاء المفكرين الغربيين - وأمثالهم كثيرون - دون أن يشعروا بالخجل ، لأنهم كانوا ينطلقون من فلسفة تقول لهم : إن تنازع البقاء ، وإفناء القوى للضعف هو القانون العلمي الواجب النفاذ ! .

ومع ذلك ، يدعونا أسرى الغزو الفكري ، من المتغربين ، إلى ابتلاع هذا « الطعم » ، زاعمين أنه « علم » و « مشترك إنساني عام » ! .... غير مدركون أنه جزء من « **الخصوصية الحضارية الغربية** » المعبرة عن نزعة الاستعلاء والعدوان عند الرجل الأبيض الغربي تجاه الشعوب الملونة وتجاه الحضارات التي ابتليت بالاستعمار الغربي الحديث ! .

\* \* \*

---

(٦٩) د. محمد عمارة [العرب والتحدي] ص ٢٧٨ - ٢٨٠ طبعة الكويت عام ١٩٨٠ م . و[الأمة العربية وقضية الوحدة] ص ٨٨ طبعة بيروت عام ١٩٨١ م .

وفي مجال «فلسفة التاريخ» و«التطور الحضاري» اجتهدت «الهيجلية» أن تنقض بذات الدور .. فإبداع الفيلسوف الألماني هيجل Hegel [ ١٧٧٠ - ١٨٣١ م ] في فلسفة التاريخ قد طبع الفكر الغربي بطابعه إلى حد كبير .. فسادت نظريته في انتباخ الفكر ، كبناء فوقى ، من الواقع ، كبناء تحتى .. فالصور والأخيلة إنما هي بنت عصرها ، فإذا دعا التطور هذا العصر إلى أن يخل مكانه لعصر جديد ، فلا بد وأن تخلى هذه الصور والأخيلة والأفكار مكانها لأخرى منبثقة من العصر الجديد .

ولا أحد ينكر ما في هذه النظرية من عناصر صدق نلمسها عندما ننظر في تطور المجتمعات والأفكار والحضارات .. فحتى تواتي وتغير الشرائع السماوية ، وفكرة النسخ ، نسخ اللاحق للسابق في هذه الشرائع ، شاهد على ما في الهيجلية من صدق وواقعية .

لكن الأمر الذي جعل من الهيجلية ، في تفسير التاريخ «خصوصية حضارية غربية» ، تجاوزت وغايرت ما هو «مشترك إنساني عام» في هذا الميدان .. هو الغلو والبالغة في التغير وتأثيراته و مجالاته .. فهى قد جعلت «التغيير» بمثابة «المطلق» ، ولم تعط الانتباه الكافى لعناصر «الثبات» ، التى تظل قائمة فاعلة ، رغم تغير الواقع المادى ، والتى تحفظ على المسيرة الحضارية ، رغم

التطور ، وحدتها وخصوصيتها ، كما تحفظ « البصمة » على الإنسان تفرده وتميزه ، رغم ما يتغير فيه عبر مسيرته من الولادة إلى الممات .

فباستثناء « بقايا أنقاض » من الأبنية الفكرية السابقة ، لن يبقى التطور - كما زعمت الهيجلية - من انعكاسات الواقع الغابر شيئاً .

وكما حدث بالنسبة لفلسفة الداروينية ، فلقد وظفت الهيجلية في خدمة الاعصار الاستعماري والغزو الحضاري والاقتلاع الثقافى والمسخ والنسخ والتشويه الفكري الذى مارسته الحضارة الغربية الغازية ضد حضارات البلاد التى نكبت بهذا الاستعمار .

فالذين احتلوا أرضنا وهيمنوا على مقدراتنا قد صاغوا واقعنا صياغة جديدة ، وأزالوا منه البنى والمؤسسات القديمة ، إن في الإنتاج الفكري أو ميادين الحرف والصناعات .. لقد غيروا الواقع ، وجعلوه « متغرباً » .. وهما هى الفلسفة الهيجلية في تفسير التاريخ ، تأتى لتقول : إن الطبيعي والقانونى والعلمى أن تخلى الرؤى والأخيلة والأفكار الموروثة مكانها ، بعد أن غبر واقعها ، لأن أخرى مناسبة لهذا الواقع الجديد .. وبما أنه - الواقع الجديد - « متغرب » ، فلا بد وأن تكون الفكرية السائدة هى فكرية « التغريب » !

وهذه الفلسفة الهيجلية هي التي وقفت ولا تزال خلف ما قرأناه ومازالتنا نقرؤه لأسرى الغزو الفكرى من المترسبين الداعين إلى أن نأخذ الغرب ككل : التصنيع والقيم .. العلوم الطبيعية والملائكة .. التقدم العلمي والفلسفة والأخلاق .. لأن هذا الإطلاق الذى رجحت به الهيجلية كفة «المتغيرات» على حساب «الثوابت» قد قاد إلى محاولاتهم نفى كل ثوابتنا واقتلاع هويتنا وخصوصيتنا الحضارية من الجذور .

ونحن نعتقد أن ملابسات غربية خاصة هي التي أفرزت هذه الخصوصية الغربية في فلسفة التاريخ .. فلا أحد ينكر وجود التناقض والمتناقضات .. ولا دور صراع الأضداد في التطور والنشوء والارتقاء .. والله سبحانه وتعالى يشير إلى هذه الحقيقة وهذا القانون في القرآن الكريم عندما يقول :

﴿ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَنَمِينَ ﴾ (٢٥) (٧٠)

وعندما يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ إِمَانُهُمْ أَكْبَرُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَانٍ كُفُورٍ ﴾ (٢٨) أُذْنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيْرِهِمْ بِغَيْرِ حِقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِعَضٍ لَهُمْ صَوَاعِدٌ وَيَعُوْذُونَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمَاعُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٧١)

لا أحد ينكر هذا القانون الفعال .. قانون « التناقض » و « الصراع » .

لكن الحضارة الغربية التي جمدت كننيتها - عندما هيمنت على الدولة - كل المتغيرات الدينية ، من الواقع المادى إلى الفكر والعلم ، ففرضت « الثبات » على ما هو متطور ومتغير بحكم سنن الله في الكون .. هذه الحضارة الغربية التي غالست كننيتها ، عندما حكمت ، في « الثبات » على حساب « التغيير » ، جاءت نهضتها ، وكرد فعل معاكس ، لتفاوت في « التغيير » على حساب « الثبات » .. فكان افتقادها وافتقارها إلى « الوسطية » - التي هي أبرز خواصنا الحضارية - السبب في مجيء فلسفة التاريخ الهيجلية على هذا النحو الذي جعلها و يجعلها « خصوصية حضارية غربية » ، وليس من « المشترك الإنساني العام » .

\* \* \*

٤٠ - ٣٨ (٧١) الحج :

● والأمر الذى صنعه داروين في «العلوم الطبيعية» - الأحياء - .. والذى صنعه هيجل في التاريخ والفكر .. صنعه كارل ماركس G.Marx [ ١٨١٧ - ١٨٨٣ م ] في علم الاجتماع .. فالتناقض عنده مطلق .. وصراع الأضداد مطلق .. ولابد للصراع من أن يفضي إلى أن ينفي قطب القطب التقيض .. بهذا فسر ماركس تطور المجتمع من المشاعية البدائية .. إلى العبودية .. إلى الإقطاعية .. إلى الرأسمالية .. إلى الشيوعية .. وبالتناقض المطلق ، والصراع الطبقي الذى لابد وأن «تنهى» فيه وبه «البروليتاريا» «البورجوازية» ، رسم ماركس خارطة الحياة الاجتماعية ، زاعماً أنه يقدم «نظريه علمية» ، هى مما يدخل في «المشترك الإنساني العام» دخول حقائق العلوم الطبيعية وقوانينها في هذا الإطار .

والحق ، أن هذا الجانب من جوانب الماركسية ، لا يعدو أن يكون «علمًا» اجتماعياً ، ارتبط بخصوصيات الحضارة الغربية ، التي جمدت كننيتها المتغيرات ، واللغت - أو خيل إليها - التناقضات .. فجاءها رد الفعل المعاكس ممسكاً ، فقط ، بالطرف المقابل والمناقض .

إن التناقضات الاجتماعية حقيقة واقعة لامراء فيها ، وانقسام المجتمعات إلى طبقات هي الأخرى من حقائق الواقع الملحوظ .. والصراع بين الأضداد ، وبين الطبقات

ذات المصالح المتناقضة مما لا ينكره العقل السليم .. لكن ما ننكر عمومه في هذه القضية ، هو القول بضرورة « نفي » طرف للطرف الآخر في الصراع .. فالمطلوب ليس النفي للقطب الآخر ، واقتلاعه من الحياة والواقع ، وإنما المطلوب هو استخدام الصراع سبيلاً لبلوغ نقطة « التوازن » ، التي تنتفي فيها المظالم الصارخة والجور الواضح .. فعند نقطة « التوازن » هذه تلتزم عرى طبقات الأمة ، أو تتعايش ، وفقاً لمعايير العدل الممكنة التطبيق ، الأمر الذي يتتيح لقوى الأمة وطبقاتها أن تسهم جمياً في حمل أعباء التقدم العام .. وليس ضرورياً ، بل ولا هو بالذالق ، البلوغ بالصراع نقطة « نفي » أحد اقطاب الصراع القطب الآخر نفياً كاملاً ومطلقاً .

فهذه « الفكرة الماركسية » - والتي عجزت المجتمعات الماركسية عن تطبيقها بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أربع القرن على سيادة الماركسية - حتى لقد خلقوا بدليلاً - هو الحزب والدولة والشرائح الحاكمة - حل محل القطب الذي ظنوا أنهم نفوه ! - هذه « الفكرة الماركسية » ، مثلها كمثل الداروينية والهيجلية ، هي من « خصوصيات الحضارة الغربية » ، وليس - في قضية التطور والتغير والنشوء والارتقاء - مما هو « مشترك إنسانى عام » .  
إن تزكيتنا لـ « خصوصياتنا الحضارية » لا يعني

انتقادنا أو ازدراءنا بـ « خصوصيات الحضارات الأخرى » .. فقد تكون تلك الخصوصيات طبيعية وملائمة ومفيدة هناك .. والقضية الجوهرية هي : الملاعة وعدم الملاعة .. وليس بأى حال من الأحوال ، تعصباً أعمى للذات ، وهجاء جاهلياً للآخرين ! .. كما أنها ليست حرصاً على التميز لذات الحرص عليه وإنما هي تمسك بالسنن الطبيعية التي ميزت بين الحضارات فيما هو خاص بكل منها . كما جمعت بينها فيما هو مشترك إنسانى عام .. كما هو الحال في تميز الإنسان الفرد عن غيره من بنى جنسه ، مع اشتراكه في الإنسانية مع كل بنى الإنسان .

## الطيب والخبيث في حقوق الإنسان

بين الحين والحين ، نقرأ هجوماً أو غمزاً أو ملزاً ، من دوائر معاذية للعرب وال المسلمين ، ضد بعض الدول الإسلامية . لأن هذه الدول لا تزال ترفض أو تتحفظ في التوقيع على « الإعلان العالمي لحقوق الإنسان » ، الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨ م .

والبعض منا قد يريح نفسه من التوقف عند هذا الهجوم أو الغمز واللمز ، قائلاً : هذه دوائر معاذية ، ومن ثم مغرضة ومتجنبة ، لا تستحق وجهات نظرها التأمل والاعتبار ! .

ولكننا كثيراً ما نقرأ ذات النقد لإنجام أو تحفظ بعض دولنا الإسلامية على هذا الإعلان ، من منظمات عالمية تطوعية لا ينكر أحد جهودها الخلاقة في الدفاع عن حقوق الإنسان ، في كل المجتمعات ، وعبر كل الحضارات ، وفق قواعد وضوابط حدتها هذه المنظمات لهذه الحقوق .. الأمر الذي يدعونا إلى أن نأخذ هذا الأمر مأخذ الجد ، فنننظر : هل هناك مجال لتمايز حضاري بيننا وبين الحضارة الغربية في النظر إلى قضية « حقوق الإنسان » ؟ ! .

\* \* \*

بادىء ذى بدء ، فنحن لا نخفى إعجابنا الشديد باهتمام الحضارة الغربية ، والمنظمات الدولية التطوعية ، وخاصة التى أقامها الغربيون ، بقضية الدفاع عن حقوق الإنسان .. ولا نخفى إعجابنا الشديد بما تحقق للإنسان في ظل الكثير من نظم الحضارة الغربية من كرامة وحقوق ، ومن الوعى الذى ترسخ في مناهج وبرامج الأحزاب السياسية والمؤسسات الفكرية والقانونية والدستورية والقضائية والإنسانية بهذه الحقوق .. ونتمنى ، من أعماق قلوبنا أن يحظى إنساننا العربي والمسلم بما حظى ويحظى به الإنسان الغربى في هذا الميدان .

ومع ذلك .. فنحن نضيف أمنية نتمناها ، وقضية ندعوا إلى تبنيها ، هى أن يدرك مفكرونا ومناضلونا أن لأمتنا - في قضية حقوق الإنسان - إلى جانب ما هو « مشترك إنسانى عام » ما يميزها حضارياً ، في هذا الميدان ، عن المفهوم الغربى لحقوق الإنسان .. وأن الوعى بهذه الخصوصية الحضارية ، والنضال لتحويلها إلى واقع يعيشه إنساننا العربى والمسلم ، ويستمتع بثمراته ، لن ينتقص من كرامة إنساننا وحقوقه عن نظيره الغربى ، بل يزيدهما عمقاً وقدراً وعلواً ، إلى الحد الذى نزعم فيه أن لدينا في هذا الميدان ما هو جدير بأن يكون « الخيار المستقبلى » الذى تطمح الإنسانية في اتخاذة نهجاً

ومعياراً لتحقيق الأمال في ميدان حقوق الإنسان .. كل إنسان ! .

\* \* \*

إن تاريخ الغرب مع فكر ومواثيق وتطبيقات حقوق الإنسان ، تاريخ قريب وحديث .. فإذا كانت أوروبا العصور الوسطى والمظلمة قد سادها الجهل والاستبداد وهيمنت عليها قسوة الرجعية وتحكمت في إنسانها قيود الكهانة الكنسية وأغلالها .. فإن ما عرفته الحضارة الغربية في حقبتها اليونانية من « الديمocratie » لم يعد نطاق القلة القليلة من أحرار المدن اليونانية ، أما الكثرة الكثيرة فلقد كانوا أرقاء ليست لهم أية حقوق .. وعلى أكتافهم وكواهلهم كانت كل الواجبات .. فلقد كان التمييز ، بل الفصل والتناقض بين القلة من الأحرار والأغلبية من الأرقاء حاداً ، والبون شاسعاً .. وكذلك كان الحال بين « العمل الذهني » الذي يحظى وحده مع أهله بالاحترام . على حين كان « العمل اليدوي » مع أهله ، فاقد الأهلية كلها ... وكان هذا الفكر ، وكانت تطبيقاته الشرعية التي يفخر بها ويتباهي الغرب في حقبة اليونان والرومان .. والذين يعلمون طرفاً من هذا الواقع ، ولو من خلال قصة العبيد في تلك الحضارة ، والثورة التي قادها فيهم إسباراتاكوس [ ٧٣ - ٧١ ق . م ] وما حفلت به

من ألام ، وما انتهت إليه من مأساة ، يعرفون مصداقية هذا  
الذي نقول :

إذن هو حديث و قريب عهد الحضارة الغربية بمواثيق  
حقوق الإنسان وتقنياتها وتطبيقاتها .

لقد بدأت مسيرة الحضارة الغربية على هذا الدرس بفكر  
الثورة الفرنسية التي بدأت أحداثها عام ١٧٨٩ م .. في بيان  
هذه الثورة وضع « أمانول چوزيف سيس » [ ١٧٤٨ - ١٨٣٦ م ] وثيقة حقوق الإنسان ، تلك التي  
أقرتها « الجمعية التأسيسية » وأصدرتها « إعلان  
تاريخي » ، وكتابها سياسية واجتماعية ثورية ، في ٢٦  
أغسطس ١٧٨٩ م .. ثم سجلت هذه الوثيقة في الدستور  
الفرنسي ، الذي أصدرته الثورة عام ١٧٩١ م . ولقد كانت  
المصاد الأساسية لفكرة هذه الوثيقة الغربية في الأساس ..  
فهي نابعة من فكر المفكر الفرنسي « چان چاك روسو »  
Rousseau [ ١٧١٢ - ١٧٧٨ م ] ومن « إعلان حقوق  
الاستقلال الأمريكي » ، الذي كتبه « توماس جيفرسون »  
[ ١٧٤٣ - ١٨٢٦ م ] ، الصادر في ٤ يوليو ١٧٧٦ م .

ومن أهم المبادئ والحقوق التي تضمنتها هذه الوثيقة  
التاريخية : « أن الناس يولدون ويظلون أحراراً ومتساوين في  
الحقوق ، وأن حقوق الإنسان الطبيعية الخالدة هي الحرية ،  
والملكية ، والأمن ، ومقاومة الطغيان . وأن القانون لا يحظر

إلا الأفعال الضارة بالمجتمع ، وأن السيادة للشعب . وأن القانون تعبير عن إرادته ، ولكل مواطن حق الإسهام في وضعه ، وأن لجميع المواطنين حقوقاً متساوية في كافة المناصب والوظائف العامة وفقاً لكتاباتهم ولا تمييز بينهم إلا بفضائلهم وموهبيهم . وأنه لا عقاب إلا على الأفعال التي يُقرُّ العقاب عليها قانوناً سابقًّا تاريخ ارتكابها . وأن كل منهم مفروض أنه بريء حتى تثبت إدانته ، وأن لكل فرد حرية الرأي والعقيدة ما لم تخل ممارستها بالنظام العام . وأن لكل مواطن حق الكلام والكتابة ، دون إسراف في استعماله » .

ولقد انتقلت مبادئ هذه الوثيقة إلى النطاق الدولي عندما تضمنها ميثاق « عصبة الأمم » عام ١٩٢٠ م .. ثم ميثاق « الأمم المتحدة » ١٩٤٥ م .. ثم أفردت ، دولياً ، بوثيقة خاصة هي [ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ] ، الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة - كما أسلفنا - في ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨ م .

ونحن نعترف ، مرة أخرى ، أن تاريخ الحضارة الغربية ، في هذا الميدان - ميدان « حقوق الإنسان » - رغم أنه حديث ، إلا أنه غنى ورائع ومجيد .

\* \* \*

فقط .. نريد أن نضيف ، فنقول : إن لدى حضارتنا العربية الإسلامية ، في هذا الميدان ، « إضافات » تزيد فكر

هذا الميدان غنى وتدعم ما فيه من ضمائر .. كما أن لدينا فيه أيضاً ، « خصوصية حضارية » تميز بين فكريتنا وفكريّة الحضارة الغربية في هذا الموضوع ! .

● إن هذا الذي عرفته فكريّة الحضارة الغربية ، حديثاً ، في باب « حقوق » الإنسان .. عرفته فكريّة حضارتنا العربية الإسلامية ، بل ومارسته ، قديماً ، ومنذ ما قبل أربعة عشر قرناً ، لا كمجرد « حقوق » للإنسان .. وإنما « كفرايُض إلهية وواجبات شرعية » ، لا يجوز لصاحبها - الإنسان - أن يتنازل عنها أو يفرط فيها ، حتى بمحض اختياره إن هو أراد ! .

وذلك زاوية لرؤيه القضية ، ودرجة في تناولها ، لا شك أنها « إضافة » تزيد هذا الفكر غنى وأصالة وعمقاً ، وتتوفر له المزيد من الفعالية وقوة التأثير .

ف « الحياة » .. ترى فكريّة الحضارة الغربية في « الحفاظ عليها » « حقاً » من حقوق الإنسان .. لكن صاحب « الحق » حر في التنازل عن حقه .. ولذلك لا تجرم هذه الحضارة ولا تؤثم من يتنازل عن « حقه » في الحياة بالانتحار ! ... وليس كذلك موقف حضارتنا العربية الإسلامية من « الحفاظ على الحياة » لأنها تراه فريضة إلهية وواجبًا شرعاً لا يجوز ، حتى لصاحبها ، أن يفرط فيه .. فهو يأثم إذا قنط من رحمة الله فانتظر .. ويأثم إذا فرط في توفير مقومات الحياة - غذاء

وكسأء وأمناً - لذاته ، حتى ولو اضطر في سبيل ذلك إلى القتل والقتل - لأنه إذا طلب مقومات حياته ، حتى بالقتل ضد الظلمة والمحتكرين ، فهو فائز بإحدى الحسنيين .. إن انتصر كان مأجوراً بصيانته وأدائه واجباً شرعاً ، هو الحفاظ على حياته ، وإن قتل في سبيل ذلك فهو شهيد ! .

و « العلم » .. في فكرية حضارتنا ، ليس مجرد « حق » من حقوق الإنسان .. بل هو - كالنظر والتفكير - فريضة شرعية وتکلیف إلهي واجب ، يأثم الإنسان إن هو فرط فيه .. ولا يجوز له التنازل عنه بحال من الأحوال .. بل إن التفقة والتخصص والبراعة في مختلف العلوم والمعارف تزيد في الدرجة توکیداً وفي مراتب الفريضة علواً ، إلى الحد الذي جعلها إسلامنا « فرض كفایة » ، أى « فريضة اجتماعية » ، هي أشد توکیداً من « فروض العين - الفردية » ، لأن إثم التخلف عنها والتقصیر فيها إنما يعم ويلحق الأمة جماء .. وليس كفروض العين التي يقف إثم التقصیر فيها عند الفرد .. وحده ١٩ ..

و « الحرية » .. رأتها وترأها حضارتنا فريضة إلهية وواجبأ شرعاً ، هي الأخرى ، لأنها مساوية « للحياة » .. ولقد نبه علماؤنا على أن حكمة جعل الشريعة « تحرير الرقبة » كفارة « القتل الخطأ » ، هو ما في الرق والعبودية من معنى « الموت » ، وما في العتق والحرية من معنى « الحياة » .. فمن

أخرج من الحياة نفسها بقتلها خطأ ، فلْيُدْخِلْ في الحياة نفسها أخرى بتحريرها من موت الاسترقاق ! .. وبعبارة الإمام النسفي [ ١٣١٠ م - ٧١٠ هـ ] : « .. فإنه - [ أى القاتل ] - لما أخرج نفسها من جملة الأحياء . لزمه أن يدخل نفسها مثلها في جملة الأحرار ، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحياءها ، من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكما

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٧٢) ! .. (٧٣) .

كذلك ذهبت حضارتنا على درب تحرير الإنسان إلى الحد الذي اعتبرت فيه هذا « الواجب » جماع رسالة خاتم الرسل والأنبياء ، محمد بن عبد الله ﷺ .. فحدثنا القرآن الكريم عن أن جماع هذه الرسالة قائم في :

أ - اشتغال الإنسان بشئون أمته ومجتمعه العامة ، متمثلًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب - وتنظيم علاقة الإنسان بالأشياء ، ما هو حلال منها وما هو حرام .

ج - وتحرير الإنسان من القيود والأغلال .

٧٢) الأنعام : ١٢٢ .

٧٣) النسفي تفسير [ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ] ج - ١ ص ١٨٩ . طبعة القاهرة عام ١٣٤٤ هـ .

فقالت آيتها الكريمة عن هذه الغايات :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّتِي أَلَمْ يَكُنْ مَّا كَنُوا بِهِ  
عِنْهُمْ فِي أَتْوَرَتِهِ وَأَلِإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهِيَّهُمْ  
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الظَّبَابَتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَابَ  
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَأَلْأَغْلَلَ أَلَّقِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (٧٤).

و «اشتغال الإنسان بسياسة مجتمعه وامته » .. ليس مجرد « حق » من حقوقه ، حتى يجوز له التنازل عنه بالسلبية والاعتزال للشئون العامة .. وإنما هو فريضة إلهية وواجب شرعى .. فاهتمام الإنسان بأمور الأمة « فرض عين » ف .. « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .. أما الاشتغال بسياسة الأمة ، فهو فرض اجتماعى . أكد من فروض العين ، تأثر الأمة جموعا إذا لم ينهض به ويتبعاته فريق أو فرقاء من أبنائها .. وتدخل في ذلك جميع مهام السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وسائل شئون عمارة الأرض وإدارة الدولة ونظام الاجتماع الإنساني .. التي وضعها الفكر الإسلامي تحت باب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وكذلك « العدل » .. و « الشورى » .. والكرامة الإنسانية » .. الخ .. الخ .. وكل ما تحدثت عنه الحضارات

الأخرى في باب « حقوق » الإنسان ، عرضت له حضارتنا العربية الإسلامية كواجب شرعى وفرضية إسلامية ، لا يجوز حتى لصاحب المصلحة فيها أن يتنازل عنها بحال من الأحوال .. وإنما كان أثماً ، الإثم العام الذى يلحق الجميع ! .

ولا شك أن لهذا المنظور ، ولزاوية الرؤية هذه أكبر الأثر في إثراء هذا المبحث ، وزيادة درجته في سلم الأولويات الإنسانية ، الأمر الذى يضيف المزيد من القوة إلى رصيد وعدة المناضلين في سبيل رفع الإصر والأغلال عن كاهل الإنسان .

ففنحن مع فكرية الحضارة الغربية فيما هو موضع اتفاق ، بهذا الميدان ، وإلى هذه الفكرية نضيف ما تميزت به حضارتنا مما يدعم النضال الإنساني العام ، الساعي إلى تحرير الإنسان ، ووضعه حيث أراده الله : الخليفة والناصب والوكيل عن سيد هذا الوجود ! .

● أما « الخصوصية الحضارية » ، التي تميز حضارتنا ، بالمخالفة ، وليس بمجرد الإضافة ، عن الحضارة الغربية ، في هذا الميدان .. فإننا نوجز الإشارة إلى أهم معالمها ودلالاتها في هذه النقاط :

١ - فالإنسان ، صاحب « الحقوق » ، في عرف الحضارة الغربية ، هو ، فقط ، « الإنسان الغربي الأبيض » ! .. وليس مطلق « الإنسان » ! .. فنحن هنا أمام « عنصرية » ، وليسنا أمام « إنسانية » حقيقة .. وهم في هذا الموقف العنصري ، الذى تبرزه الممارسات والتطبيقات في الدائرة الاستعمارية ، وفي العلاقات الدولية ، يمثلون الامتداد للتراث العنصري في الحضارة الغربية .. فإنسان الحقبة اليونانية ، صاحب الحقوق ، كان القلة الحرة - السادة - وإنسان « التلمود » اليهودي - وهو من مكونات الفكرية الغربية - هو المؤمن بالعهد القديم .. وليس مطلق الإنسان .

ويشهد على هذا الموقف العنصري في تحديد الإنسان ، صاحب « الحقوق » - كما قلنا - ممارسات الغرب وتطبيقاته - التي تمثل القاعدة العامة - والتي لا تخلو بالطبع من الاستثناء - .. فالغرب قد صاغ مواطنه عن حقوق الإنسان في ذات الحقبة التاريخية التي مارس فيها الاسترقاق والاستعباد الجماعي للأمم والشعوب الملونة ، وأنجز فيها أبشع مشاريع النهب الاستعماري التي شهدتها تاريخ الإنسانية الطويل .

وحتى في هذا القرن العشرين ، رأينا وما زلنا نرى ممارساته في العلاقات الدولية قائمة على معايير العنصرية إلى حد بعيد ... ولم تفلح مواطنه عن مبادئه وحقوق الإنسان في

إخفاء المضمون العنصري الكالح المستكן في قلب هذه الممارسات ، والمحرك لتياراتها<sup>(٧٥)</sup> .

لقد عشنا حيناً من الدهر - وكثمرة من ثمرات الغفلة والغزو الفكري - نلقن أبناءنا في المدارس والجامعات ، أن من أسباب نهضاتنا وثوراتنا الحديثة ما أشاعتة مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون Wilson (توماس وودرو) [١٨٥٦ - ١٩٢٤م] - الذي حكم الولايات المتحدة الأمريكية مابين ١٩١٣ و ١٩٢١م .. ما أشاعتة مبادئه الأربع عشر من انتعاش حقوق الإنسان ، وخاصة في مجال حق الشعوب في « تقرير المصير » عقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى ..

لكتنا عندما نتأمل هذه المبادئ ، لا يصعب علينا أن نكتشف فيها عنصرية الرجل الأبيض ، وتمييزه العنصري لبني جلدته وحضارته عن غيرهم من ملوك الحضارات الأخرى ! .

١ - فهى مبادئ التقنيين لزحف الغرب القوى على مقدرات الشعوب الضعيفة .. وذلك عندما يدعى المبدأ الثالث منها إلى « إزالة الحواجز الاقتصادية بين الشعوب بقدر الإمكان » .

---

(٧٥) في أمريكا قام أستاذ القانون في جامعة ولاية إيفا بدراسة إحصائية لأحكام الإعدام الصادرة ضد كل من البيض والسود في ولاية جورجيا ، اتضح منها أن السود إذا قتلوا بيضاً فإن تعرضهم لحكم الإعدام يكون بنسبة إحدى عشرة مرة ، على حين تكون النسبة مرة واحدة إذا قتل البيض سوداً . انظر [ النشرة الإخبارية لمنظمة العفو الدولية ] يونيو ١٩٨٧ م .

ب - وهى مبادىء التمييز العنصرى بين الشعوب في « حق تقرير المصير » .. عندما تذكر هذا الحق صراحة وتعترف به بالنسبة للشعوب الأوروبية البيضاء .. فينص المبدأ التاسع على « تعديل حدود إيطاليا بما يتفق مع توزيع القوميات الإيطالية » .. وينص المبدأ العاشر على « تقسيم النمسا وال مجر تقسيماً يتفق مع توزيع قوميات الامبراطورية » .. وينص المبدأ الحادى عشر على « تعديل الحدود في شبه جزيرة البلقان بما يتفق مع الأوضاع التاريخية وتوزيع القوميات » .. فيقرر للقوميات الأوروبية حقوق أهلها في تقرير المصير وفق سماتها وسمات مكوناتها القومية ، وأوضاعها التاريخية .

إذا ما جاءت هذه « المبادىء » إلى الملونين ، وإلى وطن العروبة وعالم الإسلام ، على وجه الخصوص ، اختفى منها تعبير « تقرير المصير » ! .. ورأينا المبدأ الثاني عشر يقرر تصفية الخلافة العثمانية ، دون أن يذكر لشعوب هذه الخلافة أى حق في تقرير المصير .. فينص هذا « المبدأ » على « قصر حكم الأتراك على رعاعيا من جنسهم . وتقرير حرية الملاحة في مضيق الدردنيل » ! .. وذلك لأن إعلان هذه « المبادىء » قد تم في ذات الوقت الذى كان فيه الغرب يمهد الطريق لتقسيم ترکة « دولة الرجل المريض » بين قوى الغرب الاستعمارى .. فكان أن اعترفت هذه « المبادىء » للرجل الأبيض - كشعوب أوروبية - بحقها

في تقرير مصيرها بنفسها .. كما اعترفت للرجل الأبيض - كمستعمر غربى - « بحقه » في تقرير مصائر شعوبنا نحن ، رغمًا عنا ، وفي غيبة منا ! .. فقصروا حكم الأتراك على جنسهم التركى ، واقسموا العالم العربى وفق معاهدة « سىكس - بيكو » السرية التى عقدوها عام ١٩١٦ م .. وقررت الحركة الصهيونية - التى هى نبت غربى - مصير فلسطين العربية ، من خارجها ، ورغمًا عن شعبها ، وذلك وفق وعد بلفور Balfour [ ١٨٤٨ - ١٩٣٠ ] الذى أعلن في ٢ نوفمبر ١٩١٧ م ، والذى وافق عليه الرئيس الأمريكى - صاحب المبادىء - ويلسون ، قبل إعلانه ١٩ .. ثم وافقت عليه فرنسا في ١٤ نوفمبر ١٩١٨ م .. وإيطاليا في ٩ مايو ١٩١٨ م .. ثم وضعوه في الممارسة والتطبيق بواسطة الانتداب البريطانى ، الذى باركته « عصبة الأمم » التى أقاموها عام ١٩٢٠ م ! .

بل إن هذا الغرب لا يزال على هذا الموقف العنصرى من حق شعوبنا في تقرير المصير .. فكل صهيونى ، من أى جنس ووطن ولغة ، من حقه وفق القانون الصهيونى ، الذى تنفذه حراب الغرب ، أن يقرر الاستيطان بفلسطين فيقرر مصيرها ككيان للاستيطان الصهيونى .. في الوقت

الذى يقف فيه هذا الغرب ، حتى اليوم ، موقف العداء من حق الشعب العربى الفلسطينى فى تقرير المصير ! .

● وخصوصية ثانية لفكر الغرب وممارساته المتعلقة بحق الإنسان في حرية الاعتقاد وحرية الاعتقاد الدينى على وجه الخصوص .. وهى قضية تثير اللغط وعلامات الاستفهام حول موقف الإسلام منها . وخاصة أنها كانت سبب تحفظ بعض الحكومات الإسلامية على التوقيع على ميثاق « الإعلان العالمي لحقوق الإنسان » ، الأمر الذى جلب النقد والغمز واللمز على الإسلام وموقفه من حرية الاعتقاد الدينى ، وتحديداً من حق المسلم في تغيير دينه ، إن بالإلحاد أو باعتناق ديانة أخرى غير دين الإسلام ... وهى قضية ، إن صمت عن إثارتها البعض ، توهماً منهم ضعف موقف الإسلام والمسلمين إزاعها ، فلا يجوز للذين يدركون تألق موقف الإسلام وامتيازه <sup>بشكل</sup> إزاعها - وهو الحق الذى سنبه عليه - أن يقفوا حيالها صامتين ، في موقف لا يحسن فيه ولا عليه السكوت ! .

إن الإيمان بالدين - أى دين - يستحيل أن يتحصل بالإكراه ، لأن الإيمان هو : « تصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين » .. سيان تم ذلك بالنظر والاجتهاد والبرهنة والاستدلال ، أو بالتقليد .. والتصديق القلبى اليقينى ،

لا يمكن تحصيله وبلغه بالإكراه .. تلك خاصية للإيمان الديني ، يستوي فيها كل إيمان بكل دين .

وغير متصور من جميع الأديان السماوية ، يهودية ومسيحية ، وإسلاماً ، أن تدعو أصولها ومناهجها إلى استخدام الإكراه سبيلاً لاعتناقها والإيمان بها ، وذلك لاستحالة تحصيل الإيمان بواسطة الإكراه - كما قلنا - ولأن هذه الديانات قد جاءت معترفة بما سبقها من أديان .. فاليهودية يحكي كتابها قصص الأنبياء الذين سبقو موسى ، عليه السلام ، حكاية المعترف ببنوتهم ورسالتهم .. وفيما عدا مواطن التحرير في « العهد القديم » ، فإن الاحترام اللائق هو طابع حديث كتاب اليهودية عن الأنبياء والرسل السابقين .. وكذلك صنع إنجيل - أو أناجيل - المسيحية ، فلقد تضمنت عبارة المسيح ، عليه السلام ، التي تقول : ما جئت لأنقض الناموس - [ قوانين وشرائع اليهودية ] - بل لأنتممه .. وفي اعتراف الدين ، أى دين ، بما سبقه من ديانات وشرائع ، ما يدعوه ، ولا شك ، إلى إسقاط مبررات انفراد هذا الدين بالتدين الإنساني على النطاق العالمي ، فضلاً عن أن يكون الإكراه هو سبيل هذا الانفراد .

تلك خاصية عامة ، لابد وأن تشتراك فيها الأصول الصحيحة لشرع ومناهج كل الأديان .

لكن الممارسة والتطبيق هي التي ميزت بين الديانات السماوية الثلاثة في هذا الميدان .

فاليهود قد اتخذوا لأنفسهم منهاجاً شاذًاً وغريباً ، عندما تحولوا إلى « جيتو » ، يعكفون على ديانتهم ، ولا يدعون ، بل ولا يرغبون في نشرها بين الناس .. حتى لقد تحولت عقيدة التوحيد في فكرهم الديني إلى ما يشبه الوثنية ، عندما جعلوا الله الواحد إلههم وحدهم ، وجعلوا للشعوب الأخرى آلهتها الخاصة بها ! .. وهم بهذا المسلك الشاذ لم يعرف تاريخهم إكراههم الآخرين على التدين بدينهما ، خصوصاً وأنهم قد عاشوا مجرد أقلية طوال أغلب فترات التاريخ .

أما المسيحية ، فإن تاريخها هو الذي امتلا بالإكراه والاضطهاد للآخرين كى يدعوا ديانتهم ويدخلوا في ديانة المسيح .. بل وامتلا بالإكراه على التمذهب بواحد أو بأخر من المذاهب التي تنتسب جمياً لديانة المسيح ! .

والامر الذي يلفت الانتباه هو أن تاريخ الإكراه الديني في المجتمعات المسيحية ، هو « تاريخ غربى » ، ارتبط بالمجتمعات الغربية وبمنهج الحضارة الغربية على وجه الخصوص ! .. حتى لتوحى لنا هذه الحقيقة أنها « خصوصية حضارية غربية » ، لا علاقة لها بالأصول الأولى للمسيحية كما بشر بها عيسى ، عليه السلام ! .  
لقد كانت الدولة الرومانية ، على عهد وثنيتها ، تكره الذين

اعتنقوا المسيحية على الارتداد إلى الوثنية ، وتسخدم في ذلك كل سبل القهر والإكراه .. فلما تدينـت هذه الدولة المسيحيـين ظلت مناهج القهر والإكراه الـديـني قـائـمة وفـاعـلة ، مع تـغـير اتجـاهـ رـيـحـها ، فـغـدـتـ تـُـكـرـهـ غيرـ المـسـيـحـيـةـ عـلـىـ اـعـتـنـاقـ دـيـنـ المـسـيـحـ ! .

ولقد استمرـ هذاـ الإـكـراهـ وـالـقـهـرـ ،ـ فـرـبـوـعـ الـحـضـارـةـ الـغـرـبـيـةـ ،ـ وـامـتـدـادـاتـهاـ ،ـ طـوـالـ تـارـيـخـهاـ ،ـ سـُـنـنـةـ سـيـئـةـ مـرـعـيـةـ وـمـتـبـعـةـ إـلـىـ حدـ كـبـيرـ ..ـ وـيـكـفـىـ أـنـ نـطـالـعـ مـرـجـعـاـ عـلـمـيـاـ وـاحـدـاـ ،ـ كـتـبـهـ مـسـتـشـرـقـ مـنـصـفـ هوـ «ـ سـيـرـ تـوـمـاـسـ .ـ وـ أـرـنـوـلـدـ »ـ ،ـ لـنـرـىـ تـلـكـ الـقـسـمـةـ وـالـخـصـوـصـيـةـ الـحـضـارـيـةـ الـغـرـبـيـةـ ،ـ تـقـابـلـهاـ وـتـنـاقـضـهاـ سـمـاـحةـ الـإـسـلـامـ وـحـضـارـتـهـ إـزـاءـ الـدـيـانـاتـ الـأـخـرـىـ وـأـهـلـهـاـ ،ـ وـرـفـضـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ سـلـوكـ الإـكـراهـ طـرـيـقـاـ إـلـىـ الـإـيمـانـ ! .

فـشـارـلـانـ - [ـ ٧٤٢ـ - ٨١٤ـ مـ] - فـرـضـ المـسـيـحـيـةـ عـلـىـ السـكـسـوـنـيـنـ بـحـدـ السـيـفـ ..ـ وـفـيـ الدـانـمـرـكـ اـسـتـأـصـلـ الـمـلـكـ كـنـوـتـ Cnutـ الـدـيـانـاتـ غـيـرـ المـسـيـحـيـةـ مـنـ بـلـادـهـ بـالـقـوـةـ وـالـإـرـهـابـ ...ـ وـفـيـ بـرـوـسـيـاـ فـرـضـتـ جـمـاعـةـ إـخـوـانـ السـيـفـ وـالـنـارـ ..ـ وـفـيـ لـيـقـوـنـيـاـ فـرـضـ فـرـسـانـ Drdo Fratrum Militiaeـ الـمـسـيـحـيـةـ عـلـىـ الشـعـبـ فـرـضاـ ..ـ وـفـيـ جـنـوبـ النـروـيجـ ذـبـحـ الـمـلـكـ أـلـافـ تـرـاـيـجـفـيـسـونـ كـلـ مـنـ أـبـيـ اـعـتـنـاقـ الـمـسـيـحـيـةـ ،ـ أـوـ

قطع أيديهم وأرجلهم ونفاهم وشدهم ، حتى انفردت المسيحية بالبلاد .. وفي روسيا فرض فلاديمير Vladimir عام ٩٨٨ م المسيحية على كل الروس ، سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، غداة اعتناقه لها .. ولم يعترف فيها بإمكانية تعدد الأديان إلا في مرسوم صدر عام ١٩٠٥ م ! ... وفي الجبل الأسود - بالبلقان - قاد الأسقف الحاكم دانيال بيتروفيتش D.Petrovich عملية ذبح غير المسيحيين - بمن فيهم من المسلمين - ليلة عيد الميلاد عام ١٧٠٣ م ... وفي المجر أرغم الملك شارل روبرت غير المسيحيين على التنصير أو النفي من البلاد عام ١٣٤٠ م ... وفي أسبانيا - قبل الفتح العربي - كان المجمع السادس ، في طليطلة ، قد حرم كل المذاهب غير المذهب الكاثوليكي .. وأقسم الملوك على تنفيذ هذا القانون بالقوة .. » .

وحيثما امتد نفوذ ونهج الحضارة الغربية هذا ، شهد التاريخ هذا القهر والإكراه والاضطهاد .. « فاليعاقبة ، في مصر والشرق ، اضطهدهم الأرثوذكس الملكانيون ، بالقتل والنفي والتشريد .. وقتل جستنيان الأول [ ٥٦٥ - ٥٢٧ م ] مائتي ألف من القبط في مدينة الإسكندرية وحدها ، حتى اضطر من نجا من القتل إلى الهرب في الصحراء ... وفي أنطاكية حدث نفس القهر والاضطهاد لغير المسيحيين ، ولعنتهم غير مذهب الدولة الرومانية من المسيحيين ! ... وفي

الحبشة قضى الملك سيف أرعد [ ١٣٤٢ - ١٣٧٠ م ] بإعدام كل من أبى الدخول في المسيحية أو نفيهم من البلاد .. وصنع ذلك الملك چون في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى ! .. « ناهيك عن مأساة مسلمى الأندلس على يد فرديناندو إيزابيلا ! .

لقد سنت الحضارة الغربية سُنَّة الإِكْرَاه في الدين ، واتخذت القهر - في أبشع صوره - سبِيلًا لانفراد المسيحية بساحة التدين ، بل وانفراد مذهب واحد من مذاهبها بعقائد الذين أكرهوا على « الإيمان » ! .. وكان شعارها كلمات « الوصية » المنسوبة إلى القديس لويس ، والتى تقول : « عندما يسمع الرجل العami أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها ، فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه ، الذي يجب أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء » !<sup>(٧٦)</sup>

فنحن ، إذن ، أمام « خصوصية غربية » ، اعتمدت سبيل القهر والإِكْرَاه لتوحيد المعتقد والمذهب الديني ،

---

(٧٦) انظر : أرنولد [ الدعوة إلى الإسلام ] ص ٣٠-٣٢ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ١٢٢ ، ١٢٤ - ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٤ - ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٧٦ . ترجمة د . حسن إبراهيم حسن ، د . عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة ، الثالثة عام ١٩٧٠ م .

حتى لقد خلت مواطنها المسيحية من الأقلية الدينية ،  
التي هي شهادة التسامح والتعايش بين الديانات .  
أما حضارتنا العربية الإسلامية فإنها سلكت طريقاً آخر في  
هذا الميدان .

\* \* \*

لم ينطلق الإسلام إلى رفض الإكراه الديني من مجرد  
« التسامح » مع الغير ، والعزوف عن « إيداء وجдан »  
الآخرين بهذا الإكراه .. وإنما كان المنطلق الإسلامي في هذا  
الموقف والمبدأ والمنهج هو « بداعه المنطق » و « الواقعية  
الحاكمة » .. فمحال أن يكون الإكراه سبيلاً إلى تحصيل  
« الإيمان » ، الذي هو تصديق بالقلب يبلغ درجة اليقين ..  
 فهو قد يثمر « نفاقاً ومنافقين » ، لكنه لا يمكن أن يثمر  
« إيماناً ومؤمنين » بأى حال من الأحوال ..

وواقع العقل الإنساني ، وخبرة المسيرة الإنسانية مع الفكر  
والاعتقاد ، النابعة من الطبيعة الإنسانية قد أكدت وتأكدت  
استحالة صب الناس ، كل الناس ، في قلب واحد ونهج  
فرد .. فهناك ما يجتمعون عليه وفيه ، وهناك ما به وفيه  
يتميزون ويتمايزون .. فالوحدة المطلقة قسر وإكراه ، تتنافى مع  
الطبيعة والواقع الحاكم .. وإذا كانت التعددية هي الطبيعة  
فلا بد وأن يكون سبيلاً الحرية والاختيار .

من هذا المنطلق والمبداً ومن هذه الفلسفة اتخذ الإسلام سبيلاً إلى رفض الإكراه في الدين - فقُنْ بذلك رفض الإكراه في الفكر بإطلاقه ! .. فتوالت في كتابه الجامع وقرآنـه الكريم الآيات المحكمـات البـينـات ..

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ ﴾ ... (٧٧)

﴿ قَالَ يَقُولُ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَقِنَّةٍ مِّنْ رَّبِّي وَإِنَّ السَّمَّى رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُيِّنْتَ عَلَيْكُمْ أَذْنِيْمَكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَفِرْهُونَ ﴾ .. (٧٨)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .. (٧٩)

وـقـاعـدة «ـالـتـعـدـدـيـةـ»ـ الفـكـرـيـةـ ،ـ التـىـ رـأـهـاـ إـلـاسـلـامـ «ـطـبـيـعـةـ إـنـسـانـيـةـ»ـ ،ـ وـسـنـةـ مـنـ سـنـنـ اللهـ فـيـ إـلـاسـنـانـ ،ـ لـمـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ إـلـاسـلـامـ نـظـرـتـهـ إـلـىـ «ـالـوـاقـعـ -ـ الـمـدـانـ»ـ ،ـ إـنـماـ رـأـهـاـ «ـ وـاقـعـاـ طـبـيـعـاـ»ـ ..ـ فـقـىـ إـطـارـ إـلـيـمـانـ الـدـيـنـيـ هـنـاكـ جـامـعـ يـجـمـعـ

. ٢٥٦ (البقرة : ٢٥٦)

. ٢٨ (هود : ٢٨)

. ٩٩ (يونس : ٩٩)

الإنسانية المؤمنة بحكم الفطرة السليمة ، وهذا الجامع يتمثل في أصول الإيمان بثوابت ثلاثة : توحيد الله .. والاعتقاد بالبعث والجزاء ، كى لا تكون الحياة عبثاً .. والعمل الصالح ، كمعيار لتمييز ، الأبرار من الفجار ..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِرِينَ مِنْ أَمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُجُونَ ﴾ (٨٠) ﴿

فـ هذا الإطار تمثل وحدة دين الله ، سبحانه وتعالى ، أولاً وأبداً .. فالدين عند الله الإسلام .. أى الطاعة في عبودية الإنسان لله عندما يفرده بال神性 الواحدة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إن ذات الدين عند الله : الحنفية المسلمة ، لا اليهودية ولا النصرانية ، من يعمل خيراً فلن يكفره » (٨١) .. وفي هذا الجامع جاء القرآن الكريم مصدقاً لما حمله الرسل السابقون لرسولنا من ذات الدين

﴿ وَإِمَّا مَنْ زَلَّتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ (٨٢)

، وكذلك كان رسولنا ﷺ :

(٨٠) البقرة : ٦٢ .

(٨١) رواه الترمذى .

(٨٢) البقرة : ٤١ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾<sup>(٨٣)</sup>

فالوحدة في الدين ، الجامعة لجوهر الإيمان ، قائمة عبر رسالات كل المرسلين

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الَّدِينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا أَوْصَيْنَا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تُنَزِّفُوا فِيهِ كُبُرًا عَلَى الْمُسَرِّكِينَ مَا لَدُعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَنِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾<sup>(٨٤)</sup>

وإذا كان هذا هو جامع الإيمان ، المميز له عن الشرك ، وإذا كانت هذه هي أصول الدين الإلهي الواحد .. فلقد اقتضت معرفة الخالق بخلقه أن تكون التعددية في الشرائع والمناهج والسبيل ، هي سنته في خلقه ، مراعاة للتمايز الإنساني ، والحرية الفكرية ، وإعمالاً لأمانة المسؤولية التي حملها الإنسان .. فكما أن دين الله واحد ، أزلًا وأبدًا ، فإن التعددية في الشرائع لدى أمم الرسالات ، هي سنته الله كذلك ، أزلًا وأبدًا .. والقرآن الكريم ، بعد أن يحكي نبأ الكتب التي سبقته من التوراة والإنجيل . وكيف أنه يدعو اليهود إلى الاحتكام إلى التوراة .

١٠١) البقرة : ٨٣ .

١٣) الشورى : ٨٤ .

﴿ وَعِنْهُمُ الْتَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ .. (٨٥)

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْتَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الْنَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ وَأَلْرَبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ يَمَا أَسْتُحْفِظُوْا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شَهِدَاءَ فَلَاتَخْشُو الْكَاسَرَ وَأَخْشُونَ وَلَا تَشْرُوْا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ ﴾ .. (٨٦)

كما يدعو النصارى إلى الاحتكام إلى الإنجيل

﴿ وَقَيْنَانَ عَلَىٰ إِثْرِهِمْ بْنِ مَرْيَمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَمَا أَتَيْنَاهُ إِلَّا نُنْهِيَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .. وَلَيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ (٨٧) وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِّقُونَ ﴾ ..

نراه يدعو المسلمين إلى الاحتكام إلى القرآن الكريم

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَهِمِّنَا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ .. (٨٨)

٤٣ . (٨٥) المائدة :

٤٤ . (٨٦) المائدة :

٤٦ ، ٤٧ . (٨٧) المائدة :

٤٨ . (٨٨) المائدة :

بعد حديث هذه الآيات عن منطلقات التعددية في الشرائع - مع وحدة الدين - يأتي التوكيد القرآني على أن التعددية هي في إطار الإيمان الواحد بالدين الواحد، أي أنها الإقرار بستة الله في تعدد الشرائع أولاً وأبداً، فتختفي الآية لتقول :

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرَعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا أَنْتُمْ كُفَّارٌ فَاسْتَقِوْا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَيِّسُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ٤٨﴾

وعندما وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات ، نبهوا على تقيينها للتعددية في الشرائع ، فقالوا : إنها إرادة الله وحكمه « .. فالشريعة والشريعة : الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة .. ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلهما ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا في الشرائع والعبادات . والأصل : التوحيد لا خلاف فيه .. ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ : أي لجعل شريعتكم واحدة ﴿ ولكن ليبلوكم فيها أنتم﴾ .. أي ولكن جعل شرائعكم مختلفة ليختبركم ، والابتلاء : الاختبار ! .. ﴿<sup>٩٠</sup>﴾ .

٤٨) المائدة ٤٨ .

(٩٠) القرطبي [ الجامع لاحكام القرآن ] جـ ١ ص ٢١١ . طبعة الكتب المصرية .  
القاهرة .

بل لقد زادوا هذا المعنى جلاء وتأكيداً ، وتحدثوا عن أن سنته الله وحكمته في خلقه هي اختلافهم في الشرائع ، وتعديتهم فيها ، التي هي آية الحرية والتجسيد لها .. فقالوا وهم يفسرون قول الله سبحانه :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَّاَيْدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (٩١)

.. فيما روى عن سعيد بن جبير [ ٤٥ - ٩٥ هـ - ٦٦٥ - ٧١٤ م ] : إن المراد بالأمة الواحدة : « ملة الإسلام وحدها » أي شريعة الإسلام وحدها .. وفيما روى عن مجاهد بن جبر المكي [ ٢١ - ١٠٤ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٢ م ] وقتادة بن دعامة السدوسي [ ٦١ - ١١٨ هـ - ٦٧٩ م - ٧٣٦ م ] من تفسيرهما **﴿وَلَا يَرَوْنَ مُخْلِفِينَ﴾** بحتمية بقاء الناس « على أديان - أي شرائع - شتى » .. أما الحسن البصري [ ٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م ] ومقاتل بن سليمان [ ١٥٠ هـ - ٧٦١ م ] وعطاء بن دينار [ ١٢٦ هـ - ٧٤٤ م ] فلقد فسروا قوله سبحانه : **﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾** فقالوا : إن « الإشارة للاختلاف ، أي وللخلاف خلتهم » (٩٢) .

(٩١) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٩٢) [ الجامع لاحكام القرآن ] ج ٩ ص ١١٤ ، ١١٥ .

فإذا كان الناموس الإلهي ، هو التعددية والاختلاف في الشرائع والمناهج .. وإذا كان « الإيمان » و « الإكراه » نقىضان لا يجتمعان .. فأى دين بلغ ويبلغ ما بلغه الإسلام في الانتصار لحرية الفكر والضمير بالنسبة للإنسان ، لا ك مجرد « حق » من الحقوق ، وإنما كبداهة فطرية ، وفلسفة الواقع الطبيعي ، التي لا تستقيم بدونها الأمور ! .

\* \* \*

ويزيد من أصالة وعمق وجلاء موقف الإسلام من هذه القضية ، أن موقفه هذا لم يكن مجرد فكر نظري .. بل لقد وضع الإسلام هذا الموقف في الممارسة والتطبيق ، منذ أن أقام رسوله ﷺ والهاجرون والأنصار دولته الأولى بالمدينة عقب الهجرة إليها .. فلم تكن رعية هذه الدولة مقصورة على المؤمنين بالإسلام ، وإنما شملت العرب المتهودين ، فنص دستورها - [الصحيفة - الكتاب] على التعددية في دين الرعية ، وعلى المساواة التي لن تضار بهذه التعددية .. فالجماعة المسلمة « أمة واحدة من دون الناس » ، أى أمة الإسلام الدين .. وهم مع مواطنיהם من العرب المتهودين ، يكونون أمة السياسة ورعاية الدولة ، المتساوية في الحقوق والواجبات .. « ويهدى أمة مع المؤمنين .. وبينهم جميعاً

الذصح والنصيحة والبر دون الإثم والنصر على من حارب أهل  
هذا » الدستور ! (٩٣).

ثم استمر هذا الموقف الإسلامي قائماً ونافذاً في واقع المسلمين عبر تاريخهم السياسي والحضاري .. بل لقد اتّخذ أبعاداً أوسع وأفقاً أرحب ، عندما تمت الفتوح ، فأدخل فقهاء الإسلام في إطار التعددية المنشورة أهل ديانات لم تكن موجودة في شبه الجزيرة على عهد دولة الرسول ﷺ فاعتبروا المجوس الزرادشتين وديانات شرق آسيا - في الهند والصين - ديانات كتابية ، أو مماثلة لديانات وشرائع الكتابيين ! .. فترسخت « خصوصية التعددية » في الحضارة العربية الإسلامية ، فكراً وتطبيقاً .. وارتقت شواهدها ممثلاً في بقاء واستمرار أهل الديانات والشرائع الأخرى على عقائدهم ، أمميين على شرائعهم وشعائرهم ، وأنفسهم وأموالهم ومؤسساتهم الدينية .. يجادلون المسلمين في الدين ، بمجالس الخلفاء والعلماء والسراة والولاة ، ويسيهمون جمِيعاً في بناء الحضارة الجديدة التي جمعت في نسيجها الحديث مواريثهم الصالحة للإحياء مع فكر الإسلام الجديد .. فلم تقف التعددية والحرية فيها ، فقط ، عند حدود السماح لهم « بالوجود المتميز » ، بل جعلتهم بناء في صرح الحضارة

---

(٩٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٥ - ٢١ .  
جعها وحققها : د . محمد حميد الله الحيدر أبادى . طبعة القاهرة عام ١٩٥٦ م .

الجديدة ، فتجسدت ، حتى في ميدان الحضارة ، قاعدة : الوحدة مع التمييز ، تلك التي أرساها القرآن في ميدان الشرائع والدين .

وقرأنا شهادات الفكر التي كتبها جمهرة من المستشرقين - غير المسلمين - .. والتي أرجعت تحول الناس عن عقائدهم القديمة إلى الدخول في الإسلام أفواجاً .. التي أرجعت هذا التحول إلى الاقتناع الحر ، المبرأ من الإكراه ، والذي لعبت فيه بساطة العقيدة الإسلامية ، مع فساد المؤسسات الكنسية ، وتشوه عقائدها بالهلينية ، الدور الرائد .. فعندما عجزت عقائد الكنيسة عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقي البسيط ، لما غرقت فيه هذه العقائد من أسرار وتعقيدات فقدتها طبيعتها التوحيدية ، كانت عقيدة التوحيد الإسلامية ، التي بلغت في التنزيه والتجريد القمة ، جاهزة لتلبية احتياجات هذا الإنسان .. وعندما فسدت المؤسسات الكنسية ، كان الإسلام الخالى من الكهانة والكهنوت مركز جذب لا يقاوم .. فدخل الناس في دين الله أفواجاً ، بعد أن جاء نصر الله والفتح ، دونما ضغط ولا إكراه .. وكما يقول كيتانى « Caetani » : « فإن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستثناء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي . أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار

الواضحة البسيطة ، فقد كانت الثقافة الهلينية وبalla عليه من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويسة ، مليئة بالشكوك والشبهات ، فادى ذلك إلى خلق شعور من اليأس ، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزييف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتنزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبى العرب ! .. « لقد أقبل الناس على الإسلام - الذى راوه .. كما يقول مونتى : « عقلانى الجوهر ، بأوسع معانى هذه الكلمة » .. أقبلوا عليه « دون أية محاولة للإرغام والاضطهاد » - كما يقول « أرنولد » ، في كتابه [ الدعوة إلى الإسلام ]<sup>(٩٤)</sup> .

---

(٩٤) [ الدعوة إلى الإسلام ] ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ٤٥٥ ، ٩٩ .

لقد تجسدت على أرض واقعنا الحضاري هذه الخصوصية الحضارية : « مشروعية التعددية ، القائمة على الحرية ونفي الإكراه » .. كما تجسد نقايضها في مسيرة الغرب عندما تدين ، وثنية أو مسيحية كان ذلك الدين .. وبلغ شأن هذا التميز حداً صاغه القصص الغربي أسطورة تروى إبان حروب الأتراك العثمانيين مع المجريين .. وتقول : لقد سأله « چورچ برانکووتش » القائد المجري « هنريادي » :

- ماذا تصنع لو انتصرت على المسلمين ؟
- فقال : أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية » .
- ثم بحث عن السلطان العثماني ، وسأله :
- ماذا تصنع لدينا لو انتصرت ؟ .
- فأجاب : « أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحرية لكل فرد أن يصل إلى أيهما شاء » !<sup>(٩٥)</sup> .

\* \* \*

لكن .. إذا كان هذا الأمر كذلك .. وكانت خصوصيتنا الحضارية هي حرية الضمير ، والاختيار في المعتقد ، والتعددية هي الأصل والحكمة وسنة الله التي لا تتحول في خلق الإنسان ... وإذا كانت خصوصية الغرب ، في هذا

---

(٩٥) المرجع السابق . ص ٢٢٣ .

الأمر ، على النقيض - الذى روينا منه طرفا - .. فكيف آل الأمر إلى « مزايدة » الغرب علينا في ميدان الحرية وحق الإنسان في اختيار الاعتقاد ؟ .. هل انقلب الوضع ، وتبدلت مواقع الفرقاء !؟ .

نحن لا ننكر أن الإنسان المسلم ، في واقعه الراهن ، يعيش مأساة الافتقار إلى الحدود الدنيا التي قررها له الإسلام فرائض وواجبات - لامجرد « حقوق » - في ميادين السياسة والمجتمع والاقتصاد والتفكير .. لكن هذه القضية ليست مجال بحثنا في هذه الصفحات<sup>(٩٦)</sup> .. وإنما نحن نريد أن نبحث عما يميز الخطاب الأبيض من الأسود في دعوى الغرب نكوننا نحن عن حق الإنسان وحريته في الاعتقاد الديني ؟ .. لنتبين الحق فنميزه من الباطل في مقام الغموض واللهم الذي يوجه إلى الإسلام والمسلمين عندما يكون الحديث عن « الإعلان العالمي لحقوق الإنسان » ! .

وإذا نحن أردنا تشخيصاً دقيقاً للدعوى ، فإننا نقول : إنهم لا يدعون أن الإسلام يُكره الآخرين على تغيير الدين والمعتقد الديني .. ولكن دعواهم أنه يكره الذات ، ذات المسلم ، على عدم تغيير عقيدتها الإسلامية ، فيحرمها

---

(٩٦) انظر كتابنا [ الإسلام وحقوق الإنسان .. ضرورات لا حقوق ] طبعة الكويت - عالم المعرفة - عام ١٩٨٥ م . ففيه وفاء بهذا البحث الهام .

من حرية وحق الإنسان في تغيير دينه إن هو أراد ،  
وإلا وقع تحت حد « الردة » .. فالإكراه الذى يتحدثون  
عنه هو « إكراه الذات » على أن لا ترتد عن دين  
الإسلام .

وعلينا - بمنطق الإسلام - أن ننظر هذا الأمر - أمر  
ما يسمونه « حق الإنسان في الارتداد عن دينه » - لترى أين  
الحق وأين الباطل في هذا الادعاء .

إن النظرة الإسلامية ، التي بلغت ما بلغت في تقدس  
حرية الضمير والاعتقاد ، لتأسيس الإيمان على هذه الحرية  
- كتصديق بالقلب يبلغ مرتبة اليقين - ولاستحالة تتحققه بغير  
هذه الحرية تفرق - هذه النظرة الإسلامية - بين ما يمكن  
أن نسميه « الشك والوسوسة » ، كعارض ذاتي ، قد  
يصاب به إنسان ما ، نتيجة للتأمل والنظر ، أو فقدان  
العلم والدليل ، أو بسببهما معا .. وبين الدعوة إلى طرح  
الإيمان جانباً ، وعلى النطاق العام ، من قبل هؤلاء الذين  
يصبّب « الشك » معتقدهم الديني فيقودهم إلى الكفر  
والإلحاد .

فلو أن « زيداً » من الناس ، عرضت له « الوساوس  
والشكوك » في أصل الإيمان الديني ، فقاده ذلك - والعياذ  
بماه - إلى الإلحاد .. فإن الإسلام يطلب من هذا « الشك »  
أن ينظر إلى حالته « كعارض مرضي » ، يجب أن يطلب له

العلاج .. فعليه أن يبحث عن سبل الهدایة ، ويطلبها من جميع مظانها ، لدى العلماء وفي بطون الكتب ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ودون تهاون أو تقصير .. ثم إن عليه أن يستر حالته هذه ، فلا يشيعها بين الناس ، فمثلاً كمثل العورة ، يبحث لها العاقل عما يسترها ، لا ان يعرضها على الجمھور فيشيع الفاحشة بين الناس ! .

وإذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، لا يكلف نفساً إلا وسعها .. فليس مطلوباً من « الشاك » ، الذي لم يقصر في طلب الهدایة ، أن يكون كالمؤمن سواء بسواء .. فما دام مفتراً إلى التصديق القلبي اليقيني ، فطلب الإيمان منه لن يفضي إلا إلى الحصول على حالة من حالات « النفاق » ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ! .

والسؤال هو : ماذا إذا التمس « الشاك » ، الذي قاده الشك إلى « الإلحاد » ، كل سبل الهدایة المستطاعة ، فلم يطمئن قلبه بالإيمان .. ومات دون أن يبلغ في الإيمان مرتبة اليقين ؟ هنا - في تقديرنا - وبناء على قاعدة « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » ، واستحالة التكليف بما لا يطاق في الإسلام - وطالما أنه قد بذل وسعه ، وستر أمره ، ولم يشيع هذه الفاحشة . والحالة المرضية .. فإن معاملته الدنيوية تكون كمعاملة كاملى الإسلام .. أما

حسابه الآخرى فموكول إلى الله .. ولقد قال فقهاء كثيرون - انتطلاقاً من قاعدة : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها - بأنه عند الله من الناجين .. لأنه ما كان مستطيعاً أن يكون مؤمناً حقيقياً ! .<sup>(٩٧)</sup>

إذن ، فالشاك ، نتيجة للتأمل والنظر ، إذا قاده هذا الشك إلى الإلحاد بدلاً من الإيمان .. لا تثريب عليه ، إسلامياً ، إن هو لم يقصر في طلب الهدایة والرشاد ، طالما أنه قد ستر « عورة الإلحاد » كى لا تشيع فاحشتها في مجتمع المؤمنين .

فليس ، إذن ، في هذا المنطق الإسلامي ، وال موقف الإسلامي « إكراه للذات » على الإيمان القسرى .. لأن هذا « الإكراه » تكليف بما لا يطاق يرفضه الإسلام - ثم هو طلب « للتفاق » ، إذ لا يحقق جوهر « الإيمان » كما يعرفه الإسلام ! .

أما إذا كان « الإلحاد » فكراً ورسالة يدعو إليها المخدون ويشيعونها بين الناس .. فتلك قضية أخرى ، تتجاوز نطاق « حرية الاعتقاد » إلى العمل على تدمير « النظام العام » في المجتمع الإسلامي .. إذ الإيمان واحد

---

(٩٧) يقول الإمام محمد عبده : « قال قائلون من أهل السنة : إن الذي يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ، ثم لم يصل إليه ، ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهو ناج . » انظر [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص ٢٨٢ .

من أبرز سمات هذا النظام ، لما يمثله من رباط انتماء ، وعامل وحدة وتأليف ، وأيديولوجية أمة ، فضلاً عن كونه كمال فطرة العقل الراسد السليم .. هنا يصبح النشاط الداعي إلى الإلحاد خروجاً على « النظام العام » ، ومحاولة لتدميره ، يدخل في باب « الحرابة » ، المستهدفة لفساد الدنيا والدولة بفساد الدين ! .

وحتى نلمس جلياً تمييز الإسلام بين هاتين الحالتين من حالات الإلحاد والملحدين ، فإننا ندعو إلى تأمل عدد من الحقائق الماثلة في إطار الأدلة المرجعية في الإسلام حول هذا الموضوع ، وذلك من مثل :

١ - خلو الآيات القرآنية التي تتحدث عن الردة من ذكر عقوبة القتل - بعد الاستتابة - كحد لها .. لماذا ؟ ! :

لأن هذه الآيات القرآنية كانت تتحدث عن « ردة النفاق والمنافقين » .. فهى ردة ذاتية وسرية غير معلنة ، يظهر أهلها الإسلام في مجتمع المدينة على عهد الرسول ﷺ .. فهى ، في الحقيقة ، « زندقة » .. وكما يقول الإمام الشافعى [ ١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م ] « فإن الزنديق هو الذى يسر الكفر ويظهر الإيمان .. » ولقد عبر الإمام مالك عن ذات المعنى في قوله : « إن النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فيما اليوم »<sup>(٩٨)</sup> .. وهؤلاء المنافقون ، الزنادقة ، الذين أسروا الكفر

---

(٩٨) [ الجامع لاحكام القرآن ] ج ١ ص ١٩٩ .

وأظهروا الإيمان ، ولم يدعوا غيرهم إلى زندقتهم ، ولم يظهروا  
فيشيّعواها بين الناس ، عوملوا معاملة المسلمين ، وترك حسابهم  
الأخرى إلى الله .. فخلت آيات القرآن التي تحدث عنهم ، والتي  
استخدمت مصطلح « الردة » في وصف حالهم ، من  
الردة ، القتل بعد الاستتابة  
تقرير عقوبة

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَيَمْتَهِنَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَيَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ ﴾ ٢١٧ (٩٩) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخِدُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْ لِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْ لِيَاءَ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَرَّقَ اللَّهُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ يُسَرِّعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَأْبُرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَذِيرٌ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَلَّكُمْ حَيَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِيرِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِهِمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَا يَمِيزُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ  
﴿١٠٠﴾ (١٠٠)

.. فهم قوم يسرون موالة أعداء الإسلام ..  
في الوقت الذي يظهرون فيه موالة المسلمين .. بل  
لقد ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَهْمَّهُمْ لِأَهْمَّهُمْ﴾ مع المسلمين ! ....  
﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَى أَذْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيْنَ لَهُمُ الْهَدَىٰ  
الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَأَ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتُلُوا لِلَّذِينَ  
كَرِهُوا مَا نَزَّلَكَ اللَّهُ سَنُطْبِعُ عَلَيْكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
إِسْرَارَهُمْ﴾ (١٠١)

.. فهم يعيشون في إطار الأمة الإسلامية والمجتمع  
الإسلامي والدولة الإسلامية ، لكنهم قد ارتدوا عن  
كامل الولاء والموالاة للجماعة والأمة الإسلامية ، فأطاعوا  
الاعداء [ في بعض الأمر ] سرًا ؟ ! ..  
وعن هؤلاء الزنادقة المنافقين ، الذين لم يعلموا ردتهم ، ولم  
يشيعوا فاحشتها ، والذين - لذلك الإسرار - لم تنص الآيات

(١٠٠) المائدة : ٥١ - ٥٤ .

(١٠١) محمد : ٢٥ ، ٢٦ .

التي تحدثت عنهم - بلفظ الردة - على عقوبة الردة في حقهم ..  
 عنهم يقول الإمام ابن جرير الطبرى [ ٢٤ - ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م ] : « لقد جعل الله الأحكام بين عباده على  
 الظاهر ، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس  
 لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ، لأنه حكم بالظنون ، ولو كان  
 ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ وقد حكم  
 للمنافقين بحكم الإسلام بما أظهروا ، ووكل سرائرهم  
 إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم في قوله :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشَهِّدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَذِبُونَ ﴾  
 (١٠٣) . . . (١٠٢) . . .

فمن ستر في الدنيا ، ستر الله عليه فيها ! .  
 ٢ - وهؤلاء « الشكاك » الذين أصابتهم الوساوس فزعزعت  
 قواعد إيمانهم .. إذا هم التمسوا سبل الهداية وأدلة اليقين  
 لدى العلماء ، لا يعد شيء من سعيهم هذا ، وحوارهم مع  
 العلماء ، إظهاراً للإلحاد وإشاعة للشكوك والwsaos ،  
 يستوجب الاستتابة وإقامة حد الردة عليهم .. بل إنه سعى  
 يدعو إليه الإسلام ويأمر به الله .. وقد رأينا في عهد رسول  
 الله ﷺ حال ذلك التفر من الصحابة الذين أصابهم شيء من

(١٠٢) المنافقون : ١ .

(١٠٣) [ الجامع لاحكام القرآن ] جـ ١ ص ٢٠٠ .

ذلك ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون ويلتمسون سبل الهدایة واليقین .. وحدثوه عما عرض ليقينهم من زلزال جعلهم يبلغون حالاً قالوا إنهم يتعاظمون أن ينطق به لسانهم ، فأهون عليهم أن يلقوا في النار من أن يتلفظوا به - وما نراه إلا الإلحاد ! - فتلقاهم الرسول ﷺ لقاء البشير ، وحدثهم عن أن شك البحث عن الحقيقة هو الطريق الآمن إلى اليقين ! .. لقد قالوا له - فيما يرويه أبو هريرة - : « يا رسول الله ، إن أحدهنا يحدث نفسه بالشيء ما يحب أن يتكلم به وإن له ما على الأرض من شيء .. وإننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدهنا أن يتكلم به ! » ... فكان جوابه ﷺ : « وقد وجدتموه ؟ ! » .. قالوا : نعم .. فقال : « ذاك صريح الإيمان .. ذاك محضر الإيمان ! ..»<sup>(١٠٤)</sup> .

لقد حدثوا أنفسهم بهذا الذي عرض لهم .. ثم ذهبوا يطلبون سبل الرشاد واليقين .. فلم يقل أحد إنهم قد أعلنا شکهم أو أشاعوا وساوسهم حتى تقام عليهم العقوبات ! . ٣ - أما الردة التي يقام الحد على مرتکبها ، فإنها أشبه ما تكون بجريمة « الحرابة » ، التي هي محادة الله ولرسوله ولجماعة المؤمنين .. إنها إعلان الحرب على الإيمان ، كنظام للاجتماع الإسلامي ، تجعل من المرتدين

(١٠٤) حدیثان ، روی أحدهما مسلم ، روی الثاني الإمام احمد .

معول هدم للنظام الإسلامي ! .. وليس سراً ولا هو مما تخفي دلالته أن الفقهاء الذين قرروا للردة حداً - هو القتل بعد الاستئبة - قد استندوا إلى الحديث النبوى ، لا إلى القرآن .. وأن الحديث الذى استندوا إليه لا يدع مجالاً للشك في أن هذا هو معنى الردة التى تستحق هذا العقاب ، لأنها إعلان وإشاعة للفاحشة ، ومحاربة للامة ، والتحاق بمعسكر العدو في ظل ملابسات الصراع ومخاطره .. ففيها مفارقة للجماعة المؤمنة ، ودعم لمعسكر الأعداء ... « فعن عبد الله بن عمر ، قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : والذى لا إله غيره ، لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلات : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .. » (١٠٥)

وهناك حديث عن الرجل المتألق ، الذى كان يزييف في كتابة القرآن .. فبدلأ من أن يكتب غفوراً رحيمأ ، يكتب : عليماً حكيمأ .. وهكذا .. ثم لحق بالشركين ، فاستحق لقب المرتد وحكم الردة (١٠٦) ... وحديث الذين ارتدوا كفاراً بلاحقهم

(١٠٥) رواه الإمام أحمد .

(١٠٦) رواه الإمام أحمد وابن ماجة والترمذى والنسائى .

بالمشركين « فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل » يوم بدر - كما رواه ابن عباس .<sup>(١٠٧)</sup>

ولعلنا نلمح معنى ومغزى لمحىء « باب الردة » في كتب الفقه الإسلامي عقب « كتاب الحرابة » .. ولقول بعض الفقهاء إن آية الحرابة « إِنَّمَا جَزَّأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا »<sup>(١٠٨)</sup>

إنما « نزلت في النفر الذين ارتدوا في زمن النبي ﷺ واستاقوا الإبل ، فامر بهم رسول الله ﷺ فقطعت أرجلهم وأيديهم وسملت أعينهم ..<sup>(١٠٩)</sup> » جزاء ردتهم وحرابتهم وقتلهم لنفر من الصحابة غرداً ..

ونلمح كذلك مغزى قول الثوري وأبي حنيفة وأصحابه وابن شبرمة وابن علية وعطاء والحسن وابن عباس وعلى ابن أبي طالب .. قول هؤلاء العلماء بعدم قتل المرأة المرتدة ، لعدم تحقق آثار الحرابة في ردتها !<sup>(١١٠)</sup> .

---

(١٠٧) رواه الإمام أحمد .

(١٠٨) المائدة : ٢٣ .

(١٠٩) ابن رشد [ بداية المجتهد ونهاية المقتضى ] جـ ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٨٨ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٤ م .

(١١٠) [ الجامع لاحكام القرآن ] جـ ٣ ص ٤٨ .

إذن ، فليس في الإسلام « إكراه للذات » على « إيمان قسرى » لم يقم عليه دليل .. وإنما الذي في الإسلام هو حماية للنظام الاجتماعي ، المؤسس على الإيمان الديني ، من هدم « المرتدین » ، الذين تحمل « ردتهم » كل معانى « الحرابة » ومحادة الله ورسوله ، ومناصبة الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي كل العداء .

ثم - وهذا ضروري وهام في موضوعنا - إننا ننبه على مخاطر وأخطاء منهج أولئك الذين ينظرون إلى « ذاتنا » بعيون غربية ، فيرون إسلامنا مسيحية ، في صورتها الكنوتية الغربية .. فحرام وغير موضوعي أن ننظر إلى إسلامنا العقلاني على أنه المسيحية الغربية التي حولت نقائ عقيدة التوحيد وبساطتها وعقلانيتها إلى طلسم يستعصى على فهم البسطاء والمتخصصين جمياً ! .

إن علماء الغرب ومفكريه هم أنفسهم الذين قالوا ويقولون عن عقيدة المسيحية ، كما عرفوها وعن قانون الإيمان فيها - على حد تعبير « مراتشى » Marracci : « إن أسرار هذه العقيدة فاقت طاقة الذكاء البشري ، فغدت - على الأقل - من الصعوبة بمكان ، إن لم تكن مستحيلة » الفهم<sup>(111)</sup> ! .. وسائل هذا القول - مع ذلك - مؤمن بهذه العقيدة المسيحية ! .

---

(111) [ الدعوة إلى الإسلام ] من ٤٥٤ - « هامش » - .

وعلماء الغرب هؤلاء ، لم يدعهم - وخاصة المنصفين منهم - اختلافهم مع الإسلام وحضارته إلى إنكار تميز عقيدة الإسلام بالعقلانية التي لا تدع مبرراً لإلحاد العقلاة فيه .. « فالإسلام - وفق عبارة البروفسور مونتيه - : في جوهره دين عقلاني ، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاستنفاذية والتاريخية . فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أساس من المبادئ المستمدّة من العقل والمنطق ، ينطبق على عقيدة الإسلام تمام الانطباق .. إن الدين محمد ﷺ كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل .. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي ، على وجه التحقيق ، من اظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة الإسلامية .. ولقد حفظ القرآن منزلته ، من غير أن يطرا عليه تغيير أو تبديل ، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة ، وقد جهر القرآن دائمًا بمبادئ الوحدانية ، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن تجده في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا ... ولقد كان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعاً لذلك في متناول

إدراك الشخص العادى ، أن تمتلك ، وإنها لتمتلك فعلاً ،  
قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس ! .. «<sup>(١١٢)</sup>  
ولقد انتهى المنصفون من علماء الغرب - وهم على  
مسيحيتهم - من هذه المقارنة إلى القول بأن « من قارن بين  
أسرار العقيدة المسيحية .. وبساطة عقيدة القرآن ، فإنه  
ينصرف عن الأولى في الحال ، ويسرع إلى الثانية في ترحيب  
وقبول ! »<sup>(١١٣)</sup> .. قالوا ذلك ، رغم افتقارهم لشجاعة تنفيذ  
هذا الذي قالوه ! .

إذن ، فإن إسلامنا ليس المسيحية ، حتى ننظر إليه  
بعيون اللاهوت الكنسى الغربى .. وإذا كانت لا عقلانية  
العقيدة المسيحية - كما انتهى إليها اللاهوت الكنسى  
الغربي - تجعل إلحاد العقل الغربى فيها وارتداده عنها  
اماً وارداً ، ومن ثم يكون من الطبيعي أن يرى هذا العقل  
الغربي في « الردة » حقاً من حقوق الإنسان ، فإن هذا  
الأمر غير وارد ، وغير جائز في إطار إسلامنا العقلاني ،  
طالما أن فهمه فهم العقلاة أمر مباح ومتاح وغير محظور  
بل وواجب في حق العقلاة .. وما استعارة « الردة » ،  
كحل مشكلة العقل الغربى مع مسيحيته الغربية ،  
واستدعائها حرق من حقوق الإنسان إلى عالمنا الإسلامي

---

(١١٢) المرجع السابق . ص ٤٥٤ - ٤٥٦ .

(١١٣) المرجع السابق . ص ٤٥٤ « هامش » .

وحضارتنا الإسلامية وإسلامنا العقلاني ، إلا ضرب من « السفه الفكري » الذي لا يبصر أصحابه علاقة « الفكر » بـ « الواقع » وخطأ وخطل استعارة « حل » غريب مشكل غير موجود !! .

إن إسلامنا هو الذي تأخت فيه - بالوسطية - « الحكمة » و« الشريعة » ، و« العقل » و« النقل » ، حتى لقد عرفنا معجزته الكبرى - القرآن الكريم - وهي معجزة « نقلية » ، عرفناها ، كذلك ، معجزة « عقلية » ، العقل فيها هو مناط التكليف ، والحكم في فقه مرامي النصوص ، والأدلة في رد « المتشابه » إلى « المحكم » .. كذلك عرفنا ، في هذا الإسلام ، أن طريق معرفة الله سبحانه - وهي جوهر الدين وعماد الإيمان - هي العقل ، الذي به يدرك الإنسان ، أيضاً ، صدق الرسل وحجية الكتاب المنزلي من السماء .. الأمر الذي يجعل « الإيمان الإسلامي » من كمال العقل وسلامة الفطرة الإنسانية ، فيفقد أنصار الغزو الفكري كل مبرر لدعوى أن « الردة والإلحاد » حق من الحقوق العقلية للإنسان بالمعنى الذي تعارفت عليه الحضارة الغربية ودساتيرها ومواثيقها التي عرضت لهذا الموضوع .

إننا ندعوا إلى تأمل كلمات الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [ ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م ] - وهو من

أبرز العقول المجددة لإسلامنا في العصر الحديث - التي يقول فيها عن هذه القضية :

«إن الرجوع عن الدين رجوع عن أصوله الأساسية الثلاثة ، وهي :

١ - الإيمان بأن لهذا الكون العظيم المتقن في وحدة نظامه ، وبديع أحكامه ، ربا إلها أبدعه وأتقنه بقدرته وحكمته بغير مساعد ولا واسطة ، فلا تأثير لغيره في شيء منه إلا ما هدى هو الناس إليه باطراد سنته في الأسباب والمسببات ، فيجب عليهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، لا في الدعاء ولا في غيره من معانى العبادة . وهذا الأصل هو منتهى ما يصل إليه ارتقاء العقل البشري في الاعتقاد ، وتطهير الأنفس من الخرافات والأوهام .

٢ - الإيمان بعالم الغيب والحياة الآخرة ، ذلك أن العوالم الحية التي في هذا الكون لا تنتهي من الوجود ولا تنفذ من أقطار ملك الله بما نراه من فساد تركيبها وذهاب صورها ، فإذا كان العدم المحس غير معقول ، والتحول في الصور مالوف منظور ، فلا غرو أن يكون للناس حياة أخرى في عالم آخر بعد خراب هذا العالم . وهذا الإيمان ركن من أركان الارتقاء البشري ، لأنه يبعث البشر إلى الاستعداد لذلك العالم الأوسع الأكمل ، ويعرفهم بأن وجودهم أكمل وأبقى مما يتواهبون .

٣ - العمل الصالح الذى ينفع صاحبه وينفع الناس .. إن الرجوع عن الإيمان إلى الكفر يشبه الآفة تصيب المخ والقلب فتذهب بالحياة ، فإن لم يمت المصاب بعقله وقلبه ، فهو في حكم الميت لا ينتفع بشيء . وكذلك الذى يقع في ظلمات الكفر بعد أن هدى إلى نور الإيمان ، تفسد روحه ويظلم قلبه ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ولا يعطى شيئاً من أحكام المسلمين الظاهرة ، فيخسر الدنيا والآخرة » (١٤) .

إن دينا قد جعل و يجعل « النظر العقلى » الأصل الأول من أصوله .. وقدم هذا « النظر العقلى » على « ظاهر الشرع » ، إذا لاح تعارض بينهما ، لا يمكن أن تعرض للعقلاء - إذا هم عقلوه حق العقل - حاجة عقلية إلى « الردة والإلحاد » .. « إن أول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه ؟ .

بلغ هذا الأصل بال المسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده في الوصول إلى الحق ،

---

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٤ من ٥٨١ ، ٥٨٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عماره . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ .

ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن ، فهوناج . فآية سعة لا ينظر إليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟ .

كذلك اتفق أهل الملة الإسلامية ، إلا قليلاً من لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقل ، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية : تأويل النقل ، مع المحافظة على قوانين اللغة ، حتى يتفق معناه مع ما اثبته العقل .

وبهذا الأصل ، الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ مهدٌّ بين يدي العقل كل سبيل ، وازيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ .. وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ ! إن لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وأبعادها ! .. « (١١٥)

---

(١١٥) المصدر السابق . جـ ٢ من ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

فهل بعد هذا الذى قدمنا .. والذى اقتبسناه من عبارات الإمام محمد عبده - بقية من شبهة على مقوله المترقبين ، أسرى الغزو الفكري ، الزاعمة ضرورة « حق الردة والإلحاد » ، للعقل المفكر والمتفلسف في إطار عالم الإسلام ! .

لقد رأينا أغلب الذين ضلوا عن سبيل الله فألحدوا ، في الواقع الإسلامي المعاصر - وهم قلة نادرة في أمتنا - رأيناهم أكثر الناس جهلاً بالإسلام .. ورأينا صفوهم قد خلت من أهل الفكر والاجتهاد والتأمل والنظر الفلسفى .. فكان إلحاد « المثقفين » منهم « تقليداً » لمفكري الغرب ، الذين تتلمذوا عليهم دون غيرهم ، عندما رأوا الإسلام - الذى لم يقرأوه ! - وكأنه المسيحية الغربية كما رأها « أئمته وأسلافهم » الغربيون .. يسقى في ذلك « الليبراليون » و« الشموليون » ، من هؤلاء الماديين الملحدين ! .. أما إلحاد « عامتهم » ، من أشباه المتعلمين وأنصار المثقفين ، فهو إلحاد « تقليد » أو « مجون » و« تحلل من التكاليف » .. قلدوا فيه « مثقفيهم » - الذين قلدوا بدورهم مفكري الغرب الماديين - « حذوك النعل بالنعل » ، دونما اجتهاد من أحدهم أو خلق وإبداع ! . فلا الإسلام بمقيم أمام العقل عقبة تبرر الإلحاد .. ولا الذين ألحدوا قد خبروه حتى تكون لهم حجة في استعارة هذه الأفة الغربية إلى عالم الإسلام والمسلمين ! .. ولكنه الغزو

الفكري الذى جاءنا به الغرب فاحتل به عقل هذه القلة من المتغربين ! .

\* \* \*

لقد سبقت إشارتنا إلى تميز الحضارة الغربية بالطابع المادى الإلحادى .. وإلى وقوفها بالتدين - حتى عند المؤمنين فيها - غالباً - عند حدود «الشكل» و«الطقوس» .. بل واحتزال هذا التدين الشكلى إلى ساعة من الأسبوع ، وفي حدود العلاقة الفردية .. فوقعت الحياة كلها ، في تلك الحضارة ، فكراً وممارسة بعيداً عن «عمق» التدين و«شموله» .. فهل يريد المتربون ، أسرى الغزو الفكري ، فرض هذه الخصوصية الحضارية الغربية .. على حضارتنا العربية الإسلامية ، متورمين أنها «مشترك إنسانى عام» ؟ ! .

لقد أقمنا الدليل - بل الأدلة - على أنها ليست من «المشترك الإنسانى العام» .

ولقد سبقت إشارتنا إلى دور الحضارة الغربية في إفساد العقيدة المسيحية ، عندما أخرجتها ، بالفكر الهلينى ، عن بساطة التوحيد .. فكانت سبباً في إفلاس الكنائس الشرقية وعجزها عن إشباع الحاجات الروحية للإنسان الشرقي ، الأمر الذى ملأ نراغه وجب نقصه نقاء وبساطة عقيدة التوحيد في الإسلام .. فهل يريد المتربون ، أسرى الغزو

الفكري ، بتبنّيهم « نموذج الدين الشكلي » في الحضارة الغربية ، وإشاعته بين ظهاريننا ، أن يفسدوا بالتجريب الحديث هذا على المسلمين « عمق » تدينهم و« شموله » - كخاصية حضارية إسلامية - كما أفسد التجريب القديم ، بالهلينية ، توحيد المسيحية الشرقية القديم !٩ .

وهل ينطلي ذلك الإفساد على « العقل » المسلم حتى ولو سموه « حقاً » من حقوق الإنسان !٩٩ .

\* \* \*

بقي أن نقول : إن بعض المذاهب والكنائس المسيحية الشرقية ، التي اجتذبتها وطفت على « مُثلها » فكرية التجريب ، والتي ، لذلك ، ضمّرت في رسالتها مساحة الإشباع الروحي لأبنائها ، فغدت تحتجزهم في كنفها - كيلا يفروا إلى الإسلام - « بالرباط الطائفي » ، بعد أن عزّرباط « الإشباع الروحي » .. إن بعض هذه المذاهب وكنائسها ، تتبنّى موقف التجريب المدافع عن « الردة » كحق من حقوق الإنسان .. لا لأنها مخلصة لذهب الغرب من هذا الموقف .. وإنما كحل « انتهازى » لمشكلات داخلية تعانى منها نظمها وقوانينها الخاصة .. ذلك أن « الجمود المذهبى » الموروث لدى هذه الكنائس يحول بين قوانينها في الأسرة - الأحوال الشخصية - وبين توفير الحلول الواقعية لما يعترض الأسرة من مشكلات .. وخاصة في قضايا « الطلاق » و« تعدد الزوجات » .. ولذلك

لجاً ويلجاً نفر من أبناء هذه الكنائس إلى « الإعلان الصورى » عن دخولهم الإسلام ، طلباً للخروج من مأزق وقيود قوانينهم الكنسية في الزواج والطلاق .. حتى إذا قضوا من ذلك الوطز عادوا إلى كنيستهم من جديد ! .

وأمام هذه المشكلة ويسببها يحتمل الجدل المكتوم ؟ ! بين علماء الإسلام وبين كهنة هذه الكنائس حول قانون « الردة » وحده منذ سنوات .. فعلماء الإسلام يريدون تقنين « الردة » لإقامة حدتها على من يرجع عن الإسلام بعد إعلانه الدخول فيه .. وكهنة هذه الكنائس يخشون ذلك كي لا يكون فرار أبنائهم من كنيستهم فراراً دائمًا ومؤبداً ... فهم ليسوا في الحقيقة مع « الارتداد » عن الدين ، لكنهم « ينتفعون » من بقاء حد الردة دون تقنين وبعيداً عن الإعمال والتطبيق ! .

. والأمر الذي لا مراء فيه ، أن صيانة التدين عن العبث هو مطلب و موقف يجب أن لا يكون موضوعاً لخلاف بين كل المتدينين من كل الديانات .. وحل هذا المشكل كامن في ضرورة تطوير هذه المذاهب غير المسلمة لقوانين الأحوال الشخصية الخاصة بأبنائهما ، كي لا يكون العبث بالتنقل بين الأديان هو الباب الوحيد أمامهم للخروج من مشكلاتهم الأسرية التي تمسك منهم بالخناق .. وإذا كان هذا اللون من الانتقال بين الأديان لا يعد - في حقيقته - « ردة » ، لأن صاحبه لم يغير

- في الحقيقة - معتقده الديني .. فإنه داخل في إطار « العبث » والاستهزاء بال المقدسات ، التي يجب أن تصنان عن العبث والاستهزاء .. « فالتعزير » الرادع يجب أن يكون جزاء هؤلاء العابثين .. والتطویر لقوانين الأسرة في هذه المذاهب المسيحية ، هو الحل الجذری الذى يحدى موقف أبنائها من هذه المواقف غير اللائقة بمطلق المتدینين بأى دین من الأديان .. وغير لائق بهؤلاء الذين « ينتفعون » هذا الانتفاع الانتهازى من هذا العبث ، أن يغفلوا موقفهم اللا مبديء هذا بخلاف « التغريب » الذى يزعم أن « الردة » حق من حقوق الإنسان ! .

## أى النماذج هو التحرير للمرأة؟؟

في تاريخنا الحضاري ، منذ ظهر الإسلام وحتى عصمنا الراهن ، يستطيع الراصدون لوقف المجتمع وفكرة السائد من « المرأة » ، التمييز بين مراحل ثلاثة .. لكل منها خيوطها العريضة وقسماتها المتميزة ، التي تعطيها نوعاً من « التميز » ، ولا نقول « الاستقلال »... فهى متداخلة تداخل مراحل الحضارة الواحدة عبر التاريخ .. ثم إن عموم هذه الخيوط والقسمات ، التي تميز المرحلة ، كل أقاليم الأمة وأوطانها ، وجميع بيئاتها وطبقاتها ، هو الآخر أمر غير مطلق ولا عام .. بل يحتاج إلى تفصيل وضبط وتدقيق شديد .

وإذا كان الأمر - في مقامنا هذا - ليس من مقاصده التفصيل لوقف المجتمعات العربية الإسلامية من المرأة ، وإنما هو الرصد للملامح العامة ، وصولاً إلى تحديد « هويتنا » الحضارية في هذه القضية ، لاكتشاف أى الشعارات والأفكار في الساحة المعاصرة هي الواقية حقاً بتحقيق التحرير العربي الإسلامي للمرأة العربية المسلمة ؟ .. وأيها هي « الغزو الفكرى التغريبى » المتخفى تحت شعارات « التحرير » ؟ .. إذا كان هذا هو الهدف المحدد لهذه الصفحات ، فإننا نستطيع أن نلمح ونميز المعالم

الرئيسية لوقف المجتمع من « المرأة » ، عبر هذه المراحل الثلاث ، على النحو التالي :

\* \* \*

١ - في المرحلة الأولى ، التي تبدأ بظهور الإسلام .. والتي تمتد عبر الخلافة الراشدة ، والدولة الأموية ، إلى نهاية العصر العباسي الأول .. أى إلى حقبة سيطرة العسكر المالكية على الدولة العباسية ، وظهور آثار هذه « العسكرية » في الفكر والقيم والأعراف .. في هذه المرحلة الأولى أنجزت حضارتنا الجوهر الحقيقي لتحرير المرأة العربية المسلمة ، وكان هذا التحرير عميق الجذور ، وشاملاً ل مختلف الميادين .

ونحن نستطيع أن نكتف ونجمل ونوجز فلسفة الإسلام في تحرير المرأة ، تلك التي وضعت في الممارسة والتطبيق ، في شعار : « المرأة هي الشق المكمل للرجل ، والمساوي له » !

لقد نظر الإسلام إلى المرأة كإنسانة انتى ، وإلى الرجل كإنسان ذكر .. فهناك تمايز في الطبيعة ، اقتضته حكمة خلق الله الناس من ذكر وأنثى ، ليكون التكامل شوق كل منهما وسعادته .. وحتى لا يكون التمايز والتطابق داعية الملل والنفور .. ثم ليكون هذا التكامل سبيلاً لبقاء النوع بحراً هادراً ، على الرغم من تبخر قطرات الممثل في انتهاء أعمار الأفراد ! .

فالمساواة في الإنسانية ، تضمن وتتضمن المساواة الكاملة والثامة في كامل الحقوق والواجبات ، وفي الجزاء والثمرات .. وأما تمايز الطبائع ، فلقد نظر الإسلام إليه كنعمة .. لأنه فضلاً عن دوره في حفظ النوع ، فإنه يمثل - لدى الفطر السليمية - جوهر امتياز كل من الرجل والمرأة به يفخر ويعتز ويتيه كل منهما ، وبفقدانه - ولو بالتهمة والإدعاء - يكون الغم والهم والتاذى ! .. فلا الرجل بمتقبل أن يوصف بالأنوثة ، ولا بما يشبهها - التخنث - .. ولا المرأة بمتقبلة أن توصف بالرجلة ، ولا بما يشبهها - الاسترجال - .. ولن يُقدم أحدهما ، فضلاً عن أن يسعد ، بالاقتران بما يماثله أو يشبهه في الطبيعة ، لأنه سيفتقد « المكمل » والتكامل ، وسيعيش حياة التناحر .. وباختصار ستفتقد الحياة سرها ، ومصدر نعائهما : ازدواج كل زوجين اثنين ، « بتكامل التمايز » ، الحق سعادة الشقيقين المتمايزين طبيعة المتساوين ، إنسانية ، في الحقوق والواجبات - التي يحددها التمايز والمساواة كليهما ! .

تلك هي الفلسفة المتميزة التي اعتمدتها الإسلام إطاراً لتحرير المرأة والرجل جميعاً ، كشقيقين متمايزين ومتكاملين .. وهي الغاية التي جاهد المسلمون لوضعها في الممارسة والتطبيق ، بمختلف ميادين الحياة .. والتي نجحوا في وعيها

وممارستها في حدود نجاح « الواقع » عندما يستلهم « المثال » ؟ ! .

● لقد كانت المرأة الفذة - خديجة بنت خويلد [ ٦٨ - ٣ ق . هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م ] - زوج النبي ﷺ هي كل المجتمع الأول الذي صدق بالدعوة وأمن بالإسلام وناصر الأمة الوليدة في مواجهة الشرك والقهر والحسار .. بل لقد كانت هذه المرأة ، الشامخة البطولة ، العقل الراجح واليد الحانية التي ثبتت روح النبي وأذهبت عنه الروع الذي تملكه عندما فاجأه الروح الأمين للمرة الأولى ، في غار حراء .. لقد رَمَّلَتْه بيدها الحانية حتى هدأت رعشته .. فلما أفضى إليها بالنبي : « إنِّي أَرَى ضُوئًا ، وَأَسْمَعُ صوتًا . وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ بِي جَنٌ ! » تزامل عقلها وحنانها في تثبيت جنان النبي ، فقالت له : « لَمْ يَكُنَ اللَّهُ لِيَفْعُلْ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ! . إِنَّكَ لِتَصْلِي الرَّحْمَ ، وَتَقْرَى الضَّيْفَ ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَتَعْنِي عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ . وَاللَّهُ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبْدًا .. ! » ! .

ثم انطلقت به إلى الخبر : ورقة بن نوفل [ ١٢ ق . هـ ٦١١ م ] ، ليصدق على هذا الذي نهضت به في تثبيت أولى دعائم الإسلام ! .

وتواترت مواقفها وجلائل أعمالها في بناء هذا الصرح الوليد .. فلما انتقلت إلى جوار ربه ، أوجز النبي تقييم دورها

فـ الدعـوة عـندـمـا سـمـي عـام وـفـاتـها « عـام الـحزـن » ! .. لـكـنـها كـانـت قـد فـتـحـت لـلـمـرـأـة الـعـرـبـيـة الـمـسـلـمـة الـبـاب .. بـاب صـنـاعـة التـارـيـخ ، أـمـجـد تـارـيـخ ! .

● و « بالـعـقـبة » .. فـ لـيـلـة مـن لـيـالـى مـوـسـم الـحـجـ ، فـ الـسـنـة الـتـى سـبـقـت عـام الـهـجـرـة .. عـقـدـت « الـجـمـعـيـة الـتـأـسـيـسـيـة » لـلـدـوـلـة الـعـرـبـيـة الـإـسـلـامـيـة الـأـوـلـى .. وـبـاـيـعـ الـمـؤـسـسـوـن .. مـن قـادـة الـأـوـسـ وـالـخـرـج .. رـسـوـل اللـه ﷺ عـلـى إـقـامـة هـذـه الدـوـلـة .. وـكـانـ الـذـيـن أـبـرـمـوا هـذـا « الـعـقـد » : السـيـاسـيـ الـاجـتمـاعـيـ الـحـرـبـيـ » - الـحـقـيقـيـ - خـمـسـ وـسـبـعـونـ ، مـنـهـم اـمـرـاتـانـ ، هـمـا « أـمـ عـمـارـةـ ، نـسـيـبـةـ بـنـتـ كـعبـ الـأـنـصـارـيـةـ [ ٦٢٤ مـ ] » ، وـأـمـ منـيـعـ ، أـسـمـاءـ بـنـتـ عـمـرـوـ بـنـ عـدـىـ الـأـنـصـارـيـةـ .. بـاـيـعـتـا رـسـوـل اللـه ﷺ مـعـ الرـجـالـ ، وـعـلـى قـدـمـ الـمـسـاـوـةـ ، لـأـنـ الـإـسـلـامـ أـعـطـاهـمـاـ - وـلـلـمـرـأـةـ بـإـطـلـاقـ - « الـوـلـاـيـةـ السـيـاسـيـةـ » ، لـأـكـحـقـ مـنـ الـحـقـوقـ ، يـصـحـ التـنـازـلـ عـنـهـ ، وـإـنـمـاـ كـوـاجـبـ شـرـعـيـ وـفـرـيـضـةـ إـلـهـيـةـ .. حـصـلـتـ عـلـيـهـا الـمـرـأـةـ الـعـرـبـيـةـ الـمـسـلـمـةـ ، وـمـارـسـتـهـاـ ، عـنـدـمـاـ شـارـكـتـ فـ تـأـسـيـسـ الدـوـلـةـ مـنـذـ ذـلـكـ التـارـيـخـ ! .

● وـ فـ لـيـلـة الـهـجـرـةـ ، كـانـتـ أـسـمـاءـ بـنـتـ أـبـىـ بـكـرـ [ ٢٧ قـ . مـ ٦٩٢ - ٥٩٧ ] مـمـثـلـةـ لـلـمـرـأـةـ الـعـرـبـيـةـ الـمـسـلـمـةـ فـ التـخـطـيـطـ وـالـتـنـفـيـذـ ، سـرـاًـ لـلـرـحـلـةـ الـمـحـورـيـةـ الـتـىـ تـوقـفـ عـلـيـهـاـ

مستقبل الإسلام والمسلمين .. هجرة الرسول الكريم وأبيها الصديق من مكة إلى المدينة سراً :

فلما هاجرت أسماء إلى المدينة ، كانت حياتها - كغيرها من نساء ذلك المجتمع - تجسيداً لفلسفة الإسلام في « تحرير المرأة » : الحشمة الجميلة التي تصنون الجمال عن الابتذال .. تعلمتها من رسول الله ﷺ عندما قال لها : إن المرأة إذا نضجت - بلغت المحيض - لابد وأن تستر ما عدا الوجه والكفين ، بثياب لا تشف عما تحتها بالرقه ، ولا تصف محسن الجسد بالضيق .. والحفاظ على مشاعر الزوج والصيانة لعهده وعرضه وسيرته - حتى ولو كان شديد الغيرة ، كالبزير بن العوام [ ٢٨ ق . هـ - ٥٩٦ - ٦٥٦ م ] زوج أسماء ! .. لقد كانت عائدة يوماً من الأرض التي تمارس زراعتها ، سيراً على أقدامها ، فعرض عليها رسول الله ﷺ أن تركب خلفه على راحلته ، فاعتذررت لنبي الله ، لأن زوجها شديد الغيرة عليها .. وهي لا تريد أن تؤذى مشاعره حتى بمجاورة رسول الله ﷺ ! .

عاشت أسماء - كل نساء ذلك المجتمع ، في تلك الحقبة من تاريخنا الحضاري ، تزرع الأرض ، وترعى المنزل ، وتصنع الرجال ، وتداوي الجرحى ، بل وتقاتل قتال الأبطال ، عندما يتطلب الأمر ذلك في الكثير من الغزوات .. وفوق كل ذلك ، وقبله ، ومعه : كانت « السكن .. وال媧ة ..

والحنان .. أى الشق المكمل للرجولة ، في إطار المساواة التي تواتت بالحديث عنها آيات القرآن الكريم بين المؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكريات .

والذين يقرأون «موسوعات الأعلام» في علم التراجم بحضارتنا العربية الإسلامية .. بدءاً من [كتاب الطبقات الكبير] لابن سعد [١٦٨ - ٢٣٠ هـ ٨٤٥ م] ومروراً بكتاب [أسد الغابة في معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥ - ٦٢٠ هـ ١٢٣٣ م] وانتهاء بكتاب [أعلام النساء] للمؤرخ المعاصر محمد رضا كحالة .. يدركون «كم» «أعلام النساء» ، و«القدر» الذي نهضن به في بناء هذا الطور من أطوار حضارتنا العربية الإسلامية ، وفقاً لمعيار فلسفة الإسلام المتميزة في تحرير المرأة : «إنها الشق المكمل والمساوي للرجل» !

لقد كانت عائشة ، أم المؤمنين [٩ ق. هـ - ٥٨ هـ ٦١٣ - ٦٧٨ م] رضي الله عنها ، تروي الحديث ، وتفتني في الدين ، وتشير في السياسة ، وتنهض ، بنصيتها في الصراع السياسي السلمي ، والمسللي ..

الحقيقة التي صنعت للنبي القائد «الواحة» و«السكن» الذي يجد فيه شق الأنوثة وعطف المرأة ومودة الجنس اللطيف ! .. فجمعت إلى ولاية الدين والدنيا الولاية على

القلب ، سلطاناً اختصها به الله .. وكذلك كانت أسماء بنت أبي بكر ، ترعى عواطف زوجها وتعهد بها ، حتى ولو كانت غيرة شديدة ، وتندع الأرض ، وتقاتل ، وتدفع بابنها عبد الله ابن الزبير [ ١ - ٧٣ هـ - ٦٢٢ - ٦٩٣ م ] إلى بطولة الاستشهاد ، وتواجه طغيان الحاج بن يوسف الثقفي [ ٤٠ - ٩٥ هـ - ٧١٤ م ] وتلملم بقايا عظام ابنها من على خشبة صلبيه ، لتواريه التراب ، في صلاة الفولاذ ! . كذلك ، وعلى هذا النحو ، أطلق « التحرير الإسلامي » طاقات المرأة العربية المسلمة ، فأبدعت « إنسان - انتى » في كل الميادين ، وفقاً لهذه الطبيعة وذلك المعيار .

\* \* \*

٢ - فلما فتح الله على المسلمين البلاد ، وبلغت حدود الدولة الإسلامية ما بين « غانة » - في غرب أفريقيا - و« فرغانة » - في أقصى الشمال الشرقي من آسيا - ومن جنوب خط الاستواء ، إلى حوض نهر الفولجا ، في الشمال ، ومن « ملقة » الأندلسية في الغرب ، إلى سميتها الفلبينية في الشرق .. لما حدث ذلك ، دخلت المرأة المسلمة - ويا سبحان الله ! - في طور جديد .

لقد جلبت هذه الفتوحات على المجتمع العربي ثراء مادياً شغل القوة الضاربة للدولة - العرب - بالترف ونعومة الحياة عن خشونة الجند وبساطة حياة

المناضلين .. ومع هذا الثراء المادى كانت مواكب السبايا  
والإماء من فاتنات الفرس والروم والديلم والشركس ،  
وكل الأجناس التى فتحت بلادها .. فامتلأت المدن  
- بخاصة - وقصور الأغنياء - تحديداً - بنوع جديد من  
« المرأة » تحترف « الإغراء » ، ولا تجد لها زورق نجاة من  
الإهمال والغرق في البحر الظاهر بـ« مثالها » « كيد  
النساء » وطرائق الفتنة وحبائل الشهوات .. ووجد هذا  
« الواقع » الجديد انعكاساته وأحدث تأثيراته في أداب  
الأمة وفنونها ، وفي صورة المرأة « ومثالها » ، فطمسـت  
معالم فلسفة الإسلام في تحرير المرأة إلى حد كبير .

وبعد أن كان توجه الإسلام ، كثورة تحريرية ، هو إلى  
تصفيـة بقـايا نظام العبودية والاسترقـاق ، « بالـتدرج  
الـثوري » ، وفق خـطة مـتعاقـبةـ الـحـلـقـات : إـغـلاقـ الصـنـابـيرـ الـتـيـ  
تمـدـ « حـوضـ الرـقـ » بالـجـدـيدـ - الفـقـرـ - الدـينـ - الـرـبـاـ -  
الـغـارـاتـ الـحـرـبـيـةـ - الخـ .. الخـ .. وتوسيـعـ مـصـبـ هـذاـ  
« الحـوضـ » ، بالـعـقـقـ فيـ الـكـفـارـاتـ وـالـذـنـوبـ ، وـتـقـرـبـاـ إـلـىـ اللهـ ،  
وـبـالـمـسـاـواـةـ الـتـيـ جـعـلـتـ الـاسـتـرـقـاقـ عـبـئـاـ اـقـتصـادـيـاـ عـلـىـ مـالـكـ  
الـرـقـيـقـ ! .. الخـ .. الخـ .. بـعـدـ هـذـاـ التـوـجـهـ الإـسـلـامـيـ ، انـعـكـسـ  
اتـجـاهـ الـرـيـحـ ، فـامـتـلـأـتـ المـدـنـ بـجـيـوشـ الرـقـيـقـ ، وـغـصـتـ قـصـورـ

السراة والحكام والقادة بالسرارى والإماء ، فران على البوقة  
التي تقدح زناد فكر الأمة وتلون مثلها طارئء جديد  
وغريب ! .

وعندما أصاب الترف العرب - قوة الإسلام الضاربة  
وجيش دولته الفتى - بأمراض الدّاعنة والرّكون إلى الملاذات ..  
التمسّت «الدولة» قوتها الضاربة من الجنود الترك المماليك ..  
الذين لم يلبيّوا ، بعد أن تضخّمت مؤسّساتهم العسكريّة ، أن  
غدوا مالكيّ الأمر ، والقابضين على أزمة الأمور ، منذ عصر  
المتوكل العيّاشي [ ٢٠٦ - ٢٤٧ هـ ٨٦١ - ٨٢١ م ] وعبر  
دول المماليك : البحريّة [ ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ ] .  
١٢٥٠ - ١٢٨٢ م ] والبرجية . [ ٧٨٤ - ٩٢٢ هـ  
١٣٨٢ - ١٥١٧ م ] ودولة الترك العثمانيين  
[ ٦٩٩ - ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ - ١٢٩٩ م ] .

وكلّ دول ونظم ومجتمعات «العسكر - الفرسان» ،  
الذين يسكنون ظهور الجياد أكثر مما يسكنون منازلهم  
والذين يعيشون في المعسكرات أكثر مما يعيشون في  
بيوّتهم .. كان حجب المرأة عن واقع الحياة خارج المنزل ،  
والنظر إليها كأدّاء متعة ولو هو وزينة منزل ودميّة فراش  
وسقوط متعّ ، هي القيم التي سادت مدفناً في تلك الحقبة ،  
والتي انعكست في الأداب والفنون والحكم والأمثال بذلك  
التاريخ .

ويكفى أن تقارن بين حديث القرآن عن مساواة المرأة للرجل،

(١١٦)

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَنَّهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾

وصورة المرأة في صدر الإسلام، عندما بايعت النبي ﷺ مثل الرجال، على أن تنهض في بناء المجتمع والحضارة بكل ما تستطيع .. ووفق الحديث الذي ترويه الصحابية أميمة بنت رقيقة : « جئت النبي ﷺ في نسوة نبأيه ، فقال لنا : فيما استطعن وأطقتن » (١١٧) .. والنماذج التي أشرنا إليها .. يكفى أن تقارن ذلك بصورة المرأة في [ألف ليلة وليلة] [٩] ! .. عندما جسدت « كيد النساء » و« مصائد الرجال » و« حبائل الشهوات » .. وانعكاس ذلك في الآداب ، نثراً وشعرًا ومؤلفات .

فأين صورة أم عمارة ، نسيبة بنت كعب الانصارية ، يوم أحد ، عندما صمدت تدافع عن الرسول ، بعد فرار الكثيرين ، حتى لقد ملأت الجراح جسدها .. وفي يوم اليمامة - ضد مسيلمة الكذاب - عندما قطعت يدها - قطعها مسيلمة -

---

(١١٦) البقرة : ٢٢٨ .

(١١٧) رواه ابن ماجة .

وأصيبت بأحد عشر جرحاً .. بعد استشهاد ابنها ؟ .. وصورة «غزاله» [٦٧٧-١٩٦٥م] التي قادت ثورة الخوارج وحربهم في العراق ، وفر منها الحجاج بن يوسف ؟ .  
لقد قال فيها الشاعر :

اقامت غزاله سوق الضراب  
لأهل العراقيين شهراً قميطاً ! (١١٨)  
وعبر آخر الحجاج عندما فر من لقائها ، فقال :  
أسد علىٰ وفي الحروب نعامة  
ربداء تجفل من صفير الصافر  
هلا بربت إلى غزاله في الوعى ؟

بل كان قلبك في جناحى طائر !  
أين صورة المرأة هذه ، تلك التي صنعتها «تحرير الإسلام» ، وصنعتها هي بهذا التحرير الإسلامي .. من صورتها في [الف ليلة وليلة] ؟ .. ومن وصف شاعر حقبة التراجع لدورها الجديد ، في قوله :  
كتب القتل والقتال علينا

وعلى الغانيات جر الذيل !  
لقد غدت المرأة - لدى هذه الشريحة من حكام الدولة وسراة المدن - «عورة» يستترها «حريم» القصور طوال

---

(١١٨) قميطاً ، اي كاملاً وتماماً .

حياتها .. بل لقد قال البعض إن ساترها الطبيعي هو « القبر » !

ولم أر نعمة شملت كريماً  
كنعمة عورة سرت بقبر !  
وقال آخر :

ومن غاية المجد والكرمات  
بقاء البنين وموت البنات !

بل لقد رأينا هذه النظرة تجد طريقها إلى فكر إمام جليل مثل ابن قيم الجوزية [ ٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م ] فيتحدث - في العصر المملوكي - عن مكان المرأة ، فيقول : « إنها تحت أسر الرجل » !<sup>١١٩</sup> .

صحيح إن هذه « البلوى » لم تعم الأمة بأسرها .. فلقد ظلت المرأة في القرى تفلح الأرض وترعى المنزل ، وتسهم مع الرجل في حمل عبء الحياة .. لكن سراة القرى وأعيانها قلدوا سراة المدن وحكامها .. وسادات - حتى في القرى - الأفكار التي انتقصت من قدر المرأة ومكانتها ، والممارسات التي حملتها من المظالم أكثر مما تحمل الرجال ! .

---

(١١٩) نص عبارة ابن القيم : « .. فإن السيد قاهر لملوكه ، حاكم عليه ، مالك له ، والذى قاهر لزوجته. حاكم عليها ، وهى تحت سلطانه وحكمه شبه الاسير » . انظر [ أعلام الموقعين ] ج ٢ ص ١٠٦ طبعة - دار الجيل - بيروت عام ١٩٧٣ م .

تلك كانت الملامح الرئيسية لتراجع « التحرير الإسلامي للمرأة » ، في حقبة تراجعنا الحضاري ، إن في الفلسفة أو في الممارسات .

\* \* \*

٣ - فلما جاء عصرنا الحديث ، و Ashtonابت الأعناق وطمحت العقول إلى طى صفحة التخلف والتراجع والجمود في كتاب المرأة العربية والمسلمة .. وجدنا أنفسنا ، وما زلنا نجدها ، أمام مذهبين متميزين في فلسفة « تحرير المرأة العربية والمسلمة » .

١ - مذهب تيار التجديد الديني والبعث الحضاري وإحياء الأصالة العربية الإسلامية .. الداعي إلى طى صفحة « الواحد التركي المملوكي » ، وجعل المرأة المعاصرة : الامتداد المتطور لسالفتها في حقبة ازدهارنا الحضاري الأولى .

٢ - ومذهب أنصار « الغزو الفكري التغريبي » ، الداعي إلى طى صفحات حضارتنا العربية الإسلامية جميعها ، لنبدأ في قضية « تحرير المرأة » من حيث انتهى فكر الحضارة الغربية وتطبيقاتها ، بدعوى أن مذهب الغرب هذا ، ونمودجه في هذا « التحرير » ، هو من « المشترك الإنساني العام » وليس من « الخصوصية الحضارية » التي تتمايز فيها الحضارات .

و تلك ، لعمرى ! قضية تحتاج إلى نظر أكيد من العقل  
الرشيد ! .

كثيرون لا يعرفون أن تاريخ الحضارة الغربية في  
« التفكير » و « الدعوة » لحقوق المرأة ، هو تاريخها الحديث ..  
فقبل القرن الثامن عشر والتاسع عشر لم يكن لذلك الأمر ذكر  
في عالم الحضارة الغربية بإطلاق .

ولا يظنن أحد أن حال المرأة الغربية في العصور الوسطى  
لحضارتها كان كحال المرأة العربية الإسلامية في عصور  
تراجعنا المملوكية العثمانية .. فالفوارق بينهما جذرية  
وشاسعة لا تقبل المقارنة أو التشبيه .. فما أنجزه الإسلام من  
تحرير للمرأة العربية والمسلمة منذ ظهور الإسلام استمر  
أغلبها قائماً في الريف والبداوة والأحياء الشعبية .. وحتى  
الشريحة التي قبعت في حريم قصور السراة والحكام والأمراء  
والأجناد فإنها لم تحرم من كل الحقوق التي منحتها إياها  
شريعة الإسلام .. فالذمة المالية المستقلة ، وحق الملكية ،  
والتصرف فيها ، ظلت قائمة دون انتقاص .. وكذلك أحکام  
الشريعة في الولاية على الأبناء ، وغيرها من الحقوق المتعلقة  
بالميراث ، وبالاعفاء من تبعات الإنفاق المالي في البيوت .. الخ .

أما في الحضارة الغربية ، فإن المرأة لم تكن شيئاً مذكوراً  
على الإطلاق .. كانت شبه منبودة ، ينظر إليها على أنها ناقصة  
الجسم والعقل والوجدان ، لا حق لها ولا نصيب في العلم ، أو

الحرية ، أو الملكية ، أو التعامل المالي ، أو الولاية على أبنائهما وحصانتهم ، حتى إذا مات والدهم في حياتها ! .. بل لقد نظروا إليها ، بناء على لاهوت الكنيسة .. ، باعتبارها جسداً بلا « روح » وزعموا أن ما بداخلها هو « شيطان » !؟ .

تلك كانت حال المرأة الغربية ، حتى العصر الحديث ، عندما بدأت « فكرة » و« دعوة » حقوق المرأة هناك في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

وإذا كان هذا هو تاريخ « تفكير » الغرب و« دعوته » لتحرير المرأة .. فإن هذا « الفكر » وهذه « الدعوة » لم ينتصرا ، فيتجسدا في دساتير الغرب وقوانينه إلا في القرن العشرين ! .

وبسبب من اقتران أفكار تحرير المرأة الغربية بالفكريّة الرأسمالية للثورة الصناعية ، فلقد اتخذت تلك الدعوة ذات الطابع والروح اللذين طبعاً نهضة الغرب وإحياءه في العصر الحديث .. الطابع المادي لحضارة الغرب ، والنظرة الرأسمالية للمرأة ، باعتبارها سلعة في سوق العمل الرأسمالي ، وسلعة في سوق الإغراء .. كما تميز مفهوم حريتها وتحررها بما تميزت به « الحرية » في الحضارة العلمانية الغربية ، من الانفلات الذي لا تلزمه شريعة إلهية ، ولا يلتزم بـ « قيم » الدين ! .. فتميزت

لذلك مفاهيم تحرير المرأة هناك بما تميزت به الحضارة الغربية عن حضارتنا العربية الإسلامية من خصوصيات .

فإذا كانت فلسفة « التحرير الإسلامي للمرأة » قد انطلقت من تحديد مكانتها بالنسبة للرجل ، باعتبارهما « شقان متكاملان ومتتساويان » .. فلقد انطلقت فلسفة الغرب في تحريرها من مقوله « النّذيّة » القائمة على « التمايز » بينهما .. فطمحت المرأة الغربية إلى أن تكون متساوية للرجل ، منكرة ومستنكرة تمييز الطبيعة بينهما ، فكان حلولها محل الرجل ، واقتحامها كل ميادين عمله الشاق ، و« استرجال » المرأة « انتصارات » توهمت أنها قد حققتها في ميدان التحرير !.

وإذا كان « التحرير الإسلامي » للمرأة ، لم يجد في « قوامة » الرجل على زوجه ماينافق هذا التحرير ، لأن هذه « القوامة » هي درجة في سلم القيادة استحقها الرجل لتميز طبيعته في ميادين بعينها ، دون أن تعنى هذه القوامة الانتهاك من مبدأ المساواة .. وبعبارة الإمام محمد عبده ، عند تفسيره للآلية الكريمة :

﴿ الْرِّجَالُ قَوَّمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَّيِّمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (١٢٠)

« فإن المراد بالقيام هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرعوس ببارادته و اختياره ، وليس معناها أن يكون المرعوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه ، فإن كون الشخص قياماً على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه ، أى ملاحظته في أعماله وتربيته .. » (١٢١) ..

فالقرآن الكريم قد قرن هذه « القوامة » بكمال المساواة الإنسانية بين النساء والرجال ، وذلك في قوله سبحانه :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٢٢)

وعن هذه المثلية في الحقوق والواجبات يقول الإمام محمد عبده في تفسيره لصدر هذه الآية

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ : « هذه الكلمة جليلة جداً ، جمعت على إيجازها ، ما لا يؤدي بالتفصيل إلا في سفر

(١٢٠) النساء : ٣٤ .

(١٢١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٥ ص ٢٠٨ .

(١٢٢) البقرة : ٢٢٨ .

كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق ، إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله : « وللرجال عليهن درجة ... حتى قال ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى كما تتنزين لي لهذه الآية : وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة إلا وللرجل عمل يقابلها لها ، وإن لم يكن مثله في شخصه ، فهو مثله في جنسه ، فهما متماثلان في الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل .. » (١٢٣) .

كذلك فإن قوامة الرجل على المرأة ، المؤسسة على تميز طبيعته في ميادين بعينها ، يقابلها ، ولا شك وبمنطق فطرة الله ، قوامة للمرأة في الميادين التي تميزها فيها طبيعتها .. فإذا كانت القيادة له فيما له به خبرة وجلد من الميادين ، فإنها الراعية والقائدة في ميادين العاطفة والأنوثة والحنو ، وإبداع واحة السكن الذي يلطف غلظة الحياة وقسوتها !

---

(١٢٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٤ ص ٦٣٠ .

وإذا كان «الراعي» هو «القائد ، والقيم» ، فإن الإسلام أم يحرم المرأة من القيادة والقيادة ، ولكنها حدد لها ميادينها ، المتفقة مع طبيعتها المتميزة ، كما صنع ذلك مع قوامة الرجال سواء بسواء .. ففي حديث الرسول ﷺ نقرأ عن «الرعاية والقيادة والقيادة» ، قوله عليه السلام : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامير الذي على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عنهم . والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم . والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم . وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (١٢٤) ..

فالقيادة والقيادة ليست وقفاً على الرجال ، وإنما هي مرتبطة بتميز الطبيعة وتميز ميادينها .. لأن فلسفة «التحرير الإسلامي» للمرأة قد راعت تفاصيل التكوين الطبيعي في إطار المساواة الإنسانية تحقيقاً لتكامل الذكر والأنثى ، ابتعاداً لستعادتها جمِيعاً !

أما فلسفة «التحرير الغربي» للمرأة ، فإنها اعتمدت «النُّدُيَّة» ، فجعلت معركة الأنثى ضد الذكر .. وظنلت أن تحررها كامن في «استرجالها» ، فقدتها إلى حال القط الذي قلد أسدًا ، حتى حرم من ميزات القط دون أن

---

(١٢٤) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

يكتسب ميزات الأسود ، متناسية أن فلسفة التكامل تقتضي التنوع بين المتكاملين .

وإذا كانت « الوسطية الإسلامية » - وهى الخصيصة العظمى لحضارتنا العربية الإسلامية - قد وضعت حرية الإنسان ، رجلاً أو امرأة ، فرداً كان أو أمّة ، في مكانها وسط إطار الشريعة الإلهية .. فجعلت « الحرية » ملتزمة ومحكمة بثوابت الشريعة ومقاصدها وحدودها .. فإن الطابع العلمانى - الفاصل بين الدين والدولة ، والمستبعد للدين من فلسفات العلوم ومناهج الفكر - قد أطلق العنان لحرية الإنسان الغربى ، فانطبعت بهذا الإطلاق فلسفة « التحرير الغربى » للمرأة الغربية .. فهى حرة في ابتدال الجسد وعرض مفاتنه على الجميع .. وحرة في إشاعة الجنس وتعيم اللذة ، طالما تم ذلك بالرضا لا بالاغتصاب ! .

لقد نشأت هذه الفلسفة « للتحرير الغربى » للمرأة الغربية ، كجزئية من جزئيات النهضة الرأسمالية الغربية ، ذات الطابع الليبرالى والروح العلمانية ، فحملت خصوصيات الحضارة الغربية ، في الطابع المادى ، وعبادة اللذة ، وانفلات الحرية من مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها .. كما حملت ذلك « الوهم » الذى أغرى المرأة « بالاسترجال » ، فشققت منها الروح والجسد جمياً ، الأمر الذى لم يتحقق لها جوهر الحرية وحقيقة التحرير ! .

فهى ، إذن ، « خصوصية حضارية غربية » ، تلك الصورة التى يبشر بها أسرى الغزو الفكرى التغريبى لحرية المرأة .. وليس أبدا ، من قبيل ما هو « مشترك إنسانى عام » ..

\* \* \*

هكذا ... وبعد هذه الرحلة عبر ميادين الفكر الذى بشرت وتبشر به « النخبة » المتغربة ، ومقارنته بنظيره في حضارتنا العربية الإسلامية .. وضحت لكل ذى سمع وبصر وفؤاد الحدود الفاصلة بين ما هو :

- مشترك إنسانى عام ، لا يتمايز ولا يختلف باختلاف الحضارات والقوميات والمذاهب والمعتقدات .. ويدخل في ذلك كل علوم المادة والطبيعة والتجريب ، وحقائقها وقوانينها .. وكثير من التجارب الإنسانية المجردة من الفلسفات .. والعديد من ثمرات الخبرات الإنسانية في المؤسسات والوسائل والسبيل ، التي سلكتها الأمم في عمارة الكون وتنمية الثروات ..
- وخصوصيات حضارية ، تتمايز بتميز الحضارات ذات الفلسفات والمثل المتمايزة .. ويدخل في ذلك كثير من العلوم الإنسانية ، التي تتمايز بتميز موضوع بحثها : النفس الإنسانية المتميزة بالفلسفة والمعتقد والمواريث المكونة ومعطيات الإقليم وثمرات المحيط الذى تعيش فيه ..

وإذا كان «المشتراك الإنساني العام» هو أشبه ما يكون «بالهواء» الذي لا يعرف ولا يعترف بالحدود الفاصلة بين القوميات والحضارات .. فإن «الخصوصيات الحضارية» ، هي أشبه ما تكون «بالمجيش» ، الذي لا يصح أن يعبر الحدود الحضارية إلا عندما تثبت الحاجة إليه ، ويتم الاستدعاء له ، وبالحجم الذي هو مطلوب ليفيد ! .. فهنا ، لابد من العرض على المعايير الحضارية والموازين الحاكمة للهوية القومية ، ليتبين ما هو دعم للذات وتنمية لاستقلاليتها وتميزها ، من ذلك الذي يمثل المساند والنسخ والتشويه لهذه الذات .

تلك هي «شهادة الفكر» على ما هو من المشترك الإنساني العام ... وما هو من الخصوصيات الحضارية في عطاء الحضارات الإنسانية وإبداعها .

\* \* \*

والآن .... مازا عن «شهادة التاريخ» في هذا الموضوع ؟ ! ..



شهادة التاريخ  
على  
قانون التفاعل الحضاري



## التفاعل الحضاري

بيننا وبين : الفرس .. والروم .. والهنود .. واليونان

وغير « شهادة الفكر » - التي قدمنا أدلتها وبراهينها - على تميز ما هو « مشترك إنساني عام عن ما هو « خصوصية حضارية » في الفكر الإنساني .. فإن هناك « شهادة التاريخ » على أن اللقاء والتفاعل الذي عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة ، المالكة لما هو « مشترك » ولما هو « خاص » ، قد تم وفق هذا القانون ، وحكمه هذا التمييز .. فالنقاء الحضارات - وهو معلم من معالم التاريخ الحضاري للإنسانية - وتفاعل هذه الحضارات ، عندما تلتقي ، هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه .. لكنه قد تم دائمًا وأبدًا وفق هذا القانون الحاكم : التمييز بين ما هو مشترك إنساني عام ، تفتح له الأبواب والنوافذ ، بل ويطلبه العقلاه ويجدون السعي في تحضيره .. وبين ما هو خصوصية حضارية ، يدققون - في حذر - قبل استلامه وتمثله ، ويعرضونه على معايير حضارتهم لفرز ما يقبل منه ويُتمثّل ، من ذلك الذي يرفضونه ، لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية ، وقيمهم الاعتقادية ، وأصولهم التي تكون ما يشبه « البصمة » للشخصية الحضارية والقومية ، التي هي مناط التمييز ، رغم التطور والتفاعل الذي تمارسه هذه الشخصية مع الآخرين .

ونحن إذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على اللقاء  
الحضارات وتفاعلها ، والذى عمل خلاله هذا القانون ، فإن  
لدينا مثالين شهيرين ، وأيضاً وثيقاً الصلة بموضوع هذا  
الحديث .

أولهما : لقاء حضارتنا العربية الإسلامية ، إبان نهضتها  
وإزدهارها ، بالحضارات الفارسية .. والهندية ..  
واليونانية ..

وثانيهما : لقاء الحضارة الغربية ، إبان نهضتها ،  
بحضارتنا العربية الإسلامية .

على أي نحو وفي أي المجالات كان الاستلهام ؟  
.. وعلى أي نحو وفي أي المجالات كان الحذر والرفض للغزو  
الفكري ؟ ..

إنها « **شهادة التاريخ** » على عمل هذا القانون .. تدعم  
« **شهادة الفكر** » التي قدمناها فيما سبق من صفحات .  
● ليس هناك شك في أن الفتح العربي للامبراطورية  
الفارسية ، ودخول الفرس - بمواريثم الحضارة الغنية - في  
 إطار الدولة الإسلامية ، قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل  
 حضاري واسع وعميق وخلق بين الحضارة الفارسية وبين  
 الفكر الإسلامي ، الذي كان النواة التي تتبلور من حولها  
 الحضارة العربية الإسلامية الجديدة .. ولقد زاد من فرص

هذا التفاعل ما بلغه العنصر الفارسي ، حامل الميراث الحضارى الفارسي ، من موقع مؤثرة في دوائر الفكر والسلطة ، في دولة الخلافة ، وخاصة العباسية منها .. وما بلغه العلماء ، من ذوى الأصول الفارسية ، بميدان الفكر من جودة في الإبداع وتنوع في ميادين العطاء .

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامي ، إبان تبلور حضارته ، وبين الميراث الفارسي الوافد والطارئ بعد الفتوحات ، يستطيع أن يميز بين ما « قُبِلَ » وبين ما « رُفِضَ » ، أو ووجه بالمعارضة والمقاومة من هذا الميراث .

لقد فُتِحتْ فارس على عهد الراشد الثاني عمر ابن الخطاب .. وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى في الدولة الإسلامية : النيل ، وبردى ، ودجلة ، والفرات .. ولم يتردد عمر بن الخطاب في تبني النظام الفارسي في ضريبة الأرض الزراعية ، والذى كان يسمى « وضائع كسرى » ، وظل سائداً ومعمولًا به حتى عدل في ظل الدولة العباسية .. فهنا تم استلهام تجربة حضارية وخبرة قومية في طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية .

لكن العرب كانوا حذرين كل الحذر ، وشديدي الرفض والمقاومة لكل ما هو « خصوصية حضارية » فارسية تتعارض مع معايير الإسلام وجوهر معتقداته ، وخصائصه الحضارية

المتميزة .. لقد رفضت الخلافة الإسلامية - وهي نمط متميز في نظم الحكم - ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية في نظام الحكم وفلسفته السياسية ، التي كانت ترى رأس الدولة - كسرى - إبنا للإله « أهورا - مزدا » ، يحكم باسمه ، ونيابة عنه ، زاعماً أن لقانونه وتنفيذها قداسة الإله والدين .. كذلك رفضت حضارتنا الإسلامية ميراث الفرس في « النظام الطبقي المغلق » ، لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات .. والذين يقرؤون مصنفات علماء الإسلام في « الملل والنحل » وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية ، يدركون المقاومة الباسلة التي ووجهت بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم من قبل حضارتنا العربية الإسلامية .. فالمجوسية والزرادشتية .. ومذاهب مثل المانوية « الثنوية » بفرقها المتعددة .. تحتل معارضتها صفحات كثيرة في عشرات المجلدات التي تصدت للواحد الضار والمرفوض .. وكذلك صنع المتكلمون وال فلاسفة المسلمين مع « الغنوشية » التي كانت ثمرة هلينية في تربة التصوف والعرفان الشرقي ، اتجهت إلى تحصيل المعرفة بالذوق والحدس ، وليس بالعقل أو الحواس ..<sup>(١٢٥)</sup> ..

---

(١٢٥) انظر في تفصيل ذلك : [ الملل والنحل ] للشهرستانى . و[ الفصل في الملل والأهواء والنحل ] لابن حزم . وكتابنا [ رسائل العدل والتوحيد ] - تحقيق ودراسة - وكتابنا [ المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ] .

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العملية ، ولعلوم التمدن العملي .. كان الحذر ، بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفة لمعاييرنا الحضارية ، إن في السياسة أو في الاجتماع أو في الدين أو في الفلسفات .

● وكذلك كان حال حضارتنا عندما فتحت الشام ومصر وببلاد الشمال الأفريقي ، ذات الميراث البيزنطي .. ففى الوقت الذى تبنى فيه عمر بن الخطاب « تدوين الدواوين » - وهو خبرة إدارية بيزنطية .. وسعت الدولة الأموية - ممثلة فى أميرها خالد بن يزيد [ ٩٠ هـ ٧٠٨ ] إلى « مدرسة الإسكندرية » فبدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية وفنون التمدن العملي ، والتى سميت بـ « علوم الصنعة » .. ففى ذات الوقت الذى تبنت فيه حضارتنا هذا اللون من المعرف والعلوم والتجارب الإنسانية ، كانت حربها ضد « الفنوصية » خاصة ، والهلينية في الفلسفة والعقائد والتصورات بوجه عام ، وكذلك معارضتها لعقائد ومذاهب المسيحية ، التي أخرجتها الروح الهلينية عن نقاء عقيدة التوحيد .. كان ذلك « شهادة » تاريخ التفاعل الحضارى على عمل قانون التمييز بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنسانى عام » .. فالباب مفتوح « لعلوم الصنعة » ، موصد أمام « شريعة الرومان » ! .

● ومع الحضارة الهندية ، عندما التقت حضارتنا الإسلامية بمواريث الهندوس ، عمل ، كذلك ، هذا القانون . فالبيرونى [ ٣٦٢ - ٤٤٠ هـ - ٩٧٣ - ١٠٤٨ م ] الذى نهض بمهام وأعباء « البعثة العلمية » ، عندما عاش بالهند أربعين عاماً ، عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها ، والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العقلى المتفرد ..

البيرونى هذا ، يعلمنا - دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه كيف ميز أسلافنا في تراث الهند ، مثلاً بين « الحساب الهندى » و « الفلك » ، فأخذوها وطوروها - وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية .. إلخ - كيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، التي أخذوها وطوروها ، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها ، التي رفضوها ، لتعارضها مع التوحيد الإسلامي ، ومع إلهية المصدر الدينى في الإسلام ، كديانة سماوية نزل بها الوحي على الرسول ، عليه الصلاة والسلام<sup>(١٢٦)</sup> .

\* \* \*

---

(١٢٦) انظر للبيرونى : [ تاريخ الهند او تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل او مزدولة ] تحقيق سخاوى . طبعة لندن ١٨٨٧ م .

● وإذا كان الخلاف غير وارد ، أو غير مبرر ، مع هذه الحقائق التي قدمناها عن عمل «قانون التفاعل الحضاري» ، في التقاء حضارتنا العربية الإسلامية بمواريث الفرس والروم والهنود .. فإن خلافاً وجداً لابد وأن يثور عندما نقول : إن أسلافنا قد أعملوا هذا القانون ، على هذا النحو ، عندما افتحوا وتفاعلوا - على النحو المعروف - مع تراث اليونان .. ذلك أن ترجمة العرب للفلسفة اليونانية ، واحتفاءهم بهذه الفلسفة ، والمنزلة التي بلغها فلاستتها - وخاصة أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م] وأفلاطون [٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م] - في التراث الفلسفى لحضارتنا .. كل ذلك لابد وأن يثار كاعتراض على قولنا إن التبني والاستلهام قد وقف عند علوم الصنعة : الطبيعية ، والعملية ، والتجريبية .. وإن الحذر والمعارضة والرفض قد جابهت الإنسانيات - والفلسفة في مقدمتها .. ولذلك فلابد من وقفة متأنية ، نختبر فيها جدية هذا الاعتراض وصدق مضمونه ، لنرى وجه الحق في هذا الموضوع .

وبالطبع ، فليس هناك خلاف على أن العرب قد سعوا إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية ،أخذين إياها من مصادرها الشرقية - أساساً - في البلاد التي فتحوها .. فترجموا تراث اليونان في الطب والكيمياء والهندسة والرياضيات والميكانيكا (الحيل) والزراعة والمناظر والحساب والمنطق .. وغيرها من

العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية ، ثم أضافوا إليها إبداعهم الذي شهد به المنصفون من علماء الغرب وأساتذة الاستشراق .

كذلك ، لا خلاف على أن هناك ميادين في المعتقدات والإنسانيات اليونانية قد نفر منها العرب فضربوا عنها صفحات ولم يترجموها ، ولا حتى للمتخصصين من العلماء .. وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية وأساطير آلهتها .. وأداب اليونان وفنونها .

إذن ، مبدأ التمييز قائم ، وبه وعليه يشهد تاريخ التفاعل بيننا وبين حضارة اليونان لكن علامه الاستفهام تظل خاصة بحقل الفلسفة .. لماذا أعطى العرب هذا الوزن الكبير لفلسفة « اليونان » ترجمة وشرحها ، حتى تضخمت آثارها في تراثنا الحضارى !؟ ..

وعلى هذا السؤال المشروع ، نجيب الإجابة التي تؤكد صدق واطراد « قانون التفاعل الحضارى » الذي ميز ، دائمًا وأبدا ، بين ما هو « خصوصية حضارية » وبين ما هو « مشترك إنساني عام » .

● لقد كانت المواجهة الأولى بين خصوصيتنا الحضارية وبين الخصوصية اليونانية عندما واجه الإسلام النمط الهليني في النظر والتفكير ، والتي كانت « الغنوصية » أبرز مذاهبه في

نظريات المعرفة .. كانت الهلينية - كما وجدها العرب في البلاد التي فتحوها - هي « اليونانية الشرقية » التي امتنج فيها الفكر الفلسفى اليونانى بصوفية الشرق وروحانيته ، ومع هذه الهلينية كانت أولى معارك الإسلام الفكرية .

والحقيقة التي يجهلها الكثيرون ، هي أن المسلمين الذين أبدعوا « عقلانيتهم الإسلامية » المتميزة ، وعلم الكلام الإسلامي ، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة ، منذ النصف الثاني من القرن الهجرى الأول ، وقبل ترجمة اليونانيات .. هؤلاء المسلمون قد اتجهوا إلى ترجمة الفلسفة اليونانية ، وترجمة عقلانية أرسطو ، أو لا وبالتحديد لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام ، وإنما ليرووا بها - كسلاح يونانى - على الهلينية - وثمرتها الغنوصية - التي هي تأثيرات يونانية مزجت بصوفية الشرق وروحانية الشرقيين .. فأنصار الغنوصية كانوا - كمتغربى زماننا - أثراً يونانياً في الشرق ، وامتداداً شرقياً لفكرة اليونان .. فعمد علماؤنا وأعلامنا إلى ترجمة العقلانية اليونانية ليرووا بها على أنصار اليونان ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم : إذا كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافق ومستورد ويونانى الصنع ، فها نحن نجابهكم بأرسطو ، المعلم الأول عند اليونان ، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق !! نجابهكم بالعقلانية اليونانية ،

نقضا لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية ،  
استخداما للأسلحة التي تحترمون وتعظمون !<sup>١٩</sup>  
ولنا على هذا التحليل أكثر من دليل ..

١ - كانت الهلينية ، و«الغنوصية - الباطنية» ، هي  
«تغريب» ذلك العصر ، «والغزو الفكري» الذي أصاب به  
الغرب اليوناني الشرق منذ انتصار الاسكندر الأكبر [ ٣٥٦ -  
٣٢٣ ق . م ] على الدولة الفارسية [ ٣٣٣ ق . م ] وبنائه  
امبراطوريته الشرقية .. ولقد غبشت هذه الهلينية توحيد  
المسيحية الشرقية الأولى .. فلما ظهر الإسلام خاضت ضده  
المعارك ، في البلاد التي فتحها المسلمون .. لكن الإسلام ، بعد  
أن بلور عقلانيته المتميزة ، تقدم فاستعلن بالعقلانية  
الأristقية في نضاله ضد الهلينية والغنوص .. فكانت - كما  
أشرنا - ترجمة الفلسفة اليونانية استعana بحقيقة الفكر  
اليوناني على هزيمة صورته الشرقية المهجنة .. وبسلاح  
معترف به من الغنوصيين !<sup>٢٠</sup>

وعلى هذه الحقيقة يشهد شاهد من أهلها ، هو المستشرق  
الألماني بكر (كارل هينريش) Becker, G . H [ ١٨٧٦ -  
١٩٣٩ م ] عندما يقول : «إننا نرى كفاح المسيحية من أجل  
استقلالها وتوكيد ذاتها بآباء الروح اليونانية المجددة في  
«الغنوص» ، يتكرر من جديد في الإسلام في القرون الأولى  
تحت أسماء أخرى : فكما كانت المسيحية الأولى معادية

للروح الهلينية ، كان الإسلام في الصدر الأول على العموم معاديا هو الآخر للروح الهلينية .. والميزة الرئيسية للقرآن هي أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهلينية في عصر تغلغلت فيه الهلينية . وفي اللحظة التي تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول ، بدأ الصراع والتصادم .. إن المانوية والزرادشتية كانتا ، بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية . وإن « غنوص » المانوية والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً . لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية في الإسلام ، ونعني بها المعتزلة ، قد استفادت بعضاً من أصولها ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية . وفي كل هذه الألوان من الكفاح تكونت جبهة كفاح فريدة في بابها ، فالدولة والمذهب الديني الرسمي يسيران هنا ، كما يسيران في كل مكان ، جنبا إلى جنب وفي صف واحد ، لكنهما في كفاحهما ضد « الغنوص » الذي لا يعترف لأحد بسلطان ، يهربان بالروح اليونانية الحقيقة - [ الفلسفة اليونانية ] كى تساعدهما .. لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينيا وسياسيا ، وفي هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية ، وعنى بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية .. فكان الإسلام الرسمي قد تحالف إذاً مع التفكير اليوناني والفلسفة اليونانية ضد « الغنوص » الذي كان خليطاً من المذاهب القائمة على

النظر والمنطق ، وعلى مذاهب الخلاص . ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية . وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له . لكن ، إذا كانت الرغبة في ترجمة كتب الأطباء القدماء قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب فلعل ترجمة كتب أرسطو أن تكون قد نشأت ، بالضرورة ، عن حاجة عملية كذلك . وإنما إذا كانت المسألة مسألة حماسة للعلم ورغبة خالصة في تحصيله فحسب ، لكان هو ميرور اصحاب المأسى من بين من ترجمت كتبهم أيضاً ، لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها ، ولم يشعروا بحاجة ما إليها<sup>(١٢٧)</sup> ..

تلك شهادة المستشرق الألماني «بكر» على أن ترجمة الفلسفة اليونانية - والاهتمام بعقلانية أرسطو خاصة - لم تكن عن رغبة في جعلها فلسفة الإسلام والمسلمين ، وإنما كانت استعاناً بالعقلانية اليونانية الصريحة على هزيمة الغزو الفكري اليوناني ، كما تمثل في خليط الهلينية والغنوش .

---

(١٢٧) بكر [وارث ووارث] بحث منشور بكتاب [التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية] من ٧ - ١١، ٩. ترجمة د. عبد الرحمن بدوى. طبعة القاهرة عام ١٩٦٥ م.

وبقدر الأهمية المحورية لهذه الحقيقة التاريخية ، فإنها تستحق وقفة متأنية تجلو حقيقتها كامل الجلاء .

إن « الغنوصية » - كمذهب باطنى عرفانى - كانت قائمة على إنكار « الخصوصية الحضارية » - مثلها في ذلك مثل « الغزو الفكري التغريبي » الحديث والمعاصر - ذلك أنها قد جمعت ، بالتلقيق ، خليطاً « يونانياً غربياً » و« إسرائيلياً وفارسياً شرقياً » ، ثم مزجته مزجاً شديداً ومحكماً .. ولكن دون أن تستطيع إخفاء الملامح الأصلية لأصولها الثلاثة :

١ - **الأفكار القبالية** : المتمثلة في الديانة الشعبية الإسرائيلية .. بما فيها من سرية التعاليم .. والرموز الخفية في التوراة .. والقول بإله تصدر عنه الأرواح المدببة للكون .. ورمزية الأعداد والحروف .. والحديث عن الإنسان باعتباره « العالم الأصغر » ، الذى جاء على صورة « العالم الأكبر » .

ب - **الأفلاطونية الحديثة** : كما تمثلت في مذهب أفلوطين [ ٢٠٤ - ٢٧٠ م ] .. بما تمثله من نزعة توفيقية بين الآراء الفلسفية المختلفة .. وكما تمثلت وتبثورت في « مدرسة الأسكندرية » من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادى .

ج - **الديانات والمذاهب الفارسية** : كما تمثلت في مانوية « مانى » - [ القرن الثالث الميلادى ] - .. تلك التى حاولت التوفيق بين المسيحية وبين الزرادشتية .. وقالت بثنائية النور والظلمة ، إلهين للخير والشر ... وكما تمثلت في المزدكية - إحدى فرق المانوية .

تلك هي أصول «الغنوصية» ، كمذهب تلفيقي ، يجعل عقیدته أسراراً يضن بها على غير أهلها ، ويسمى بها على عامة المؤمنين ، وعلى العقيدة الرسمية ، ويمزج الدين بالفلسفة - بمعناها اليوناني المثالى - ويعتمد في تصور الذات الإلهية على نظرية «الفيض والصدور» .. الأمر الذي جعله مأوى للمعتقدات السرية والخفية ، بل والملحدة أحياناً .. ! (١٢٨)

وكما يقول «ماسينيون» Massignon,1 [ فإن أصول «الغنوصية» في المرحلة [ ١٨٨٣ - ١٩٦٢ م ] التي تصدت فيها لمحاربة المسيحية الأولى - حتى غبشت توحيدها - كانت «ساميرية - يونانية» .. أي أن الإسرائيليات مع الوافد اليوناني ، قد مثلاً أصول «الغنوصية» في مرحلتها المسيحية .. أما في مرحلتها الإسلامية ، التي تصدت لمحاولة إفساد عقائد الإسلام ، وتجريد حضارته من خصوصيتها الإسلامية ، فإن أصولها قد كانت - إلى جانب الوافد اليوناني - «مانوية ، أعني آرامية وإيرانية .. » (١٢٩)

(١٢٨) انظر معانى هذه المصطلحات في [المعجم الفلسفى] وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة عام ١٩٧٩ م .

(١٢٩) ماسينيون [سلمان الفارسى والبواكير الروحية للإسلام في إيران] بحث منشور في كتاب [شخصيات قلقة في الإسلام] ص ١١ . ترجمة د . عبد الرحمن بدوى . طبعة القاهرة عام ١٩٦٤ م .

وإذا كان الإسلام ، كما أمن به أهل السنة والجماعة ، قد تصدى لفكرة « الغنوسي » ورفضها .. وإذا كانت مؤلفات علم الكلام الإسلامي ، ومصنفات « الملل والأهواء والنحل » زاخرة بالتفنيد لمقولات الفنوصيين وأرائهم - وخاصة ما كتبه المعتزلة والتيار العقلاني الإسلامي في هذا المقام - فإن العديد من المذاهب الشاذة ، وأفكارها المغالبة ، قد مثلت ، في تراثنا ، آثار « الغزو الفكري » « الهليني - الغنوسي » ، وبصمات النجاح التي حققها هذا الغزو في صراعه ضد نقاء الفكرية الإسلامية ، والخصوصية الحضارية لحضارتنا العربية الإسلامية . وعلى سبيل المثال :

● - فـ **الإسماعيلية** : - بفروعها ، وفرقها - قد مثلت نموذجاً لهذا الغزو الفكري الغنوسي في تراث الإسلام .

فإذا كانت صورة الرسول ﷺ في القرآن الكريم ، وفي السنة الفعلية التي جسدت حياته بين الناس ، هي صورة « البشر - الذي يوحى إليه » .. وهي الصورة التي ألح القرآن على تأكيدها ليزيل بها تراث الغنوسيه والباطنية في الخوارق المادية التي لازمت ذات الرسول في هذا الفكر غير العقلاني ..

فقال القرآن في مواجهة هذا الفكر ، تفنيداً له :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
إِلَّا كُفُورًا ۝ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجُولَنَا مِنَ الْأَرْضِ  
يَنْبُوْعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ مُخْيِلٍ وَعِنْبٍ فَنَفْحِرَ الْأَنْهَرَ  
خَلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي  
بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَيْلَالًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ رُخْفٍ أَوْ تَرْقَى  
فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْبِكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَبًا تَقْرُؤُهُ دُلْ  
سُبْحَانَ رَبِّ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝ ۝ ۝ (١٣٠)

وهذه الصورة القرآنية لحقيقة الرسول ، هي التي نراها في سلوك النبي ، وفي أحاديثه التي أفادت في تبيان وتفصيل هذا المعنى القرآني ، من مثل قوله لمن ارتعد في حضرته : « هُوَنَ عَلَيْكَ ، فَلَسْتَ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَارٍ ، وَإِنَّمَا أَنَا بْنُ امْرَأٍ مِّنْ قَرِيشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » ! (١٣١)

وإذا كانت صورة «الإمام» في الإسلام هي صورة «ال الخليفة» ، الذي تختاره الأمة - بواسطة أهل الاختيار -

١٢٠ (السراة : ٨٩ - ٩٣)

(١٢١) فَأَبْنَى دَاؤِدُ وَابْنَ مَاجَةَ ، قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جِبَارًا عَنِيدًا ـ .

بالشوري ، وتباعيـه علىـ أن يـنفذ الشـريـعـة ، تـحت سـمعـها وـبـصـرـها وـرـقـابـتها وـحـسـابـها .. فـهـوـ نـائـبـ عـنـها ، وـهـىـ مـصـدرـ سـلـطـاتـه .. وـلـهـاـ عـلـيـهـ حـقـ العـزلـ إـنـ هـوـ عـجـزـ أـوـ انـحـرـفـ عنـ حدـودـ وـنـطـاقـ التـفـويـضـ .

إـذـاـ كـانـتـ هـذـهـ هـىـ صـورـةـ النـبـيـ وـالـإـمـامـ فـيـ فـكـرـ الإـسـلـامـ ، فـلـقـدـ قـدـمـ الغـنـوـصـ ، مـنـ خـلـالـ فـكـرـ الإـسـمـاعـيـلـيـةـ ، وـبـعـضـ فـرـقـ الإـمـامـيـةـ ، لـلـنـبـيـ وـلـلـأـئـمـةـ صـورـةـ باـطـنـيـةـ مـلـيـئـةـ بـالـأـسـرـارـ وـمـحـمـلـةـ بـالـخـواـرـقـ ، وـمـتـقـلـةـ بـالـخـرـافـاتـ الـتـىـ تـبـاعـدـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ عـقـلـانـيـةـ الإـسـلـامـ .. فـعـنـدـهـمـ أـنـ الـأـئـمـةـ ، وـمـعـهـمـ النـبـيـ ، قـدـ وـجـدـواـ قـبـلـ خـلـقـ الدـنـيـاـ ، وـقـبـلـ خـلـقـ آـدـمـ .. وـأـنـ حـقـيقـتـهـمـ النـورـانـيـةـ قـدـ اـنـطـبـعـتـ فـيـ عـرـشـ الرـحـمـنـ مـنـ يـوـمـئـ .. وـأـنـ اللهـ قـدـ طـلـبـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ السـجـودـ لـجـوـاهـرـهـمـ عـنـدـمـاـ وـضـعـتـ فـيـ ظـهـرـ آـدـمـ ، فـلـهـمـ لـاـ لـآـدـمـ - كـانـ طـلـبـ السـجـودـ ! .. « فـحـينـ خـلـقـ اللهـ آـدـمـ وـضـعـ فـيـ ظـهـرـهـ مـحـمـداـ وـعـلـيـاـ وـفـاطـمـةـ وـابـنـيـهـمـاـ الـحـسـنـ وـالـحـسـيـنـ ، عـلـىـ صـورـةـ جـواـهـرـ مـنـيـةـ أـرـسـلـتـ نـورـهـاـ فـجـمـيعـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـينـ الـعـلـوـيـ وـالـسـفـلـيـ . وـلـهـذـهـ الـجـواـهـرـ الـمـوـضـوـعـةـ فـجـسـمـ آـدـمـ كـانـ السـجـودـ الـذـىـ أـمـرـ اللهـ الـمـلـائـكـةـ بـهـ ، فـسـجـدـواـ إـلـاـ إـبـلـيـسـ أـبـىـ وـاسـتـكـبـرـ ، وـحـيـنـئـ آـمـرـ اللهـ آـدـمـ أـنـ يـرـتـقـعـ بـبـصـرـهـ إـلـىـ ذـرـوـةـ الـعـرـشـ ، فـرـأـىـ آـدـمـ كـيـفـ اـنـطـبـعـتـ صـورـ أـنـوـارـ أـشـبـاحـ مـحـمـدـ

وآل البيت في العرش ، كما ينطبع وجه الإنسان في المرأة الصنافية ! .. » (١٢٢)

تلك هي صورة الغنوص الباطنى ، اللاعقلانية ، انتشرت في كثير من مذاهب الإمامية ، وبخاصة الإسماعيلية منهم ، ولا زالت تحتل لها ركناً في هذه المذاهب حتى يومنا هذا .. حتى ليقول أبرز قادتهم المعاصرين في هذه القضية ما نصه : « إن ثبوت الولاية والحاكمية للإمام لا تعنى تجرده عن منزلته التي هي له عند الله ، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام .

فإن للإمام مقاماً مموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون - [ ؟ ! ] - وإن من ضرورات مذهبنا أن لأنمنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ، ولا نبى مرسلاً - [ ؟ ! ] - وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم ، أنواراً ، فجعلهم الله بعرشه محدثين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفي ما لا يعلمه إلا الله .. » (١٣٣)

---

(١٢٢) جولد تسىهر [ العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في الحديث ] . بحث منشود في كتاب [ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ] ص ٢٢٦ .

(١٣٣) آية الله الخميني [ الحكومة الإسلامية ] ص ٥٢ . طبعة القاهرة عام ١٩٧٩ م .

وفي « الغنوص - الإسماعيلي » تأكيد لهذا الوجود الحمدى السابق على الخلق ، من خلال مقولتهم التى تزعم أن الحقيقة الحمدية هى التى تجلت في صور الأنبياء والرسل المختلفة .. فليست هناك تعددية في الرسل ، وإنما التعددية فقط « في المظهر الخارجى ، أما في الحقيقة ، فإنه رسول واحد ، بعث إلى العالمين في أزمنة مختلفة وفي مظاهر جسمانية متباعدة .. ! .. وهذه المقوله - كما يقول جولد تسىهر Goldziher,y [ ١٩٢١ - ١٨٥٠ ] : « ترجع في أصلها إلى الغنوصية المسيحية ، أى إلى الفكرة التي عبرت عنها الموعظة المنسوبة إلى القديس كليمانس ، فقالت - [ الموعظة رقم ١٨ - فقرة ١٣ ] - : « ليس ثمة غير نبى صادق واحد ، هو إنسان خلقه الله وزوجه بروح القدس ، يمر خلال عصور العالم من البدء بأسماء وصور متغيرة .. » !<sup>(١٣٤)</sup>

وانطلاقاً من هذا « الغنوص - الإسماعيلي » ، كان نفى « البابية » و« البهائية » عقيدة ختام النبوة والرسالة بمحمد ﷺ عندما زعموا استمرارية تجلى الحقيقة النبوية ، في صورة « الباب » ، ثم « البهاء » .. فقال « الباب » عن نفسه : « كنت في يوم نوح نوحاً .. وفي يوم إبراهيم إبراهيم .. وفي يوم موسى موسى .. وفي يوم عيسى عيسى .. وفي يوم محمد

---

(١٣٤) جولد تسىهر . المرجع السابق . ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

محمدأً . وفي يوم على علياً . ولا تكون في يوم من يظهره الله من يظهره الله . وفي يوم من يظهره من بعد من يظهره الله من بعد ... إلى آخر الذى لا آخر له مثل أول الذى لا أول له .  
كنت في كل ظهور حجة الله على العالمين .. »<sup>(١٣٥)</sup>

فهذا « الغنوص - الباطنى - اللاعقلانى » ، مازال قائماً -  
معبراً عن الغزو الفكرى الهلينى - حتى يومنا هذا .. بدأ من مصدره : « نظرية الصدور في الأفلاطونية المحدثة » ، وحتى أحدث طبعات « التجليات » البابية والبهائية ؟ ! .

ولذلك ، فلم يكن غريباً أن تكون رحى الصراع الفكرى الأكبر في علم الكلام الإسلامي - فلسفة الأمة - قائمة ومنتصبة بين فرسان العقلانية الإسلامية ، المعتزلة ، وبين الإمامية بفرقها وفروعها ، في مبحث الإمامة على وجه الخصوص .. وأن يكون تركيز المعتزلة ضد الفرق الغنوصية الفارسية ، وثمراتها من متصوفة الباطنية ، دعاء « وحدة الوجود » ، كالحلاج [ ٣٠٩ - ٩٢٢ هـ ] وأضرابه .. كما لم يكن غريباً أن يستعين المسلمون بالعقلانية اليونانية ، في صورتها الأرسطية ، لمواجهة الغنوص ذى الجذر اليونانى ! .

● - السهورودى : ويأتى السهورودى المتصوف ، شهاب الدين [ ٥٤٩ - ٥٨٧ هـ - ١١٥٤ - ١١٩١ م ] ليعلن

---

(١٣٥) المرجع السابق . ص ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

في صراحة وشجاعة عن مصادر هذا الغنوص الإسماعيلي ، الذي كان مذهبة في التصوف تجسيداً له .. فأصحابه وسلفه « هم حكماء وأنبياء الفرس واليونان ، يتجاوزون في سلسلتهم : زرادشت وأفلاطون .. وأفلاطون هو الاستمرار لزرادشت .. والحلاج مسلوك في هذه السلسلة .. التي يأتي السهوروبي حلقة من حلقاتها .. وعنده أن «نبي إيران زرادشت هو القائم على هذا التداخل الديني بين اليونان وإيران ..» .. أما الكتاب المقدس لهذا « الدين - الغنوصي » ، فهو مزيج من «محاورات أفلاطون » ، و« الكتب المستوره » ، و« الوحي الكلداني » ! ..

لقد أعلن السهوروبي عن مصادر هذا الغنوص .. وأكده ب موقفه وإبداعه الغنوصي الحقيقة التي نلح على إبرازها ، وهي أن ترجمة الفلسفة العقلانية الأرسطية كانت مددًا من السلاح الذي استخدموه المسلمون في محاربة هذا الغنوص الباطني .. « ففكرة النور ، التي أوحى بها إلى السهوروبي النبوة الإيرانية القديمة » كانت الرد الصوفى الذى واجه به الفلسفة العقلانية .. قدمها - فكرة النور ومذهبة - « في مقابل الطبيعيات السماوية عند أرسطو ، معبراً عن نفسه بلغة علم الملائكة في إيران القديمة ! » .. كما يقول المستشرق الحجة في

فکر السهوردى هنرى كوربان Hernrey Corbin (١٣٦)

ولذلك ، فلم يكن غريباً أن يخوض السهوردى معركة نقد العقلانية اليونانية ، التى استعان بها الإسلام فى محاربة هذا الغنوص .. فنرى من بين كتبه كتاباً مثل : [ كشف القبائج اليونانية ورشف النصائح الإيمانية ] ، وكتابه الذى يقول فيه القرآن كى يشهد « للذوق - الباطنى - الصوف - الغنوصي » ضد « البرهان العقلى » ، وهو الكتاب الذى أسماه : [ أدلة العيان على البرهان فى الرد على الفلاسفة بالقرآن ] ! (١٣٧) .

وبسبب من مكان الديانات والمذاهب الفارسية فى هذا الخليط الهلينى ، الذى تجسد فى هذه الغنوصية ، فلقد ذهبت الحركات الفكرية التى تبنت هذا الوافد المناهض لخصوصية الإسلام وحضارته ، ذهبت لتعلى من مقام الفرس ، ولتضع لهم مكاناً متميزاً وممتازاً فى « الإسلام الغنوصي » الذى تصورته وبشرت به .. فلم تقف عند الغلو الذى أحاطت به آل البيت ، بسبب زواج الإمام الحسين بن علي بن

---

(١٣٦) انظر هنرى كوربان [ السهوردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقي ] ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٢٢ ، بحث منشور في كتاب [ شخصيات فلقة في الإسلام ] - مرجع سابق - .

(١٣٧) جولد تسپيهر [ موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأولئ ] ص ١٢٩ ، ١٣٠ . بحث منشور في كتاب [ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ] ترجمة د . عبد الرحمن بدوى - طبعة القاهرة عام ١٩٦٥ م .

أبى طالب ، رضى الله عنهم ، من « الشهبانو » ، ابنة يزدجرد [ ٦٣٢ - ٦٥٠ م ] ملك الفرس المهزوم .. وإنما صنعوا ، بغنوصهم الباطنى ، لسلمان الفارسى [ ٣٦ هـ - ٦٥٦ م ] رضى الله عنه ، مقاماً لم يقل به أحد من الذين استخدمو العقل أو التزموا النقل في فهم الإسلام ١٩ .

سلمان « عند الإسماعيلية هو الذى حمل القرآن كله إلى محمد ﷺ - وإن جبريل لم يكن إلا الإسم الذى أطلق على سلمان ، بوصفه حامل هذه الرسالة الإلهية - [ ٩ ! ] - .. والأحاديث التى يستعينون بها في هذا موضوعة » - كما يقول ماسينيون - ... وهم ينطلقون في مقولتهم هذه من الأسرار الغنوصية الباطنية التى جعلها الغنوصيون لحرف « السين » ! وإنما كان جبريل هو « روح التنزيل » ، فإن سلمان ، عندهم ، هو « روح التأويل » ، « الذى تفتح لنا معنى الكتاب » وروح التأويل - سلمان - عندهم - أعلى من روح التنزيل - جبريل - ! . لأنها « روح الأمر » الواردة في القرآن ، وهى نوع من الفيض الإلهى الذى يحقق تدريجياً مقاصد الله الخفية ، وسلمان أحد وسائلها .. وهو عندهم

## «السبب» المراد في الآية القرآنية:

﴿مَنْ كَانَ يَظْنَنَ أَنَّ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ وَالْآخِرَةِ فَلَيَمْدُدْ سَبَبَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلَيَنْظُرْ هَلْ يُذَهِّبُنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيْظُ﴾<sup>(١٢٨)</sup>

وهكذا - كما يقول ماسينيون : «اتخذ سلمان في الغنوص الشيعي صورته النهاية فهو الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلى ..»<sup>(١٣٩)</sup>

● - والفاتمية الإسماعيلية : سارت على هذا الدرب ، وكانت فرقة من تيار الغنوص الذى تبني هذه «الصورة الهلينية» للإسلام ، «ف كانت الآراء الغنوصية مادة خصبة انتفع بها الفاطميين في دعوتهم ..»<sup>(١٤٠)</sup>

● - وإخوان الصفا : كانوا هم أيضاً فصيلاً صنعوا من هذا «التلقيق» الغنوصي تصوره للإسلام .. فلقد نقلوا الأفلاطونية المحدثة إلى مجالات الحياة السياسية والاجتماعية ، واخترعوا الأحاديث النبوية «التي صور النبي فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية» .. كما يقول جولد تسيهير ..<sup>(١٤١)</sup>

. (١٢٨) الحج : ١٥ .

(١٣٩) ماسينيون [ سلمان الفارسي والبواكير الروحية للإسلام في إيران ] ص ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ - مرجع سابق - .

(١٤٠) كارل هينريش [ تراث الأوائل في الشرق والغرب ] . ص ١٠ - مرجع سابق - .

(١٤١) جولد تسيهير [ العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في الحديث ] ص ٢١٩ - بحث منشور في كتاب [ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ] - مرجع سابق - .

● - والقramطة : كانوا فضيلاً من فصائل هذا الموكب الغنوسي الإسماعيلي .. فلقد تبنوا الصورة الإمامية للخلافة والإمامية .. وقالوا بما قالت به الغنوسية من « نسبية الأديان » (١٤٢) .

● - ومتصوفة « وحدة الوجود » : بدءاً من الحلاج ، الذى رفض عقلانية المعتزلة ، ووسائلهم في الاستدلال والحجاج ، ووقف عند القياس اليونانى .. وقال بوحدة الوجود .. وبالعرفان الغنوسي سبيلاً للاتحاد بالله والفناء فيه (١٤٣) .. وكذلك الحال عند محى الدين بن عربى [ ١٢٤٠ - ١١٦٥ هـ - ٥٦٠ ] المهنوس الأكبر لنظرية وحدة الوجود الغنوسية (١٤٤) .. إلى كل الفرق الغنوسيية التي تبنت مذهب الغنوص في نظرية « الإنسان الكامل » (١٤٥) .

(١٤٢) هنرى كوربان [ السهروردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقي ] من ١٣١ - مرجع سابق - .

(١٤٣) ماسينين [ المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية في الإسلام ] من ٦٧ . بحث منشور في كتاب [ شخصيات قلقة في الإسلام ] - مرجع سابق - .

(١٤٤) نيكلسون [ التصوف ] من ٣٢٨ . بحث منشور في كتاب [ تراث الإسلام ] ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت عام ١٩٧٢ م .

(١٤٥) كارل هينرث [ تراث الأوائل في الشرق والغرب ] من ١٢ . بحث منشور في كتاب [ التراث اليونانى في الحضارة الإسلامية ] - مرجع سابق - .

على هذا النحو ، وإلى هذا الحد - الذى ضربنا له الأمثلة - بلغ « الغزو الفكى » الذى قذف به الغرب اليونانى الشرق الإسلامي .. وهو الغزو الذى بدأ - كما أشرنا من قبل - منذ انتصار الاسكندر المقدونى على الدولة الفارسية ، وتكوين امبراطوريته الشرقية ، تلك الامبراطورية التى سادت فيها الفكرية الهلينية ، كما تمثلت في مدرسة الاسكندرية ، منذ القرن الثالث الميلادى ، والتى لفقت ما بين : إسرائيليات الديانة الشعبية الإسرائيلية .. وديانة الفرس ومذاهبها .. والأفلاطونية المحدثة .. وتجسدت في « الغنوص - الباطنى » الذى يعتمد « العرفان - والذوق » سبيلاً للمعرفة ، بدلاً من العقل والنقل .

وبعد أن خاضت هذه الغنوصية معركتها ضد المسيحية الأولى ، ونجحت في « تغبىش » نقاء عقيدة التوحيد فيها .. حاولت ذلك مع الإسلام .. فكان أن تصدى التيار العقلانى الإسلامى لمذاهبها ومقولاتها ونظرياتها بعلم الكلام الإسلامى .. فلما أعرضت المذاهب الغنوصية عن الاحتكام للعقلانية الإسلامية المتميزة ، بسبب من هيمنة الوافد اليونانى - الأفلاطونية المحدثة - على فكريتها ، وبسبب من علو مقام الفكر اليونانى في هذا المناخ الهلينى ، اتجه المدافعون عن الإسلام إلى ترجمة الفلسفة العقلية اليونانية ، ليردوا بها على هذه النزعة الغنوصية اليونانية .. فكان

الاهتمام الأكبر بعقلانية أرسطو سبيلاً لمواجهة الخطر الأكبر في هذا الغزو الفكري ، ولم يكن تبنياً لهذا النمط العقلاني المتناقض مع خصوصيتنا العقلانية التي أخت ما بين العقل والنقل في فلسفتنا الإسلامية - علم الكلام - .. ويشهد على ذلك ، أيضاً ، اتجاه حركة الترجمة الإسلامية ، بعد ذلك ، لترجمة أفلاطون [ ٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م ] لما تدینه - المكتسب من الشرق - من أثر في « تدين العقلانية الأرسطية » ، بالتفويق بينهما ، على النحو الذي حاوله فلاسفة الإسلام ، كى لا تفضي العقلانية الأرسطية الخالصة إلى الإخلال بالتوازن ، لحساب النزعة المادية والإلحاد !

تلك هي « الشهادة » الأولى على « المعنى والسبب » اللذين لأجلهما ترجم المسلمون فلسفة اليونان .

٢ - وشهادة ثانية تبلغ في هذا الموضوع مبلغ « الوثيقة » عندما يكتبها « خبير - صانع » للحدث الذي « يوثقه » و « يشهد فيه » !

فالشيخ الرئيس ابن سينا [ ٣٧٠ - ٤٢٨ هـ - ١٠٣٧ م ] كان أول من أفرد لعرض وشرح الفلسفة المشائية اليونانية موسوعته الضخمة [ الشفاء ] .. ولقد شهد هو نفسه ، بأنه قد عرض هذه الفلسفة وقد منها وشرحها ، لا لأنها الفلسفة الحقة ، وإنما لمكانتها عند المشائين الذين

لا يستعيثون بغيرها ولا يألفون سواها .. وأنه لذلك ، وحتى لا يظن المحققون تبنيه لقولاتها ، قد وضع في ثنايا عرضه بكتابي [ الشفاء ] و[ اللواحق ] إضافات لو فطن إليها المدققون لرأوا فيها الفلسفة الحقيقة للشرقين ، المتميزة عن الفلسفة الغربية - [ اليونانية ] - . وأنه لم يكتف بهذه الإضافات ، التي تكفى المدققين ، ذوى الفطنة ، في إدراك هذه الحقيقة ، حقيقة تميز أمتنا في فلسفتها عن اليونان ، وإنما عمد أيضاً ، إلى إفراد فلسفتنا بكتاب خاص ، هو كتاب [ الحكمة المشرقة ] - أو [ الفلسفة المشرقة ] - بسط فيه ، صراحة ، معارضة فلسفتنا الفلسفية اليونانية ، وعلى الأخص في الإلهيات

بل لقد نبه ابن سينا على هذه الحقيقة صراحة في مقدمة الكتاب الذي بسط فيه الفلسفة المشائية اليونانية - [ الشفاء ] - .. فقال في هذا التقديم : « ول كتاب غير هذين الكتابين - [ « الشفاء » و « اللواحق » ] - أوردت فيه الفلسفة على ما هي بالطبع ، وعلى ما يوجه الرأى الصريح الذى لا يراعى فيه جانب الشركاء في الصناعة ، ولا يتقى فيه من شق عصاهم ما يتقى في غيره ، وهو كتابي في « الفلسفة المشرقة ». وأما هذا الكتاب - [ « الشفاء » ] - فاكثر بسطا ، وأنشد مع الشركاء من

المشائين مساعدة . ومن أراد الحق الذى لا مجدة<sup>(١٤٦)</sup> فيه ، فعليه بطلب ذلك الكتاب - [ « الفلسفة المشرقية » ] - ومن أراد الحق على طريق فيه ترض ما إلى الشركاء ، وتبسط كثير ، وتلويع بما لو فطن له استغنى عن الكتاب الآخر ، فعليه بهذا الكتاب - [ « الشفاء » ] - ..<sup>(١٤٧)</sup>

فمن أراد الحق في الفلسفة على ما هي عليه بالطبع ، فإن طلبه - كما يقول ابن سينا - ليس كتاب [ الشفاء ] ، لأن فلسفة اليونان ليست هي الحق في هذا الموضوع ! .

وفيما بقى لنا من تراث ابن سينا ، هناك كتابه [ منطق المشرقيين ] أو [ كتاب المشرقيين ] ، والذي يغلب على الظن أنه قطعة من كتابه الذي نبه عليه [ حكمة المشرقيين ] ، يسوق في مقدمته حديثاً ، ينهض « كالوثيقة الفكرية التاريخية » في هذا الموضوع البالغ الأهمية - موضوع تميز فلسفتنا عن الفلسفة اليونانية - وبشهادة من بلغ في عرض الفلسفة اليونانية درجة « الشيخ الرئيس » ! .. يقول ابن سينا :

(١٤٦) أى لا غموض فيه ولا إبهام .

(١٤٧) نلينو [ محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية ] بحث منشور بالرجوع السابق . من ٢٧٧ « هامش (١) » .

« نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه ، لا نلتقي فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلْف ، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما أَلْفَهُ متعلمو كتب اليونانيين إلْفَا عن غفلة وقلة فهم وما سمع منا في كتب الفنادل للعاميين من المتكلسفة المشغوفين بالمشائين ، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم يُنل رحمته سواهم .

[ سنفعل هذا ]<sup>(١٤٨)</sup> ، مع الاعتراف منا بفضل أفضل سلفهم<sup>(١٤٩)</sup> في تنبهه لما نام عنه ذروه وأستاذوه ، من تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفي ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء ، وفي تفطنه لأصول صحيحة سرية في أكثر العلوم ، وفي إطلاعه [ عامه ] الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يديه إلى تمييز مخلوط ، وتهذيب مُفْسَد ، ويتحقق على من بعده أن يلموا شعثه ، ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناء ، ويفرعوا أصولاً أعطاها ، فما قدر من بعده [ أرسطو ] على أن يفرغ نفسه عن عهدة ماورثه منه وذهب عمره في تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلاً

---

(١٤٨) ما بين المعقوقتين [ من تعليقات وشرح « ثلثيرو » .  
(١٤٩) يعني أرسطو .

يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفترق إلى مزيد عليه أو إصلاح له أو تنقیح إياه .

واما نحن ، فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم ، وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التقطن لما أورثوه . ثم قابلنا جميع ذلك بالنطء من العلم الذي يسميه اليونانيون « المنطق » - ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره - حرفأ حرفأ ، فوقينا على ما تقابل - [ أى ما يتفق معه ] - وعلى ما عصى - [ أى ما اختلف وإياه ] - . وطلبنا لكل شيء وجهه ، فحق ما حق وزاف ما زاف - [ أى وكانت نتيجة هذا أن بأن ما هو حق وما هو زائف ] .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء إلى المشائين من اليونانيين ، كرهنا شق العصا ومخالفة الجمhour ، فانحرنا إليهم وتعصينا للمشائين إذ كانوا أولى فرقهم - [ فرق اليونانيين ؟ ] - بالتعصب لهم . واكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أربهم منه ، وأغضيينا عما تخطيطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم ، ففي الذي لم يمكن الصبر عليه ، وأما الكثير

فقد غطيناه بأغطية التغافل ..... ولكنكم أصحابنا ، تعلمون حالنا في أول أمرنا وأخره ، وطول المدة التي بين حكمنا الأول والثاني ، وإذا وجدنا صورتنا هذه ، وبالحرى أن نثق بأكثر ما قضيناه ، وحكمنا به واستدركناه ، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغراض الكبرى ، والغايات القصوى التي اعتبرناها وتعقبنها مئين من المرات ، ولما كانت الصورة هذه ، والقضية على هذه الجملة ، أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوى على أمهات العلم الحق الذى استنبطه من نظر كثيراً ، وفكراً مليئاً ، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً .

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا - أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا - وأما العامة من مزاولى هذا الشأن ، فقد أعطيناهم في « كتاب الشفاء » ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم ، وسنعطيهم في « اللواحق » ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه . وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده .. «<sup>١٥٠</sup> » .

---

(١٥٠) المرجع السابق . ص ٢٧٨ - ٢٨٢ .

تلك هي «وثيقة» الشيخ الرئيس ، ابن سينا ، تحمل «شهادة خبير» (وَلَا يَنْبَغِي مِثْلُ خَبِيرٍ (١٥١)) .. شهادة خبير بالفلسفة اليونانية ، وبالفلسفة المشرقية .. عرضهما عرض واقف على الخلاف المميز بينهما «في الأغراض الكبرى والغايات القصوى» .

وهو في هذه «الوثيقة - الشاهدة» يحدد :

أ - إنه مع فضل أرسطو ، وإضافاته بالنسبة لمن سبقة ، فإن في بنائه الفكرى والفلسفى أخطاء وثغرات .

ب - وأن الذين أتوا بعده ، بدلاً من أن يطوروا فكره ، ويعالجوه نواقصه ، ويرسموا ثغراته ، جمدوا عند مقولاته ، وقدسوا كل ميراثه ! .. وتحاشوا حتى إصلاح الأخطاء التى أدركوها ! .

ج - وأن ابن سينا لما استوعب فلسفة اليونان ، منذ وقت مبكر في حياته العلمية ، عرضها على المنطق - معيار العلم والنظر - فتبين له ما فيها من حق وما فيها من زيف .

د - وبسبب من تعلق المشتغلين بالعلم بالفلسفة المشائية اليونانية ، والفهم لها وحدها ، واستنادتهم لمقولاتها ، فلقد عرضها لهم - في [كتاب الشفا] - مع إضافات ، وبعض

---

(١٥١) ناطر : ١٤ .

انتقادات - يدركها أهل الدرجة العليا من الاختصاص - لكنه تغافل عاملاً عن نقد أغلب ما تختبط فيه اليونان - اللهم إلا فيما لم يصبر على السكوت عنه من مواطن الخلاف - ! .

هـ - وبعد هذا الموقف الأول ، وجد من الأوفق أن يتخذ موقفاً ثانياً .. فكتب كتابه [ فلسفة المشرقيين ] ، الذى عرض فيه خلاف فلسفتنا مع الفلسفة اليونانية فيما هو « خصوصية حضارية شرقية » في الفلسفة ، مركزاً على « الأغراض الكبرى والغايات القصوى » ، بعد أن راجع مسائلها مئين المرات ! .. قاصداً أن يكون هذا الكتاب مرجعاً للخاصة ، كما أن [ الشفاء ] و[ اللواحق ] هى مراجع « العامة » من المفتونين بالفلسفة اليونانية ، في غفلة وقلة فهم ! .

نعم .. إنها « شهادة » تبلغ في الدقة والعمق مبلغ « الوثيقة » ، عندما يكتبها « خبير - صانع » للحدث الذى « يوثقه » و« يشهد فيه » !

ولقد شهد الذين وعوا دلالة هذه الشهادة لابن سينا بما لها ، في موضوعنا ، من الدلالات .. فقال روجر بيكون Rogeri Bacon [ ١٢٩٤ - ١٢١٤ م ] : « إن ابن سينا - وهو أحد كبار مقلدى أرسطو ، وعارضى مذهبة ، والمتم لفلسفته - بحسب ما كان في استطاعته - قد ألف [ كتاب الشفاء ] حسب المذهب السائد عند المشائين ، الذين هم شيعة

أرسطو .. كما ألف [كتاب الفلسفة المشرقة] بحسب **الحقيقة الخالصة في الفلسفة** ، تلك الحقيقة التي لا تخشى طعنات رماح المعارضين ! «<sup>١٥٢</sup> .

أما « نلينو » Nallino,Carlo [١٨٧٢ - ١٩٣٨ م ] فإنه يستخلص من هذه الحقيقة نتائجها فيقول : « إن من المستحسن دائمًا أن تتخذ [الحكمة المشرقة] أساساً في كل عرض لمذهب ابن سينا ، بدلاً من أن يتخذ [الشفاء] أو مختصره [النجاة] ، فعل هذا النحو يمكن عرض الفكر الحقيقي لهذا الفيلسوف الكبير عرضاً أحسن وأدق »<sup>١٥٣</sup> .

فالفلسفة الحقيقة لابن سينا ليست فلسفة اليونان - وإنما هي فلسفة المشرقيين وحكمة الإسلام « المتميزة » عن فلسفة اليونان « في الأغراض الكبرى والغايات القصوى » .. على حد عبارة الشيخ الرئيس ! .

٣ - ثم يأتي الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل [٤٩٤ - ٥٨١ هـ - ١١٠٠ - ١١٨٥ هـ] في مقدمة رائعته الفلسفية غير المسبوقة [حى بن يقطان] ، ليؤكد هذه الحقيقة .. حقيقة أن فلسفة الإسلام ليست هي فلسفة

١٥٢) المرجع السابق . ص ٢٧٧ « هامش [٢] .. .

١٥٣) المرجع السابق . ص ٢٩٠ .

اليونان .. بل ويعيد نشر شهادة ابن سينا ، عنواناً على تبنيه لضمونها .. فيخاطب مُخاطبةً قائلاً : « سالت ، أيها الأخ الكريم الصفي .. أن أبى إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقة التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو على ابن سينا .. » .

فيعلن ابن طفيل ، بهذه العبارة ، على أن طلب الحديث عن الحكمة المشرقة ، وإبراز تميزنا الفلسفى ، كان من القضايا التى تشغل العقل الفلسفى الإسلامى ، والتى تدور حولها الأسئلة والأجوبة ، وتحصص للإجابة عن فحواها الصفحات .

ثم يستطرد ابن طفيل فيستدل على القضية بـإيجاز شهادة ابن سينا ، فيقول : « وأما كتب أرسطو طاليس ، فقد تكفل الشيخ أبو على بالتعبير عما فيها ، وجرى على مذهبـه ، وسلك طريق فلسفته في [ كتاب الشفاء ] . وصرح في أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك ، وأنه إنما ألف ذلك الكتاب على مذهب المشائين ، وأن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه ، فعليه بكتابه [ الفلسفة المشرقة ] ... » .

ثم يقدم ابن طفيل شهادته ، كثمرة لقراءاته كتب أرسطو ، ولقراءاته عرضها في [ كتاب الشفاء ] لابن سينا . فيؤكد أن لابن سينا في [ الشفاء ] « إضافات » هى من إبداعه ، ولا تتفق مع آراء أرسطو ، وأنها لا تظهر إلا لأهل الفطنة من

ذوى الاختصاص ... ثم يعيد ذكر رأى ابن سينا ، القائل إن من أراد الكمال ، بواسطة الفلسفة ، فسبيله ليست فلسفة اليونان ، وإنما فلسفة المشرقيين .. يقول ابن طفيل : « .. ومن عنى بقراءة [كتاب الشفاء] ، ويرقأة كتب أرسطو طاليس ، ظهر له في أكثر الأمور أنها تتفق ، وإن كان في كتاب « الشفاء » أشياء لم تبلغ إلينا عن أرسطو . وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب « الشفاء » على ظاهره ، دون أن يتقطن لسره وباطنه ، لم يوصل به إلى الكمال ، حسبما نبه عليه الشيخ أبو علي في كتاب « الشفاء » .. »<sup>(١٥٤)</sup>

٤ - أما مؤرخ الحكمة ، والحكماء ، ابن أبي أصيبيعة [٥٩٦ - ٦٦٨ هـ - ١٢٠٠ م] فإنه يخبرنا عن اسم كتاب مفقود لابن سينا ، عنوانه [كتاب الإنصاف] - «عشرون مجلدة» - ويقول إنه ميّز فيه بين فلسفة «المشرقيين» وبين فلسفة «المغاربيين» ! .. «شرح فيه جميع كتب أرسطو طاليس ، وأنصف فيه بين المشرقيين والمغاربيين .. »<sup>(١٥٥)</sup> .

(١٥٤) المرجع السابق . ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(١٥٥) المرجع السابق . ص ٢٧٨ .

٥ - وغير هذه « الشهادات » ، التي اقتفي أصحابها أثر ابن سينا ، واستدلوا بأدلة .. نجد هذا الموقف ، الذي يميز فلسفة الإسلام عن فلسفة اليونان ، لما لكل منها من « خصوصيات حضارية » ، يتكرر لدى الكثير من أعلام فلسفتنا ، والذين خبروا منهم فلسفة اليونان على وجه الخصوص .

فقرر الدين الرازى [ ٥٤٤ - ٦٠٦ هـ - ١١٥٠ - ١٢١٠ م ] ينهض بإبراز معارضته الفلسفية الإسلامية للفلسفة اليونانية .. والفلسفة « المشرقية » - الإسلامية - عنده هي إبداع المسلمين في علم الكلام ، المعبر عن « خصوصياتنا الحضارية » في الفلسفة .. أما الفلسفة « المغربية » - اليونانية - فهى « أفكار المشائين اليونانيين ، وخصوصاً طريقتهم في بحث المسائل ، ومن قلدهم وسار في أثرهم من المسلمين .. » (١٥٦)

٦ - أما أبوالوليد ابن رشد [ ٥٢٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨ م ] فإن إبداعه كله « وثيقة » شاهدة في هذا الموضوع .

لقد أنجز ابن رشد أضخم مشروع عربي لتقديم فلسفة اليونان إلى العقل العربي والمسلم . وقدم لأعمال أرسسطو

---

(١٥٦) المرجع السابق . ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

الشرح - الكبرى .. والمتوسطة .. والموجزة - وصحح الأخطاء ، وضبط المصطلحات ، وحدد المفاهيم ، وحد المقولات .. ورعت الدولة مشروعه هذا ، كما ترعى الأمم والدول العريقة - في زماننا - المشاريع الثقافية والعلمية الكبرى التي تتيح لأنوائها الاطلاع على الحضارات الأخرى والتفاعل وإياها .

ولهذا الإنجاز الرشدى العملاق ، في شرح أعمال حكيم اليونان أرسطو ، استحق ابن رشد ، على النطاق العالمى ، لقب « الشارح الأكابر » ... ولقد حدثنا ابن رشد عن مكانة أرسطو في الفكر « الإنسانى اليونانى » ، وكيف بلغ هذا الحكيم « أقصى ما وقفت عليه العقول الإنسانية » ! .. فشابه في هذا التقييم قول ابن سينا عن أرسطو : « إنه صنع أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يده إلى تمييز مخلوط أو تهذيب مفسد » ! .

لكن ابن رشد ، لم يقف عند حدود « الشارح لأرسطو » ولا كان « المتبنى لكامل مقولات فلسفة اليونان » .. ففى شروحه ذاتها إضافات وانتقادات ، لم يغلفها ، كما صنع ابن سينا ، وإنما برزت للعيان ، من حيث الحجم والوضوح .. وفي هذه الإضافات الرشدية تتجلى خصوصيات الفلسفة الإسلامية ، عندما يبدها ابن رشد المسلم ، المتكلم ، القاضى ، والفقىه .. ففى مسائل جوهرية وكثيرة تبرز

خصوصيتنا الفلسفية ، المتميزة عن الفلسفة الأرسطية .. وفي  
مقدمة هذه المسائل :

- أ - تصور ابن رشد للذات الإلهية .. وهو إبداع « رشدي إسلامي » لا علاقة له بالفلسفة اليونانية .
- ب - تصوره لمعضلة وحدة الوجود ، العقلية والمادية .
- ج - تصوره لعالم الصور .
- د - تصوره المنهجي للتوفيق بين الحكمة والشريعة .. وهو إبداع إسلامي ، غير وارد في الإطار اليوناني .
- ه - تصوره لقضية الحرية الإنسانية ، والجبر والاختيار .. ومكانة الإنسان في الكون .
- و - نظريته في المعرفة .. والعلم الإنساني ، والعلم الإلهي .
- ز - منهجه في تقسيم الناس إلى مراتب .. ليست طبقية ، لا بالمعنى اليوناني ولا بالمعنى الاقتصادي .
- ح - رؤيته لمكانة المرأة في المجتمع .<sup>(١٥٧)</sup>

لقد اختلفت هذه المقولات الأساسية في الإبداع الرشدي ، عن نظيرتها في الإبداع الأرسطي ، لأن الإبداع الرشدي كان إسلامياً ، لم يقف عند « منتهى ما وقفت

---

(١٥٧) انظر كتبنا [ المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد ] طبعة دار المعارف - القاهرة - عام ١٩٨٣ م . و[ مسلمون ثوار ] - فصل ابن رشد - طبعة دار الشروق - القاهرة - عام ١٩٨٧ م . ومقدمة تحقيقنا لكتاب ابن رشد [ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ] طبعة دار المعارف - القاهرة - عام ١٩٨٣ م .

عليه العقول الإنسانية » - كأرسطو والفلسفة اليونانية - وإنما أضاف إلى ذلك ، في تزامن ومؤاخاة ، حقائق الشريعة الإلهية التي نزل بها الوحي على رسول الإسلام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وإذا كانت شروح ابن رشد على أعمال أرسطو قد اشتتملت - في استفاضة ووضوح - على ملامح هذه « الخصوصية الحضارية الإسلامية » في الفلسفة ، فإن مصادر الإبداع الرشدي الخالصة هي الموطن الطبيعي الذي يجب أن تلتمس فيه « الرشدية الإسلامية » ، المعبرة عن خصوصيتنا الحضارية .. فابن رشد : المتكلم ، والقاضي ، والفقير ، وفيلسوف الإسلام ، تلتمس حقائق إبداعه في « مؤلفاته » ، لأنها « إبداع خالص » ، وليس مجرد « إضافات » في ثانيا « الشروح » .

إن « منهج » ابن رشد ، الذي صاغه في كتابه الفذ [ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ] هو إبداع إسلامي متميز ، بل و مختلف تماماً ، عن منهج اليونان الذين أبدعوا فلسفتهم في إطار لا يعرف الوحي ولا الشريعة ، فلم يحتمل إلا إلى البرهان العقل .

وإن كتاب ابن رشد [ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ] هو الإبداع الرشدي في الصورة المناسبة لجمهور الناس .

أما كتابه [ تهافت التهافت ] فهو مستودع فلسفة الإسلام ، كما تصورها ابن رشد ، على النحو المناسب لأهل الاختصاص .

ففي هذه الكتب الثلاثة ، نجد ابن رشد « المتكلم » ، أى « الفيلسوف الإسلامي » - وليس « الشارح » .. كما نجد فيها خصوصيتنا الحضارية ، في الفلسفة ، التي تميزت بها حضارتنا عن حضارة اليونان .

فهو ، إذن ، إبداع شاهد - من خلال هذا الصرح - على القضية التي نعقد لها هذه الصفحات .. وهو « شهادة إبداع » على أن الافتتاح على الحضارات الأخرى ، وفقه مقولاتها ، والتبصر في بحارها ، والغذاء بعلومها وفنونها ، كاهلها أو أكثر ، لا يعني إغفال الفروق بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنساني عام » .. لأن الوعي بهذه الفروق هو سبيل الأمان وطريق النجاة من الوقوع في أسر « الغزو الفكري » الذي سقط في أغلاله دعاء « الهميمية » قديماً ، وانصار « التغريب » ، في عصرنا الحديث ! .

تلك هي حقيقة صفحات تفاعلنا الحضاري مع مواريث الفرس .. والروم .. والهند .. واليونان .

## التفاعل الحضاري

### بين الغرب وحضارتنا العربية الإسلامية

وعندما كان الغرب بسبيل نهضته ، التى أخرجته من عصوره الوسطى والمظلمة ، وانفتحت قوى هذه النهضة على حضارتنا العربية الإسلامية ، وجدنا ذات القانون عاملأ ذات العمل .. فكان التمييز بين ما هو « مشترك إنسانى عام » ، فتبنوه ، وانطلقوا منه ، وأضافوا إليه إبداعهم الحضاري الانسلاقي .. وبين ما هو « خصوصية حضارية » للعرب وال المسلمين ، وقفوا منه موقف الحذر والشك ، والرفض والعداء ، بعد أن عرضوه على « خصوصيتهم الحضارية » التي ميزت الحضارة الغربية وطبعتها بما ميزها منذ تراثها اليونانى وحتى عصرها الحديث .

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة العربية الإسلامية من العلوم الطبيعية .. علوم المادة وظواهرها وخصائصها .. علوم التمدن المدنى والعملى .. من مثل علوم : الطب ، والصيدلة ، وقواعد النظافة العامة والخاصة ، وعلوم الزراعة والنباتات ، والحيوان ، وفنون وعلوم الحرف والصناعات ، والتجارة ، والمواصلات ، ووسائل الاتصال ، وفنون القتال واستحكامات الحرب ، وطبقات الأرض وأنواعها - [ الجيولوجيا ] - ، والمعادن ، والبصريات والمناظر ،

والكيمياء ، والفالك ، والرياضيات ، من جبر وهندسة ،  
وحساب - بفروعه - ، والميكانيكا - [الحيل] - ،  
والجغرافيا ، والرحلات ، وعلوم البحار والملاحة فيها ..  
الخ .. الخ .. الخ .

كذلك أخذ الغرب عن علمائنا وحضارتنا الإبداع في  
«المنهج التجريبي» ، الذي تجاوزنا به نطاق «القياس  
الأristطي» إلى الملاحظة والاستقراء والتجريب .. فكان ثورة  
إنسانية في صناعة الفكر نقلت العلوم والمعارف إلى «كيف  
جديد» ..

لقد أخذوا ما سبق أن أخذناه نحن عن أسلافهم  
اليونان ، وغيرهم من الفرس والهنود ، وما أخذناه عن  
مدرسة الإسكندرية من «علوم الصنعة» ، مضافاً إليه  
إبداع حضارتنا ونقدها وإضافاتها إلى هذا الموروث ..  
فلقد كان ذلك جميعه من «المشتراك الإنساني العام» ..

أما فيما هو «خصوصية حضارية» عربية إسلامية ،  
 مما يتصل بالإنسانيات الإسلامية سياسة واجتماعاً  
واقتصاداً وفلسفة وأنماطاً خاصة في الذوق والسلوك  
والقيم والمثل والأعراف .. الخ .. الخ .. فكل ذلك قد  
تحفظ عليه الغرب الناهض ، وذلك حتى يكون انفتاحه  
على حضارتنا ، كافلاً إضافة مصادر القوة ، وحافظاً - في  
ذات الوقت - على حضارته هويتها و«بصمتها»

وخصوصيتها التي تميز بها عن غيرها من الحضارات .  
لقد أجمعـت واجتمـعت تـيـارات فـكـر النـهـضة الغـربـية  
عـلـى رـفـضـ أـبـرـزـ خـصـائـصـ حـضـارـتـناـ العـرـبـيـةـ إـسـلـامـيـةـ ..  
خـصـيـصـةـ «ـ التـوـحـيدـ »ـ .. وـ خـصـيـصـةـ «ـ الـوـسـطـيـةـ »ـ ..  
وـ خـصـيـصـةـ «ـ التـدـيـنـ »ـ - بـالـعـنـىـ الشـامـلـ وـالـعـمـيقـ .. أـىـ  
أـنـهـمـ قـدـ رـفـضـواـ هـوـيـتـناـ الـحـضـارـيـةـ ،ـ كـىـ يـحـفـظـواـ  
لـحـضـارـتـهـمـ النـاهـضـةـ هـوـيـتـهاـ .

ورـفـضـ هـذـهـ الـهـوـيـةـ إـسـلـامـيـةـ .ـ هـوـ الـذـىـ مـيـزـ الـحـضـارـةـ  
الـغـربـيـةـ الـحـدـيـثـةـ بـطـابـعـهـاـ الـأـصـيـلـ :ـ الـطـابـعـ الـمـادـىـ ..  
وـ تـبـنـىـ «ـ الثـنـائـيـةـ -ـ الـانـشـطـارـيـةـ »ـ فـيـ الـكـثـيرـ مـنـ الـقـضـائـاـ  
وـ الـسـمـاتـ ،ـ الـتـىـ اـهـتـدـتـ فـيـهـاـ حـضـارـتـناـ -ـ بـالـوـسـطـيـةـ -ـ إـلـىـ  
«ـ التـواـزنـ -ـ التـوـحـيدـ »ـ .

● لم يأخذـواـ تـوـفـيقـ حـضـارـتـناـ مـاـ بـيـنـ «ـ الـحـكـمـةـ »ـ  
وـ «ـ الشـرـيـعـةـ »ـ .. فـتـمـيـزـ حـضـارـتـهـمـ بـالـثـنـائـيـةـ الـتـىـ  
أـخـرـجـتـ التـدـيـنـ مـنـ إـطـارـ الـعـقـلـ ،ـ كـماـ أـخـرـجـتـ الـدـنـيـاـ  
وـ الـدـوـلـةـ وـعـلـومـ الـتـمـدـنـ مـنـ إـطـارـ الـدـيـنـ ..ـ وـ الـتـىـ قـسـمـتـ  
الـفـلـاسـفـةـ وـالـفـلـاسـفـةـ إـلـىـ «ـ مـادـيـنـ »ـ وـ «ـ مـثـالـيـنـ »ـ ،ـ بـثـنـائـيـةـ  
«ـ الـفـكـرـ »ـ وـ «ـ الـمـادـةـ »ـ .

● ولم يأخذـواـ خـصـوـصـيـتـناـ الـحـضـارـيـةـ فـ عـلـاقـةـ  
«ـ الـدـيـنـ »ـ بـ «ـ الـدـوـلـةـ »ـ ..ـ فـكـانـتـ «ـ عـلـمـانـيـتـهـمـ »ـ فـصـلـاـ  
لـلـدـيـنـ عـنـ الـدـوـلـةـ ،ـ وـ تـحـرـيرـاـ لـعـلـومـ الـدـنـيـاـ مـنـ الـرـوـحـ

الإيمانية .. في مقابل « الكهانة » التي سبق وألغت الطابع المدنى المقطور للدولة والدنيا وعلومهما لحساب « المقدس .. الثابت » .

● ولم يأخذوا خصوصيتنا في التوفيق بين « الفرد » و« المجموع » .. فكانت « ليبيراليتهم » انحيازاً للفرد ، بإطلاق ، ضد المجموع ، بإطلاق .. وعلى عكس ذلك تماماً كانت « شموليتهم » .. حدث ذلك في « الفكر السياسي » ، وأيضاً في « الاقتصاد والمال » .

● ولم يأخذوا بخصوصيتنا الحضارية التي ربطت الأعمال بالحكمة منها .. والوسائل بأخلاقية الغايات المبتغاة من ورائها .. والدنيا كلها بدار الحساب والجزاء .. فكان اهتمامهم باللذة والشهوة واللحظة .. وكانت سياستهم - الميكافيلية - : « فن الممكن من الواقع » ، بصرف النظر عن الأخلاق .. على حين كانت السياسة عندنا هي « الأعمال التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد » ! .

● ولم يأخذوا خصوصيتنا التي وازنت بين « سيادة الله » و« سلطان الأمة » في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران .. لأن حضارتهم قد جعلت الإنسان « سيد الكون » فأطلقت ديمقراطيتها العنان لسلطة

الشعب من كل إطار ديني وقيد سماوى ، حتى ليجوز للأمة فيها أن تحل الحرام - وتحرم الحلال على حين وازنت خصوصيتنا الحضارية بين سيادة الله وحاكميته » - المتمثلة في مقاصد الشريعة الإلهية وحدودها - وبين سلطان الأمة وسلطاتها - المتمثلة في حريتها المحكومة بإطار الشريعة ومقاصدها .. لأن حضارتنا قد تميزت عن حضارتهم في تحديدها لمكانة الإنسان في الكون .. فهو ليس « سيد الكون » ، وإنما هو « سيد فيه .. وخليفة » عن سيده ، سبحانه وتعالى ! .

● ولم يأخذوا خصوصية نظام الخلافة الإسلامي ، الذي يكون فيه الحاكم الأعلى نائباً عن الأمة وحاكمًا مدنياً ، لكنه منفذ مقاصد الشريعة .. أى سائس للدنيا - دون علمانية تتجاهل الدين - وحارس للدين - دون كهانة تقدس المدنى وتثبت وتجمد المتغيرات ! .

نعم .. لقد عمل القانون الذي حكم التقاء الحضارات العريقة وتفاعلها عبر التاريخ .. عمل أيضاً - وكان لا بد له أن يعمل - عندما افتتحت أوروبا ، إبان نهضتها الحضارية ، على حضارتنا العربية الإسلامية .. وكما أخذ عمر بن الخطاب من الرومان « تدوين الدواعين » ورفض شريعتهم المتمثلة في قوانين « يوستينيان الأول » [ ٤٨٣ - ٥٦٥ م ] لتمييزها عن شريعة الإسلام .. كذلك أخذ الغرب عنا ، إبان نهضته ، علوم

التمدن المدنى والعملى ، دون أن يأخذ شريعتنا الإسلامية قانونا يحكم ويضبط مجتمعاته وشعوبه .. لتميزها عن شريعته - القانون الرومانى - بمقاصدها الدينية الثابتة وإطارها الإلهى ، وعلاقتها الوثيقة بدين الإسلام .. فهما نمطان فى الشريعة والقانون متمايزان تممايز الخصوصيات التى ترسم الحدود للحضارات ! وصدق المستشرق « دافيد دى سانتيلا » David de Sautillana [ ١٩٢١ - ١٨٤٥ م ] عندما قال : « .. عبئا نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية ( الإسلامية والرومانية ) كما استقر الرأى على ذلك . إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائنا وقوانيننا ، لأنها شريعة دينية تغير أفكارنا أصلاً .. »<sup>(١٥٨)</sup> .

هكذا عمل « قانون التفاعل الحضارى » فتم التمييز بين ما هو « مشترك إنسانى عام » وبين ما هو « خصوصية حضارية » . تكون « الهوية » و« البصمة » و« الشخصية » لكل حضارة من الحضارات .

وحيثما كان الإطار « طبيعياً » للتفاعل الحضارى ، كان الطابع الصحى هو مناخ عمل هذا القانون لأن

(١٥٨) [ القانون والمجتمع ] ص ٤٣١ . مرجع سابق .

« الغزو الفكري » وليد « القسر » و « القهر » يبدأ بهما ، ثم تأتي - بعد احتلال العقل - مرحلة التقليد والتبعية من المقهورين ، أسرى هذا الغزو الفكري ، للغزاة الظاهرين .. حدث ذلك أيضاً ودائماً ، عبر التاريخ .. عندما فرض الإغريق والرومان « الهلينية » على الشرق بعد غزوة الإسكندر الأكبر .. وعندما فرض الغرب الاستعماري « فكرية التغريب » على الأمم التي ابتليت باستعماره في عصرنا الحديث !

\* \* \*

وإذا كان يحلو لبعض أنصار التغريب ، من أسرى الغزو الفكري ومرجعى سلعي الفكرية ، محاولة افتعال « الاستثناء » في القاعدة التي أوضحتنا التزام قانون التفاعل الحضاري لحدودها .. بالحديث عن الدور الذى لعبه فكر الفيلسوف العربى المسلم أبو الوليد بن رشد في النهضة الغربية الحديثة ، زاعمين أن « فلسفة ابن رشد » قد تبناها الغرب ، وأقام عليها بنيان نهضته أو بعض بنيانها .. بل ويزعمون أن ابن رشد الفيلسوف المسلم قد « بعث حيا » في الغرب ، بينما « قبر ميتا » في بلاد الإسلام ! .

إذا كان يحلول لهذا البعض ترديد هذه المقوله .. فإننا ، كما بددنا مقوله تبني حضارتنا للفلسفة اليونانية ، إبان نهضتنا ، نبادر فنبدد مقوله تبني الغرب لفلسفة ابن رشد الإسلامية إبان نهضته الحديثة .. وذلك حتى لا تبقى ثغرة واحدة

للتشكيك في استقامة وعموم هذا القانون الحاكم لتفاعل  
الحضارات .

إن الغرب الناهض ، لم يأخذ ابن رشد « الفيلسوف  
المسلم » بل رفض هذا الجانب من فيلسوفنا ، وأصدر  
ضده قرارات الحرمان والتحريم من المجامع الكنسية ،  
لتلتزم بتطبيقها الجامعات .. لكنه أخذ ابن رشد  
« الشارح الأكبر لأرسطو » .. أى أنه أخذ منه : التراث  
اليوناني الغربي ، ورفض خصوصية حضارة الإسلام !

فيإذا كان الغرب قد تبني ما عرف في عصر نهضته  
بـ « الرشدية اللاتينية » فإننا نضيف : أن هذه « الرشدية  
اللاتينية » ، التي قبلها الغرب ، هي شروح ابن رشد على  
أرسطو ، حكيم اليونان ، أما إبداع ابن رشد ، الفيلسوف  
المسلم ، والمتكلم ، والقاضي ، والفقير ، والذى تمثل - بحقل  
الفلسفة - في مؤلفاته [ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة  
من الاتصال ] و[ تهافت التهافت ] و[ مناهج الأدلة ] ..  
والتي يجب أن نسميها « الرشدية الإسلامية » ، فإن الغرب  
قد رفضها ، بل ونأصيدها العداء .. لقد فصلوا ابن رشد إلى  
شطرين ، فأخذوا الشطر الذى هو تراثهم وخصوصيتهم  
الحضارية ، ورفضوا الشطر الإسلامي ، الممثل لخصوصيتنا  
الفلسفية الإسلامية .. وكما يقول « الفريد جيوم » : « فإننا  
علينا أن نضع حدا فاصلا بين ابن رشد كفيلسوف ، وابن

رشد كشارح لأرسناؤ<sup>(١٥٩)</sup> .. وإذا كان الغرب قد رفض ، منذ البداية ، « الرشدية الإسلامية » ، كما تمثلت في « مؤلفات » ابن رشد الإبداعية .. فإنه قد فصل ، أيضاً « إضافاته » التي تخللت شروحه على أعمال أرسناؤ .. وتهض بهذه المهمة القديس توما الأكويتي<sup>(١٦٠)</sup> [ ١٢٢٥ - ١٢٧٤ م ] .. « وبعد أن أوغلت تعاليم ابن رشد ، التي تضمنتها إضافاته على الشروح ، في الفكر المسيحي ، طوال قرون متعددة ، ونفذت عميقاً حتى أصبحت خطراً على تعاليم الكنيسة .. جاء القديس توما الأكويتي وفصل أرسناؤ عن شارحه ، ونقد التفاسير العربية لفلسفة أرسناؤ ..<sup>(١٦١)</sup> .. ولذلك رأينا الجامعات الغربية تتبنى ارسطو ، في ذات الوقت الذي تحرم فيه فكر ابن رشد ، وتحكم بالكفر على ٢١٩ مسألة تمثل إضافاته على الشروح التي قدمها لأعمال حكيم اليونان<sup>(١٦٢)</sup> ..

فكما أن نهضتنا القديمة لم تتخذ الفلسفة اليونانية فلسفه للأمة ، على الرغم من ترجمتها ودراستها ، على النحو الذي يعرفه الجميع .. فكذلك كان حال النهضة الغربية الحديثة مع

- (١٥٩) جيوم [ الفلسفة وعلم الكلام ] ص ٣٩٤ . بحث منشور ضمن كتاب [ تراث الإسلام ] - مرجع سابق - .  
 (١٦٠) المرجع السابق . ص ٣٦٠ .  
 (١٦١) المرجع السابق . ص ٣٩٤ .

فلسفتنا الإسلامية حتى في صورتها الرشدية ، لأن فلسفة الأمة - أية أمة عريقة ذات تراث غنى - هي واحدة من أخص « خصوصياتها الحضارية » ، وليس من « المشتركة الإنسانية العام » الذي هو مشاع بين الأمم والقوميات والحضارات .

بل إننا نستطيع أن نضيف إلى هذه الحقائق الساطعة القاطعة ، حقيقة أخرى هامة وبالغة الدلالة في قضيتنا .. تتعلق بمعنى ترجمة الغرب ، إبان نهضته لما ترجم من الكتابات الفلسفية لحجة الإسلام الغزالى [ ٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١ م ] .. ذلك أن بعضًا من أسرى الغزو الفكري التغريبي قد يرى في ترجمة الغزالى إلى اللاتينية - وهو ليس شارحاً لفلسفة اليونان ، بل من نقادها - شبهة على تبني الغرب ، إبان نهضته لفلسفتنا الإسلامية .. على حين أن الحق في هذا الأمر هو على النقيض من هذه الرؤية تماماً !

لقد ألمتنا إلى جزع الكنيسة الغربية من « العقلانية الإسلامية » التي تمثلت في إضافات ابن رشد على شروحه لأعمال أرسطو - وهي « عقلانية إسلامية » ، وليس « عقلانية يونانية » ! فذهبت هذه الكنيسة الغربية في بحثها عن أسلحة المقاومة لهذه « الرشدية الإسلامية » إلى حد الاستعانة بـ « صوفية الغزالى » لمحاربة « عقلانية ابن رشد » ! .. فلم تكن ترجمات الغزالى مقصوداً منها

تبنيه ، وإنما كان المراد محاربة المفتونين بابن رشد - من اللاتين - بسلاح مصنوع بذات الحضارة التي بها يفتتون !

وهنا نتذكرة - ونذكر - بذات القانون وذات الحقائق التي سقناها عندما تحدثنا عن مفهوى ترجمة العرب المسلمين لعقلانية أرسطو اليونانية .. لقد كانت الغنوصية اللاعقلانية هي الخطير الذي حاربت الهلينية به الإسلام ، فاستعان الإسلام - بعد أن أبدع لأمته عقلانيتها المتميزة - بالعقلانية الأرسطية ، ليهزم الغنوصية ، وليصرف المفتونين بكل ما هو يوناني عن الهلينية والغنوص ، بسلاح مصنوع ببلاد اليونان ، التي هم بإبداعها مفتونون !

أما في حالة الغرب وكنيسته ، فلقد كانت العقلانية الإسلامية الرشدية هي الخطير الذي اقتحم عليها معاقل اللاهوت - فسعت إلى « صوفية الغزالى » تحارب بها « عقلانية ابن رشد » .. ليس حبا في الغزالى ، ولا تبنيا لفلسفته - فذلك لم يحدث - وإنما كضرورة من ضرورات الصراع بين الأنساق الفكرية والمذاهب والتيارات .

ويشهد على ذلك ، أيضاً نوعية ما اختاروه من الغزالى - وهو « الظاهرة المتنوعة » بحكم تطوره الفكرى وغنى تجربته العلمية - .. فلقد أخذوا منه ما رأوه معينا لهم على التصدي

للخطر الأعظم الذى اقتحم عليهم دوائر الفكر : العقلانية الإسلامية ، كما تمثلت في إبداع وإضافات أبي الوليد ! وبقيت لحضارتهم الغربية خصوصيتها الفلسفية .. رغم ما ترجموه للغزالى ، حجة الإسلام .. كما بقيت لحضارتنا خصوصيتها الفلسفية .. رغم ترجمتنا لأرسطو ، حكيم اليونان !

فلقد تم جميع ذلك في مناخ صحي لتفاعل حضارى طبيعى .. فكان العمل لقانون التفاعل الحضارى حرا وخلاقا .. فازدهرت الحضارات الناهضة عندما استلهمت «المشتراك الإنسانى العام» وحافظت على تميزها وطابعها بتنمية مالها من «خصوصية» في السمات والقسمات . إنه «تفاعل حضارى» طبيعى وخلاق .. وليس غزوًأ فكريأ يفرضه القاهرون على الأسرى المقهورين والمقلدين !

## وأخيرا ..

فحتى لا « يغبsh » الغزو الفكري التغريبي خصوصيتنا الحضارية ، فيمسخ وينسخ ويشوه هويتنا العربية الإسلامية ، ف تكون تبعيتنا الحضارية للغرب « القيد الفكري » الذي يؤيد ، بل ويؤيد تبعيتنا له في السياسة والأمن والاقتصاد .

وحتى لا تقودنا هذه التبعية الحضارية إلى المأزق الذي قادت الحضارة الغربية إنسانها إلى طريقه المسدود ، عندما حققت له القوة الفاشمة والوفرة المادية ، وأفقرته في الروحانيات .. والمثل .. فاصبح عبدا للأنانية ، وللذلة والشهوة .. فاقدا للتوازن ، الذي هو شرط - بل حقيقة - سعادة الإنسان في هذه الحياة .

وحتى لا يكون مصير إسلامنا - وهو جوهر هويتنا الحضارية كمصير « التوحيد المسيحي الأول » ، الذي « غبشه » الغزو الفكري الهليني بالغنوصية الباطنية .. فيتحول إسلامنا - بالتغريب - إلى « كهانة بابوية » تقدس المدنى وتجمد المتغير .. أو علمانية تجرد الدولة والدنيا وعلومها من إطار الشريعة وروح الإيمان .. وتحتحول عروبتنا إلى عصبية عرقية جاهلية .. وتحتحول المرأة العربية المسلمة إلى « غانية رومانسية » أو « مسترجلة

«ابريطانية» أو «صورة غلاف وإعلان سلعة رأسمالية» أو «جارية مملوكة» .. وحتى لا تذبل فيينا رغبة الإبداع ، عندما يرضى ليبراليونا بلبيرالية الغرب ، وشموليونا بشمولية الغرب ، وتقديميونا بتقديمية الغرب ، ورجعيونا برجعية الغرب ، فنقنع بدونية المستهلكين لسلع الفكر والمادة معا !

حتى لا يحدث لنا ذلك ، علينا أن نميز في تفاعلنا مع الحضارة الغربية بين ما هو « خصوصية حضارية » وما هو « مشترك إنساني عام » .. فتلك بداهة الفكر ومنطقه ، وهذه هي شهادته .. وأيضاً شهادة التاريخ عندما سجل عمل قانون التفاعل بين الحضارات .

- قرأنا هذه الشهادة التاريخية في حقبة تفاعلنا ، قدِّيماً مع حضارات الفرس والهند واليونان .
  - وقرأناها في حقبة تفاعل الحضارة الغربية الحديثة مع حضارتنا العربية الإسلامية .
  - بل وقرأناها ، أيضاً في صفحة نهضتنا الحديثة ، التي عاجلها الاستعمار ، عندما سلكت بلادنا سبيل النهضة ، على عهد محمد علي باشا الكبير [ ١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ - ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م ] فذهب كل بعثاتنا العلمية إلى الغرب لتعلم العلوم العملية والطبيعية، مثل : ١ - الفنون الحربية والإدارة العسكرية ٢ - والملاحة والفنون البحرية ٣ - والهندسة

الحربية ٤ - والمدفعية ٥ - وصنع الأسلحة وصب المدافع ٦ - وبناء السفن ٧ - وهندسة الري ٨ - والميكانيكا ٩ - والطباعة والحفر ١٠ - والزراعة ١١ - والتاريخ الطبيعي والمعادن ١٢ - والكيمياء ١٣ - والطب والجراحة ١٤ - وفن إدارة الماكينات ١٥ - وفن المعمار ١٦ - ورسم الخرائط ١٧ - والترجمة ١٨ - والإدارة ١٩ - والدبلوماسية ٢٠ - والصياغة والجواهر ٢١ - والغزل والنسيج والصياغة وتجهيز الأقمشة ٢٢ - والسراجة ٢٣ - وصناعة الجلود والأحذية ٢٤ - وصناعة الأختام وتصنيع الشمع ٢٥ - وصناعة النقش والدهان ٢٦ - وصناعة الساعات ٢٧ - وصناعة الصيني والفالخار ٢٨ - وصناعة التنجيد والفراشة ٢٩ - واللغات ٣٠ - وعلم توازن القوى والآلات ٣١ - والطبوغرافيا ٣٢ - والتحصينات ٣٣ - وفن معدن الفحم ٣٤ - وصناعة الحرير ٣٥ - وصناعة الورق<sup>(١٦٢)</sup> .. وغيرها

من « العلوم الطبيعية وتطبيقاتها » .. بينما لم يذهب مبعوث واحد إلى الغرب لدراسة العلوم الإنسانية أو الاجتماعية أو الفلسفية ، التي تتصل مناهجها ومثلها

(١٦٢) انظر عبد الرحمن الرافعي [ عصر محمد على ] ص ٤٦٤ - ٤٧٣ - ٤٧٨ ، ٤٨٢ - ٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ . طبعة القاهرة عام ١٩٥١ م . وعمر طوسون [ البعثات العلمية في عهد محمد على وعباس وسعيد ] ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ١١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢١ ، ٢٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت عام ١٩٧٣ م .

بخصوصية الحضارة الغربية في الطابع «المادى» - العلمانى» (١٦٣) .. وليس كما صنع بنا الغزو الفكرى ، عندما ذهب ويدهب مبعوثونا يدرسون علوم الشريعة والحقيقة والفلسفة والأداب والفنون وغيرها بمناهج الغرب ، وعلى أيدي المستشرقين !

لقد كتب رائد فكر تلك النهضة ، رفاعة رافع الطهطاوى [ ١٢١٦ - ١٢٩٠ - ١٨٠١ - ١٨٧٣ م ] ينبه على ضرورة التمييز في الفكر الغربى ، بين «المفيد» و«الضار» ، فقال : علينا أن نأخذ عن أوروبا «المعارف البشرية المدنية .. والعلوم الحكيمية العملية» أما روح حضارتهم وفلسفاتهم ، فإنها مليئة « بالحشواد الضلالية ، المخالفة لسائر الكتب السماوية .. » (١٦٤)

ف تلك صفحة من صفحات نهضتنا الحديثة - وإن طواها الغزو الاستعمارى ، إلا أن تأملها ، واستخلاص دلالاتها في موضوعنا ، لابد وأن يفتح لنا السبيل إلى الكلمة الحق والموقف العادل في هذا الموضوع .

\* \* \*

إن الانغلاق الحضارى - فضلاً عن استحالته

---

(١٦٣) انظر كتابنا [ العلمانية ونهضتنا الحديثة ] ص ١١٧ - ١٢٣ . طبعة القاهرة ١٩٨٦ م .

(١٦٤) [ الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ] ج ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ١١٤ ، ١١٥ .

العملية - هو أقصر الطرق لذبول الذين يفرضون على حضارتهم أسوار العزلة والانغلاق .. والتبغية الحضارية ، قاتلة للإبداع ، ومفضية ، هي الأخرى إلى الذبول ، الذي يقنع أصحابه بتقليد القردة وتبغية العبيد والضعفاء .

وليس كالتمييز بين ما هو « خصوصية حضارية » - فنحافظ عليها - وما هو « مشترك إنساني عام » فنسعى لامتلاكه والتفوق فيه ، سبيلاً للنهضة الحضارية المستقلة التي تحقق للأمة مكاناً لائقاً في « من כדי الحضارات العريقة » وإسهاماً خلاقاً في تنمية الفكر الإنساني العام ..

لقد قال رسولنا ﷺ : « الحكمة : الإصابة في غير النبوة »<sup>(١٦٥)</sup> .. وقال : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن »<sup>(١٦٦)</sup> أنى وجدتها فهو أحق بها .. لكنه نهى ، ﷺ ، عن التقليد [ التشبه ] - الذي يمسخ الذات .. فقال : « من تشبه بقوم فهو منهم »<sup>(١٦٧)</sup> وقال : ليس منا من تشبه بغيرنا .. «<sup>(١٦٨)</sup> ..

(١٦٥) رواه البخاري .

(١٦٦) رواه الترمذى وابن ماجة .

(١٦٧) رواه أبو داود والإمام احمد .

(١٦٨) رواه الترمذى .

واستنكر صنيع المتشبهين بالجاهلية ، فقال : أو بصنع  
الجاهلية تُشَبَّهُون !؟ (١٦٩)  
كذلك قال فقهاؤنا : « إن شريعة من قبلنا شريعة لنا ، مالم  
تننسخ » .

وقال الكندي الفيلسوف [ ٢٦٠ هـ ٨٧٣ م ] : « خلائق بنا  
أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان  
مصدرها » .

وكذلك قال ابن رشد : « إنه يجب علينا أن نستعين على  
ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك .. سواء أكان  
مشاركاً لنا في الملة أو غير مشارك ، فإن كان كلّه صواباً  
(١٧٠) »

قبلناه منهم ، وإن كان فيه مالبس بصواب نسبتها عليه » .  
أما جمال الدين الأفغاني [ ١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ ] -  
[ ١٨٩٧ م ] فإنه هو القائل : « إن أبا العلم وأمه هو  
الدليل ، والدليل ليس ارسطو بالذات ولا جاليليو  
بالذات .. والحقيقة تتلمس حيث يوجد الدليل .. والتمدن  
الأوروبي ، هو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على  
نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني .. ولا ملجمٍ  
للشريقي في بدايته أن يقف موقف الأوروبي في نهايته ..

---

(١٦٩) رواه ابن ماجة .

(١٧٠) [ نصل المقال فيما بين الحكم والشريعة من الاتصال ] ص ٢٦ . دراسة  
وتحقيق : د . محمد عماره . طبعة القاهرة عام ١٩٨٣ م .

ولابد من التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. أما المقلدون ، فإنهم يشوهون وجه الأمة ، ويضيئون ثروتها ، ويحطون من شأنها .. إنهم المنادون لجيوش الغزاة ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب . (١٧١)

\* \* \*

لقد خلق الله ، سبحانه وتعالى ، الإنسان « ذكراً » و « أنثى » .. فالإنسانية « مشترك عام » و « الذكرة » و « الأنوثة » « خصوصية » لكل من الذكر والأنثى .. تلك هي « القاعدة » و « الطبيعة » .. لكن الشذوذ يأتي بالهجين ، المفتقر إلى وضوح القاعدة والطبيعة ، فيسميه فقهاؤنا وعلماؤنا بـ « الخنثى المشكّل » لأنه ليس بالذكر ولا هو بالأنثى .

وكل ذلك الحال في الثقافات والحضارات .. بينها « المشترك الإنساني » الجامع .. وفي كل منها ما هو « خاص » .. فطوبى للذين يعون هذه الحقيقة ، فلا يطغى عليهم « شذوذ الانغلاق » ، ولا يقعون أسرى « الغزو الفكري » ، الذي يحول ضحيته إلى « مشكل ثقاف » .. لا « هوية » تعرفه ، ولا « بصمة » تميّزه عن الآخرين !

---

(١٧١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] من ١٩٥، ١٩٧، ٥٣٣ . دراسة وتحقيق: د. محمد عماره . طبعة القاهرة عام ١٩٦٨ م .

وفي الختام .. فإننا ننبه على ضرورة التمييز بين هذا الموقف الذي التزمناه ، والذى ندعوه إليه ونذكره .. عندما نميز بين «المشترك الإنسانى العام» وبين «الخصوصية الحضارية» .. وموقف أولئك الذين لا يرون في الحضارات الأخرى إلا ما هو موضوع للنقد ، بل والهجاء !

ذلك أن نقدنا لما ننتقد من سمات الحضارة الغربية ، ورفضنا لما نرفض من قسماتها ، هو نقد لصلاحيته كى يكون من سماتنا الحضارية ، ورفض لاستعارته وتبنيه كى يكون من قسمات شخصيتنا القومية .. أما عن مدى صلاحيته في بيئته الغربية فتلك مهمة الغربيين وليس المهمة التي تعنينا ، بالدرجة الأولى ، فنحمل همومها الفكرية فقد تكون الكثير من السمات والقسمات والأفكار والقيم « خصوصيات حضارية غربية » ، ملائمة للغرب ، نشأت ونمّت هناك النشأة الطبيعية .. لكنها بالنسبة لنا تمثل النشاز والجسم المقم بالقسر على طبيعة إنساننا العربي والمسلم وخصوصيتنا الحضارية العربية الإسلامية .

فالذين يتصورون الحضارة الغربية شرًا مطلقا ، هم أبعد ما يكونون عن التزام المنهج العلمي في التفكير .

والذين يتصورون أن حضارتنا ، بكل سماتها ومكوناتها ، خير خالص ، إنما ينظرون في « الفكر » وإلى « الواقع » بعيون « الرومانسيين الحالين » !

والذين يحسبون إمكانية الاكتفاء الذاتي ، في الميدان الحضاري ، هم أبعد ما يكونون عن « فقه الواقع » المعاصر ، واستكناه شهادات الفكر وشهادات التاريخ .

والذين يدعون إلى تبني « النموذج الغربي » في الحضارة - في مشروع نهضتنا التي حاولها - هم إما جاهلون بقانون التمايز الحضاري .. وقانون التفاعل بين الحضارات .. أو خبيثاء - ولا نقول عملاء .. تدعوهم الكراهية للإسلام - باعتباره جوهر الذاتية الحضارية المميزة للعرب والمسلمين - إلى تبني « التغريب » بديلاً للإسلام الذي يكرهون ؟ !

فلا « الإنغلاق » أو « العداء » الحضاري ، بال موقف اللائق بالعقلاء .

ولا « التبعية » الحضارية ، بمفيدة ، أو ملائمة لمن يمتلكون « بصمة » حضارية تميزهم عن الآخرين . وإنما هو « التفاعل الحضاري » مع كل الحضارات .. مع إدراك مواطن وميادين « المشترك الإنساني العام » الذي هو ميراث كل بني الإنسان .. ومواطن وميادين « الخصوصية الحضارية » التي تحفظ على الحضارة العريقة ذاتيتها وهويتها كي لا تذوب في الآخرين ؟

د. محمد عمارة

## المصادر

- القرآن الكريم .
- كتب السنة .

- [ صحيح البخارى ] طبعة دار الشعب القاهرة .
- [ صحيح مسلم ] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- [ سنن الترمذى ] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- [ سنن النسائى ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- [ سنن أبي داود ] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- [ سنن ابن ماجة ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- [ سنن الدارمى ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- [ مسند الإمام أحمد ] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .
- [ الموطأ ] - للإمام مالك - طبعة دار الشعب القاهرة .

\* \* \*

ابن الأثير :

- [ أسد الغابة في معرفة الصحابة ] طبعة دار الشعب .  
القاهرة .

[**الكامل في التاريخ**] طبعة القاهرة .

**ابن حزم :**

[**الفصل في الملل والأهواء والنحل**] طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

[**رسائل ابن حزم**] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

**ابن خلدون :**

[**المقدمة**] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

**ابن رشد (أبو الوليد) :**

[**فصل المقال فيما بين الحكم والشريعة من الاتصال**] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

[**تهافت التهافت**] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م .

[**مناهج الأدلة**] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

[**بداية المجتهد ونهاية المقتضى**] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

**ابن عساكر :**

[**تهذيب تاريخ ابن عساكر**] طبعة دمشق .

ابن القيم :

[ أعلام الموقعين ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

ارنولد ( سير . توماس ) :

[ الدعوة إلى الإسلام ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

الأفغاني ( جمال الدين ) :

[ الأعمال الكاملة ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

الإيجي - والجرجاني :

[ شرح المواقف ] طبعة القاهرة سنة ١٢١١ هـ .

بكر :

[ وارث ووارث ] بحث منشور بكتاب [ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

البيروني :

[ تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة ]

طبعة لندن سنة ١٨٨٧ م .

التهانوى :

[ كشاف اصطلاحات الفنون ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

التيقاشى :

[ أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

الجاحظ :

[ كتاب الحيوان ] طبعة القاهرة - الثانية .

الجرجانى :

[ التعريفات ] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

جولد تسيهر :

[ العناصر الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في الحديث ]

بحث منشور بكتاب [ التراث اليونانى في الحضارة الإسلامية ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

[ موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل ] بحث  
منشور بكتاب [ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ]  
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

جيوم :

[ الفلسفة وعلم الكلام ] بحث منشور بكتاب [ تراث  
الإسلام ] بإشراف أرنولد - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .  
الحسن البصري - وأخرين :

[ رسائل العدل والتوحيد ] طبعة دار الشروق - القاهرة  
سنة ١٩٨٧ م .

الخزاعي أبو الحسن :

[ تخريج الدلالات السمعية ] منشور ضمن كتاب [ نظام  
الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية ] طبعة بيروت -  
دار الكتاب العربي .

الخوميني :

[ الحكومة الإسلامية ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

دافيد بالدوس :

[ النشرة الإخبارية لمنظمة العفو الدولية ] يونيو سنة  
١٩٨٧ م [ دراسة عن أحكام الإعدام في أمريكا ] .

سانتيلا :

[ القانون والمجتمع ] بحث منشور بكتاب [ تراث  
الإسلام ] - بإشراف أرنولد - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

شفيق غربال - إشراف :

[ الموسوعة العربية الميسرة ] طبعة القاهرة .

الشهرستاني :

[ الملل والنحل ] طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

[ نهاية الإقدام في علم الكلام ] طبعة جيوم - مصورة -

بدون تاريخ أو مكان الطبع .

الطهطاوى ( رفاعة ) :

[ الأعمال الكاملة ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

عبد الجبار بن أحمد ( القاضى ) :

[ فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ] طبعة تونس سنة

١٩٧٢ م .

على عبد الرانق :

[ الإسلام وأصول الحكم ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

على فهمي خشيم ( دكتور ) :

[ الجبائين : أبو علي وأبو هاشم ] طبعة طرابلس -

ليبيا - سنة ١٩٦٨ م .

الغزالى ( أبو حامد ) :

[ الاقتصاد في الاعتقاد ] طبعة صبيح - القاهرة - بدون

تاريخ .

فؤاد أفرام البستانى - إدارة :

[ دائرة المعارف ] طبعة بيروت .

الفيلوز أبادى :

[ القاموس المحيط ] طبعة بيروت سنة ١٩٨٦ م .

القرطبي :

[ الجامع لأحكام القرآن ] طبعة دار الكتب المصرية -  
القاهرة .

كوربان ، هفرى :

[ السهروردى المقتول مؤسس المذهب الإشراقى ] بحث  
منشور بكتاب [ شخصيات قلقة في الإسلام ] طبعة القاهرة  
سنة ١٩٦٤ م .

ماسينيون :

[ سلمان الفارسى والبواكير الروحية للإسلام في إيران ]  
بحث منشور بكتاب [ شخصيات قلقة في الإسلام ] طبعة  
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

[ المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية في  
الإسلام ] بحث منشور بكتاب [ شخصيات قلقة في الإسلام ]  
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

الماوردى :

[ أدب القاضى ] طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .

مجمع اللغة العربية - القاهرة :

[ المعجم الفلسفى ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

[ المعجم الكبير ] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

محمد احمد خلف الله (دكتور) :  
[ النص والاجتهاد والحكم في الإسلام ] بحث منشور  
بمجلة [ العربي ] الكويت - عدد يونيو سنة ١٩٨٤ م .

محمد حميد الله الحيدر أبادى (دكتور) :  
[ مجموعة الوثائق السياسية - للعهد النبوى والخلافة  
الراشدة ] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

محمد عبده (الأستاذ الإمام) :  
[ الأعمال الكاملة ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) :  
[ العلمانية ونهضتنا الحديثة ] طبعة القاهرة سنة  
١٩٨٦ م . [ مسلموهن ثوار ] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

[ الإسلام والعروبة ] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .  
[ الإسلام والسلطة الدينية ] طبعة القاهرة سنة  
١٩٧٩ م .

[ العرب والتحدي ] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م .  
[ الإسلام وحقوق الإنسان ] طبعة الكويت سنة ١٩٨٥ م .  
[ الأمة العربية وقضية الوحدة ] طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .  
[ المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ] طبعة بيروت سنة  
١٩٧٢ م .

محمد فؤاد عبد الباقي :

[المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب . القاهرة .

النسفي :

[مدارك التنزيل وحقائق التأويل] طبعة القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

فلينو :

[محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] بحث منشور بكتاب [التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

النويري :

[نهاية الأرب في فنون الأدب] طبعة القاهرة .

نيكلسون :

[التصوف] بحث منشور بكتاب<sup>١</sup> [تراث الإسلام] بإشراف أرنولد .

هينرش (كارل) : [تراث الأوائل في الشرق والغرب] بحث منشور بكتاب [التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

وينستك (أ.ى) وآخرين :

[المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف] طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ - سنة ١٩٦٩ م .

## الفهرس

الموضوع	الصفحة
● تمهيد ..... ٣	
● شهادة الفكر على المشترك الإنساني العام ..... ١٣	
● والخصوصية الحضارية ..... ١٥	
● علوم طبيعية عامة وأخرى إنسانية متميزة ..... ١٥	
● وحدة في النوع الإنساني وتعددية ..... ٢١	
● في تحديد مكانة الإنسان ..... ٢٤	
● الاتفاق على مبدأ التدين والاختلاف على ..... ٤٥	
● مكانته في الحياة ..... ٦٢	
● العقلانية الإسلامية ..... ٦٢	
● القومية بين المذهب ودائرة الانتماء ..... ٨٧	
● عموم الدين والدولة وخصوصية العلاقة ..... ٨٧	
● بينهما ..... ١٠٨	
● الاتفاق على مبدأ التطور والاختلاف في ..... ١٢٤	
● مذاهب ..... ١٢٤	
● الطيب والخبيث في حقوق الإنسان ..... ١٢٤	

الموضوع	الصفحة
● أى النماذج هو التحرير للمرأة ؟	١٧٩
● شهادة التاريخ على قانون التفاعل	٢٠٣
● التفاعل الحضاري بيننا وبين الفرس	٢٠٥
● التفاعل الحضاري بين الغرب وحضارتنا	٢٤٧
● وأخيراً	٢٥٩
● المصادر	٢٦٨

# قضايا إسلامية معاصرة

تصدرها

الأمانة العامة

للجنة العليا للدعاية الإسلامية  
بالأنبئ الشريفي

المشرف العام

د. عبد الوهاب العقاد

oooooo

رقم الإيداع

٨٨/٣٨٣١

**طبع بخطاب روز البيوسف**

















مطبع